



البنو قداري

رواية



عبد الفتاح مرسى

دفقات النشر

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

البندقدارى

رواية

عبد الفتاح مرسى

دراما تاريخية محققة

طبعة اولى
دقائق للنشر

- رواية البندقدارى
- عبد الفتاح مرسى
- الطبعة الاولى
- دفعات للنشر
- تحت رعاية الجمعية
- "المصرية للتكوين المعرفى"
- ت: ٥٤٨٨١٥٢
- الاسكندرية
- رقم الابداع
- ٤٨٤٨ / ٢٠٠٦ م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

لوحة الغلاف للفنان السوري / أحمد الجفان

تنويه

ايها القارئ الكريم

عندما كانت روايتي - التي بين يديك - تتمثل .
للطبع، أطلع على أصولها السيد/ سامي الجندي وكان
وقتها عضواً بمجلس الشعب المصري عن دائرة الرمل
بالاسكندرية. ولم يزل ذو مكانة في الحزب الوطني
الحاكم.

وقد اعجب بالرواية، وأقترح علىّ بأن يقدمها
لإحدى شركات الإنتاج التلفزيوني في سوريا. لما هو
معروف من تقديمهم للأعمال التاريخية بصورة متكاملة.
وخاصة وأن له علاقات وثيقة بعدد من الفنانين
والدبلوماسيين في سوريا.

"طرت فرحا بإهتمامه.." ولم أمانع. وأعطيته
نسخة من الأصول مصحوبة بتلخيص للرواية. واشترطت
بأن أشارك في كتابة السيناريو إن أمكن - إذ كنت قد
أعددت النص لقارئ الروايات المكتوبة. بينما الشاشة
تعطى للكاتب مساحة أكبر لتعميق الشخصيات والأحداث.

وسافر السيد سامي الجندي بالأصول الى
سوريا.. ثم عاد ليبلغني بأن مما يؤسف له أن (مصر)
تقوم بتقديم (الظاهر ببيرس) وإخراجها في مدينة الإعلام.
كما أنه لا مجال للعمل الفني في سوريا، التي تتعرض
للغضب الأمريكي الآن!

وشاهدت في نهاية شهر رمضان الفائت المسلسل
المتواضع الذي تم تقديمه عن الظاهر ببيرس وبذلك

توقفت أمالي في تقديم هذا النص كعمل تليفزيوني متكامل
وأملت أن أقدمه كروايه للقارئ.

كان ذلك في نهاية شهر سبتمبر عام ٢٠٠٥م لكن
في نهاية شهر ديسمبر وبداية يناير ٢٠٠٦م فوجئت
بعرض مسلسل (الظاهر بيبرس) في مسلسل تليفزيوني
من إنتاج "شركة أبيل الدولية للإنتاج السينمائي
والتلفزيوني - دمشق / سوريا" بالاشتراك مع الشركة
الكويتية للكمبل التليفزيوني
بإشراف عام للاستاذ / عامر الفهد
أخراج / محمد عزيزية. وكاتب السيناريو والحوار هو
الاستاذ / غسان زكريا. تم عرض المسلسل في ثلاثين
حلقة على شاشة القناة الفضائية mbc I

و عندما أنقطعت لمشاهدة حلقات المسلسل وجدت
أن كاتب السيناريو التزم بما جاء في (روايتي) الى حد
بعيد. دون الإشارة إلى أسم مؤلف النص، كما أنهم لم
يختلقوا للمسلسل مؤلفا.

ضايقتني أنهم لم يشيروا إلى ككاتب للقصة. أكثر
مما ضايقتني ضياع حقي في أجرى كمؤلف.
و كنت أمل أن تكون روايتي هذه مقدمة لأعمال الروائية
والتاريخية الأخرى.

- العمامة والتاج
نشرت فى سلسلة دققات للنشر
- رواية تاريخية
المسخوط من سيرة على بلوط - رواية تاريخية
نشرت بدار الوفاء للطباعة والنشر
- بطليموس بين المسافة والضوء - رواية تاريخية
تحت الطبع
- الفواطم
رواية تاريخية
تحت الطبع
- فتح المغرب
رواية تاريخية
تحت الطبع

نعم كنت أمل أن يكون لى نصيب فى جدارة
الأخوة السوريين. فقد برعوا فى تقديم النصوص
التاريخية على الشاشة الصغيرة. وأنفقوا بسخاء على
المعارك الحربية والملابس. والمبانى. ومجاميع الممثلين
الذين تحتشد بهم تلك الروايات.. مع التدقيق والمراجعة
التاريخية.

وإذ أضع - أيها القارئ الكريم - روايتى بين يديك. يمكنك
مشاهدة المسلسل.. والمقارنة.

لقد تناولت بييرس طفلا وصبيا وشابا ورجلا
وأميرا وهو ما ليس له وجود فى كتب التاريخ.

وأليت على نفسى أن أثبت حقى بكل الطرق
الممكنة. وفى ذلك أمل أن أجد معونة من زملائى
أعضاء اتحاد الكتاب فى مصر..
ومن الشرفاء.. أعضاء اتحاد الكتاب العرب فى
سوريا.

والله الموفق.

(١)

عندما صار مستند التمايز هو، لون البشرة!

فى أوائل النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى، بيع صبى مملوك من الشركس فى أحد أسواق دمشق بثمن ٨٠٠ درهم، لكن المشتري لم يلبث أن أعاد البضاعة إلى صاحبها وهو غاضب لما تعرض له من غش، وأخذ يهدد برفع الأمر لقاضى دمشق ليوقع العقاب بالنخاس الغشاش!

فقد اكتشف المشتري عيبا أخفاه النخاس فى بضاعته ولم يعلن عنه، إذ أن شائبة كانت قد أصابت إحدى عيني الغلام المباع، جعلت على النسي نقطة بيضاء أضعفت من بصر إحدى عينييه، وجعلته يبدو كأعور.

حاول النخاس إقناع المشتري بالإحتفاظ بالبضاعة المعيبة مع تخفيض السعر "خمسين درهما" لكن المشتري الغاضب تمسك بالرفض. أزداد النخاس التخفيض إلى "مائة درهم" وأصر المشتري على الرفض، نزل البائع بالسعر إلى [ستمانه درهم] ثمن نعجتين أو معزتين، لكن المشتري كان لا يزال متأثرا بحالة الغش التى أصابته، فلم يوافق على الصفقة، ورغب فى شراء غلام سليم معافى على الفزازة!

واعتبر أن ما أعطى له غشا تجاريا يعاقب عليه
القاضى الحازم.

ولم يكن أمام النحاس إلا أن يرد الدراهم
للمشتري، وهو يزجر هذا الغلام المعيوب ويسبه، إذ
عاد إليه بعد أن تخلص منه، وقد اعتبره ضمن خسائره
التي سيتعرض لها، وبات النحاس يعامله بغلظة،
ويسومه العذاب.

لكن لم يمض وقت طويل حتى أمكن للبائع أن
يدس هذا الغلام المعيوب ضمن صفقة من الغلمان،
إشترأها أحد وكلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب،
ومعظمها من الصبية المماليك، كى يرببهم الملك تربية
عسكرية فى قلاعه وقصوره بالقاهرة، ويستخدمهم فى
حرسه وجيشه.

وبذلك أمسى هذا الغلام الأعور، من جملة
مماليك سلطان مصر. والسلطان حينما كان يفرز
الصفقه ويلمس أجسادهم بيديه، تأمل الصبى الأعور
ورأه فى صورة فهد شرس، فأطلق عليه اسم "بيبرس"،
وقيل أنه "الثغلب الذى يغمض عينا ويحدق بالأخرى".

"..المملوك عبد أبيض.. يدين بالولاء لأحد
الأسياء.. لا بد وأن يكون له سيد يتحكم فيه وإلا إكتسب
حرية بإفتقاد السيد المطاع.."

والمملوك يورث.. قد يحمل المملوك اسم
النحاس الذى باعه، أو اسم المدينة التى أتى منها، أو
اسم أول من إشترأه، أو اسم المنطقة التى جاء منها
مخطوفا، أو غير مخطوف مباع من الأهل أو قادم فى

ضريبة الدم، ففي تلك الأزمات كان الفقر مدقعا، وكان الفقراء يبيعون أحد أولادهم لإنقاذ باقي أخوته من الموت جوعاً.

وبانتقال المملوك من سيد إلى آخر، تتراكم الأسماء في اسمه، ولكن لا إسم من الأسماء يمت بصلة إلى صلبه.

وعادة يستقر المملوك في قلعة من القلاع، وقليل منهم يسكنون القصور السلطانية، والحروب الدائمة كانت تؤدي إلى أن يقوم المنتصر بسبي النساء، وبيع بعضهم كجوارى، واستخدام قوة الرجال في الأعمال التي تحتاج إلى طاقة، إذا ما كان لونه غير أبيض "أما البيض فيتم تدريبهم وإحاقهم بالحرس، وفرق الجيش المقاتلة ويكون ولاء المملوك لآخر سيد". بالنسبة له يكون هو الأستاذ حتى لو كان مملوكاً مثله، ترقى، وأعتقته الوظائف الكبرى.

وعادة ما يعيش المملوك على مستوى "أستاذه" معززا مكرماً، أو مهاناً محتقراً...!!

في كل الأحوال، المملوك "أبن موت" مهامه الأساسية الحرب والقتال، مدافعاً عن أستاذه منذ بدأ هذا النظام في دولة السلاجقة، على يد وزيرها الهمام "نظام الملك".

وقد تقلصت دولة السلاجقة في آسيا الصغرى على يد الأتراك العثمانيين، ولم يتقلص هذا النظام الذي انتشر في الممالك والإمارات الإسلامية.

عند صعود الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى عرش السلطنة في مصر، كان قد أكثر من جلب المماليك وتشتتتهم نشأة حربية، حتى صار جميع حرسه الخاص ومعظم جيشه منهم. بلغ عدد ما أقتناه من ممالك أكثر من ثلاثين ألفاً، وعندما طالت فترات السلم، كثرت مشاغبات المماليك ودب النزاع بين رؤسائهم، وهم الذين يتولون جباية الضرائب بحكم أن الأرض الزراعية في مصر، يمتلكها السلطان، ويوزع أقطاعاتها على أعوانه وأقاربه وكبار ممالিকে لإستغلالها دون التصرف فيها، ويتخصص بعضها لإدارة العائد على جماعات من حرسه وأمرائه بيته.

•••

لما تفاقمت المشاغبات بين المماليك وأولاد البلد من الحرافيش، والحرفيين، والتجار، والبائعين في الأسواق، كان العامة يوسطون المشايخ الكبار، ويشكون للقضاة "حملة كلام الله" تجاوزات المماليك السلطانية، ومع توالي الشكاوى والنزاعات، قام السلطان ببناء قلعة للمماليك في "جزيرة الروضة"، أغلقها عليهم، فعرف هؤلاء المماليك منذ ذلك الحين "بالمماليك البحرية" أو المماليك الصالحة، للفصل بينهم وبين المماليك البرجية الذين يعسكرون في أبراج القلعة، أو الأبراج التي في القلاع المتناثرة على طول الطرق التجارية و"البرجية" هم المماليك الذين توارثهم السلطان، فعزل رؤسائهم، وأسند الإمارات والمناصب القيادية في قصره وقلعه إلى "خاصكيته" أو "مجلوباته"

الذين عرفوا "بالأجلاب"، ومنهم يتكون الحرس السلطاني لِنِنام السلطان قرير العين!

•••

لما كان الملك الصالح نجم الدين أيوب قد طعن في السن، ووقع في غرام جاريتة الجميلة "شجر الدر" والتي كانت من بنى جنس المماليك، وتزوج بها فى أخريات أيامه. بدأ شأن المماليك فى المد والظهور، ومعظم مماليك السلطان الخاصكية يأتون من شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، والقفجاق، وأسيا الصغرى، وبعضهم من فارس، وقليل جاء من البلاد التى تقع فى وسط أوربا، لذا فقد تألف "المماليك البحريةية"، وارتفعت بينهم الزمالة إلى درجة الإخوة، وخاصة وأن أمراء المماليك لم تكن النزاعات بينهم تؤدى إلى قتال ونزال، ما هى إلا تحرشات يمكن القفز عليها وحلها بالأصابع، وقليل منها الذى يتعقد حتى يحتاج إلى تدخل الأسنان!

•••

البلدان التى جاء منها المماليك الصالحية هى الاصقاع التى اجتاحتها عواصف الترك والمغول، وأنشأ بها الترك والمغول ممالكا تنافس سلطنة بنى أيوب.

عندما أصاب الوهن بغداد فى عصرها الضعيف، الذى تميز بسيطرة الأجناد الأتراك بما يسمى بعصر الوزراء، وسرى التفكك فى اوصال الخلافة العباسية، صار الوزراء الأتراك يجمعون بين

"السيف والإدارة"؛ بيدون للخليفة طاعة شكلية، ويستأثرون بالعوائد والضرائب، حدث التفكك الذى صاحبه ضغط هائل من القبائل المغولية الكثيفة عندما زحفوا من صحراء جوبي، وحروبهم التى إتسمت بالعنف والإثارة وحنثهم بالوعود، واستباحتهم للمدن التى تسقط فى أيديهم فيتم أستعباد الرجال، وسبى النساء، وبيع الأطفال، وينشرون الخراب والفقر أينما حلوا، إذ أنهم قوم لا يهدأون فى مكان لتتميته، وكأنهم حددوا هدفهم باستعباد العالم، شرقه وغربه، فى ذلك الوقت يحاصر الموت المدن والقرى والنجوع والمضارب، فيسرب الناس أطفالهم إلى منصة النحاس درءا من الموت جوعا، وحتى يعثر الأهل على من يتكفل بأولادهم من الأسياد، من هنا لا يمكن تحديد الأصول النهائية للمماليك، فالضعيف عادة ما يتشبه بالأقوى، الذى فرض أسلوب حياته.

عندما كان العرب هم الأقوى، كان الجميع ينسبون أنفسهم للقبائل العربية المعروفة، وقد أنقلب الحال، تركز الأتراك فى شبه جزيرة القرم وأسيا الصغرى، فإنتسب الجميع إلى القبائل التى تحقق أنتصاراتها فى الشرق، تقتل خليفة المسلمين فى بغداد، وتملأ نهر دجلة بالكتب التى جمعت من دار الحكمة، وقد أصبح "المستند" هو لون البشرية، إذا بجميع المماليك حتى لو كان لون بشرتهم يميل إلى لون النيل، كان يعتبر أصوله تركية أو شركسية أو أتيا من بلاد القوقاز..

يستتفكف المملوك أن يكون "عربياً"، حتى
يضمن الصعود إلى الإمارة، إذا ما أتاحت له فرصة
الترقى. إذ حدث التآمر غير المعلن باستعباد الأحرار
من العرب، الذين توالى إنتصاراتهم إذ توقفوا عن
الزحف للإستمتاع بما بين أيديهم فبدأ زمن تراجعهم،
لذا فإن السمر والسود سيأتى دورهم بعد البيض
والصفر.

لقد صار لون البشرية، فى ذلك الزمن وحتى
يومنا هذا، مستنداً صريحاً لتيبوا صاحبها السيادة
ويحصل على مجمل المزاياء..

•••

الطفل المباع أو المنهوب وهو ينتقل من يد إلى
يد، ومن حالة إلى حالة، لن يتيق فى ذهنه إلا ذكريات
باهتة يلفها الغموض، وتلك الأمانى التى يجترها وهو
يتلقى تعاليم دين وحضارة لعلها ليست لأبائه وأجداده،
فأنه سيبدأ من جديد، مفتقداً ذلك الإتصال الخفى، تلك
الشفرة الداخلية التى تؤكد دوماً أنه جزء غير أصيل
فى مجال ألقته فيه الظروف، تجبره الأحوال على حالة
التكيف الجبرية.

•••

معظم المماليك الذين صاروا قوادا، أو أمراء
لسلطان منتصر وقوى، يمكنهم أن ينسجوا لأنفسهم من
شعاع الأمانى، تاريخاً وماضياً، ليجترونه وهم صغار،
يتشكلون فى قالب متقارب السمات بأيدى مدربين قساة،
يعنفونهم بشدة إذا لم يتقولبوا فى القالب المراد، أو إذا

أخطأوا التعلم والتلقين والمحاكاة، عادة ما يقع على أجسادهم العقاب الصارم. فالتمارين طوال اليوم لتقوية عضلاتهم، وتعليمهم فنون القتال، لا تخلو من مشاق واصابات عديدة وأختبار قدراتهم على التحمل، ودائماً هم فى القلاع المغلقة بالأبواب الغليظة، معزولون بداخل الأسوار العالية، وعلى المملوك أن يدرك شيئاً من عداة الناس الذين يبدون طيبون ويبتسمون فى وجهه وهو بين جماعة متمنطقين بالسيوف والخناجر، أما إذا كان وحده، فإن هؤلاء المسالمون ينقلبون إلى وحوش مفترسة، تنتقم لما أصابهم من زملاء له، ضغطوا عليهم وأذوهم من أجل إستخلاص طلبات سيدهم، والأسياذ بات يبدنهم العنف والقسوة، ذلك خلف حولهم بحراً من العداوات توجه ضد "المملوك" منذ نعومة أظافره، وعليه أن يدركها ويحاذر. أن لا يغفل فيضيع، أنه دائماً يعانى من ذلك الإحساس بأنه مطارذ بالموت والعداوات، عليه أن لا يشرد عن قطع "الزملاء" ويشت بعيداً، أن يلوز بتلك الطاعة التى تضمن له أمنه وتحفظه فى نفس الوقت من الأخطار، لابد وأن تكون طاعة عمياء لا يسبقها أو يتخللها تفكير.

•••

أعتاد صبية الممالك إذا ما وجدوا الفراغ اقتنصوا بعض الوقت لأنفسهم، قد لا يمضونه فى النوم، إنهم يستغرقون فى اجترار الأحلام، يطيبون بها ما أصاب نفوسهم من جراح وآلام، يرتنون بها على

نفوس كبلتها الأسوار والمشاق، وإذا أمكنهم التحليق،
حلقوا بعيدا مخلفين تلك القلاع ذات الأسوار العالية
والغرف الحجرية والأبواب الموصدة، ومع تحليقهم
البعيد، يوقنون، بأن الإمارة لا تأتيهم إلا بالطاعة
المحفوظة بالمخاطر، وأن الحظ لا يحالف إلا أعدادا
محدودة، يصادفهم الحظ من بين الألوف الذين لا
تحالفهم الحظوظ، وأن الولاء قد يأتي بالفرصة، لكن
الفرصة لا يد وأن تكون متساندة على قلب ميت، أو
على شجاعة خارقة، أو خبث وخيانة أصيلة!

•••

في زمن القلاقل والإضطرابات، يكون المبدأ
الوحيد الذي يجب أن يؤمن به المملوك. "إقتل، قبل أن
تقتل". كن دائما مطيعاً لأوامر "مقدمك". لكي تريح
نفسك، لا تسأل عن العلل والأسباب، أنت مملوك،
وعلى المالك أو من ينوب عنه، يقع عبء التفكير
والتدبير، لكي تحتفظ بروحك بعيداً عن الهاوية
المظلمة، حاول بقدر ما تستطيع التقرب إلى "رب
المسلمين"، أحمده وأشكره أنه خلق بشرتك بيضاء،
وليست سوداء، ذلك يجنبك العمل اليدوي، والشقاء
المقيم، يجعلهم يمنحونك سيفاً وحصاناً وعديداً من
المزايا، وأمامك سيكون الأمل العريض في أن تكون
"المقدم"، "القائد"، "الأمير"، وأحمد الله أن صار لك
أستاذاً، هو أبوك وعائلتك وقبيلتك، كن لبنة في قوته،
إذ أن ضعفه وإتهياره فيه هلاكك وضياعك.

أما واللقاء منذ البداية بالمعلم قاسى القلب، لا يترك لمرحلة الصبا فرجة بأن تنمو أوراقها لتستشرف شيئا من ضياء الإنسانية والعطف، وبرغم هذه القسوة المتعمدة لوضع الجميع فى قالب محدد من الطاعة والشجاعة، فإن التعويض قد يتم بين الزملاء، فى نوع من التقارب الذى يتجاوز التعليمات المشددة، نكابة مما يصيب أجسامهم ونفوسهم، فهم يحتفظون بأرواحهم فى قفص واحد، ببيرس وقطرز وبلبان وسنقر، فالأعمارز متقاربة، وأن يتعاهدوا إذا ما إمتلك أحدهم فرصته وقبض عليها، أن يتذكر بأن له جزء لا يتناساه، عليه أن يتعهد بجمعه ليكتمل الفؤاد الذى يتمادى فى الأحلام، الأحلام التى تحفظه بعيدا عن أسوار القلاع العالية، كالسادة وليس كالعبيد.

الأحلام التى تحفظ روحه وثابة بالأمانى فتمنح حياته الأمل، ذلك الأمل الذى يجعل لها معنى، وأنه ليس قالب جامد فى أسوار القلاع والقصور، بل أنه إنسان يحلم بالتطبيق والسيادة.

وفى ذلك "المملوك" يستعيب عن الأخوة الحقيقية، بأخوة الدين، وعن صلة الدم، بالرفقة، فصار للرفقاء حقوقهم عليه، وحقه عليهم، وأن يحفظ كل منهم دائرة الأخر التى تتقاطع مع دائرته، وأن لا يجور عليها، ففيها جزء من قوته ونجدته، وعند الضرورة، تندمج الدوائر الخاصة فى دائرة "الأستاذ" الذى سيوزع عليهم المناصب المصحوبة بالمزايا، إذا ما كتب له

الانتصار على منافسيه وأمكن له القفز على ميزة
كبرى وعرش يخلو من صاحبه!



كان المماليك في زمن السادة الأشراف، يتمنون
أن يعيشوا مثلهم، منعمين في بساطة وتواضع هذه
السيادة، وإذا ما ملك "المماليك" زمنهم، وتعالى مدهم،
وأمسكوا بأعنه الأحوال. أصبح السادة الأشراف يتمنون
عيشة المماليك، وقد صار من المماليك الأمراء
والسلطين. انفتحت شهيتهم للسلطة والنفوذ، فيما يقال:
"كان في جرة، وطلع برة"

إذ باتت الآمال تداعب الأفئدة، بل وتعصف
بها. تلك الأفئدة التي عمل المعلمون قساة القلوب على
تفريغها وقولبتها على الطاعة العمياء، وأن يكون
أقصى ما يتمناه المملوك أن تمضي حياته هادئة بدرجة
نفر، مظلاً بظل أستاذه القوى، وفي النهاية، يموت من
أجله.

لعل الأمانى تنوعت، فملات نفوسهم
بالرغبات، أن يبدأ المملوك حياته "عريف قائد أربعين"
ثم مقدم لمائة، وأميراً لآل، ليكون له فرصته للوصول
إلى "ركن من أركان السلطنة" له الإقطاعات، يقتضى
المماليك الخاصكية، ويجالس السلطان كأمير أمراء
لعشرة آلاف، وهذه الرئاسات لا تآتى إلا إذا اختير
لوظيفة معينة بقصر السلطان، يعاونه فى ارتداء
ملابسه "جمداراً" يحرس خزائنه ويتسلم أمواله
"خازندراً" أو يكون مسئولاً عن الأسلحة "سلحداراً" وقد

يكلف بتجهيز الطوابي "طوبجيا" وقد يثق فيه "السلطان" ويقربه من أسرارهم، فيتحول إلى كاتب "دويدارا" وفي كل الأحوال فإن الوصول إلى حياة القصور، وجناح يمتلئ بالحريم، وإقتراب مأمون من المال والجاه. يبدأ من الوظائف الشخصية في قصر السلطان، وهي أولى درجات الوصول إلى الإمارة، فمنذ كان "بيبرس" فتى ينفق معظم وقته في التدريب وتنمية بدنه، كان في نفس الوقت، "يحلم" بالفرصة المواتية التي تلحقه وتقربه من الأمراء الكبار..

فرصة يعبر فيها عما قد تدرب عليه، أما أن يموت ويرتاح من الشقاء، أو ينتقل إلى الجنة التي على الأرض.

ذلك النعيم المقيم الذي يتضخم في حكايات الفتيان المماليك، وقد اعتادت أبدانهم على الشقاء، وما فتئ النوم يجافيها، فيعزفون على أبدانهم، أحلامهم المتوقعة والمأمولة.

(٢)

عندما يكون نشاط عزرائيل عامل مهم للحراك الإجتماعى

□ الأحلام التى يجترها المملوك الذى يقوم "المعلم" بعجنه وتشكيل جسمه ليلائم فروسية العصر ومعاركه. يكون الملاذ له لإستعادة نفسه وأدميتها، أن يأتى الصبى المملوك وهو محبوس فى الأبراج والقلاع المعزولة بشئ مضاد، يقاوم به سحقهم له!

•••

كان ببيرس وقطرز وبلبان وسنقر وغيرهم من صبيان المماليك، قد فقدوا ميدان لعبهم منذ الطفولة، لم يعشوا مرحلة لها أهميتها، إذا ما تشبعت نفوسهم بالمشاعر، فالمملوك المحجوز بقسوة خلف هذه المرحلة، سيكون مظهره، فارساً مغواراً، ولكن إذا فتشت فى نفسه، فسوف تعثر على ذلك "الطفل" الذى ينتظر العبور على حافة النهر إلى الضفة الأخرى، باكياً.

واللعبة المتاحة بداخل القلاع، ستكون "الحكايات" الحكايات التى تقلب فيها الأذهان والألسنة، وتستعيب بها عن قسوة الواقع، تكبر وتتضخم، تتضمن المحلات والمحرمات، تنقص وتزيد، يعدل فيها ويبدل، لكنها ستظل القارب الذى تعبر به الأرواح

المكبلة بداخل الحجرات الحجرية، يأمل المملوك المسحوق في شمسها البعيدة، أن تشرق..!

من هنا سيعيش المملوك، بل سينشأ على "الروايات" التي سيكون لها جزء ظاهر فى الواقع، والجزء الأكبر مغمور بنسيج الخيال، وبعضهم لتطور فى البراعة، ووقت متاح من العزلة، سيقدم حكايته فيها ما يشبه الصدق والحقيقة المعاشة، حتى أن زملائه الذين يعرفون كل شئ عنه، سيكون أول من يصدقوا "قصته" التي تمنى أن يلعب فيها الدور الرئيسي، وهو يذكر الأسماء التي توهمها والأماكن التي وردت على لسان الحالم، تتحول إلى حقائق فى حياته، وعلامات يصير معروفا بها، أنه يكذب لدرجة أن يصدق نفسه، بل ويصير مؤمنا وشديد الإيمان بكل ما خلفه وأبدعه فى لحظة إنقاذ من السحق، ليس أمام هذا المقهور إلا الشطح ليفلت.



السطحات اذا ما امتلأت فراغاتها بالتفاصيل لا تختلف كثيرا عن التاريخ الشخصى المندمج فى التاريخ العام، وقد ثبت أن الزائف أكثر من الحقيقي. فى ذلك، يتميز "العلماء" باستخلاصهم للأصيل القليل من بين أكوام الخبث والتضليل.



المملوك قطز رأى نفسه أنه ابن أخ الملك علاء الدين خوارزمشاه، ملك الدولة الخوارزمية التي انهارت أمام جنكافل التتار، من الذى يجرو من الصبية

الماليك أن يكذبه؟ وببيرس نفسه، صار بندقدارى ومنسب للعائلات المالكة فى القوقاز..

ويحدث أن تأتى الأيام بالظروف التى تبدل الأحوال، فتضى على ما كان خيالاً، حقيقة، لا أحد يبيح خلفها، فالحروب سمة العصر، وهى التى تتكفل بإزالة القائم وبناء المنهار، وتشكيل المجتمعات أو تفريقها، فمن يفلتون من الموت ستكون مكافأتهم أن يصدق الناس رواياتهم، ويتناقلونها فى شئ من المحبة.



الحروب دائماً ستكون مجالاً للحراك، الصعود والهبوط، الحياة والموت فى ذلك الزمن الذى وقف فى استحياء على بداية العصر الحديث، كان فى الواقع، زمناً يمتلى بالطموحات، إذ يمكن لشخص مغامر أن يكون أميراً أو سلطاناً إذا أحسن التدبير، ثم يتكفل الأدياء والقراء، بنسج تاريخ خاص له.

فى وقت السلم لا تكون الفرصة متاحة إلا لعدد ضئيل كى يصعد ويستقر فى البقعة المضيئة، إذ أن النشاط الذى يتولاه عزرائيل وقت السلم الطويل يكون بطيئاً فى مجتمع خطط نشاطه "الاقتصادى" على الموت بالأعداد الكبيرة لتتناقل الثروات، ويحدث النشاط فى المنشآت والأسواق، إذ أن من بينى مسجداً يتقرب به إلى الله فى الآخرة، ويثبت ثراؤه فى الدنيا، إذا لم يرحل ويأتى آخر يحل فى قصره ويمسك بزمام وظائفه، فسوف تتعطل حركة المباني الجديدة وعمل الصناع، ونشاط التجار، إلى وقت طويل!

وجماعة المماليك أنشئت اجسامهم على
التدريبات الشاقة، والنظام، وتكرار التدريبات بالنشاب،
و السباحة، و الفروسية، و اللعب بالسيف، و الضرب
بالرمح، و القذف بالأطواق، و المصارعة، و تتوفر لهم
وجبات الغذاء المطلوبة، انهم يكونون فى حالة حركة
لا تتيح لعزرائيل فرصة لأداء عمله جملة إلا فى زحام
التصادم و الحروب، الحروب التى يتمناها شباب
المماليك، ففيها يذهب الكبار ويتم اختيار بعضهم لشغل
وظائف من رحلوا، و جرت العادة أن يحل مكان
المملوك الراحل، مملوك جديد يعيش فى منزله، يتزوج
من امرأته، وينشئ له أولاده!

وفى ذلك نقلة كبيرة، و مفاجأة لمن يقع عليه
الاختيار، فهو لن يخرج من قسوة الابراج و القلاع ليبدأ
الدرج من أدنى الدرجات، بل أنه سيصعد إلى الدرجة
التى كان يشغلها من رحل ويحل مكانه فى يوم وليلة!



لذا كانت الحروب "كلما كبرت" كلما طرأ
التغيير و التبديل على عدد كبير من المماليك، الحروب
تأتيهم بالفرص و المال و رغد الحياة، كما أن عزرائيل
سيثبت فيها مهارته فى حصد الأرواح، و من سيموت
ستكتب له الراحة الأبدية و يفلت إلى "جنة" عرضها
عرض السماء و الأرض، فقد مات شهيدا و مضحيا فى
سبيل الله، إذ أن كل الحروب، و حتى المؤامرات
الوضيعة، كانت تتسربل بالثوب الدينى، فى عصر لم
يكن متاحا للعقل فيه أن يعمل إلا فى حدود المطامع

الشخصية.. طبيعى من سيعيش من الممالك، ستكتب له الراحة الدينوية، فإن السلاطين قد اعتمدوا على الممالك كحراس، أو كمحاربين لتحقيق أطماعهم وحمايتهم بجيش يتشكل فى معظمه من الممالك، يمنع أى "ابن بلد" بأن يلحق به، فى قسمة تحفظ جميع الأنصبة للأجلاّب وتلقى بالفتات للعرب والمصريين فى ناحية تخص العمل فى النشاط الأقتصادى يكون ابن البلد، ويتترك للممالك النشاط الحربى والعسكرى.

تلك تحديّات المجتمع الإقطاعى المقدسة، عندما يتوارث الابن مهنة أبيه، والفقير فقر أهله، ويكون الحراك إلى أعلى فى غاية الصعوبة، فالمجتمع الإقطاعى، مجتمع الدوائر الثابتة، كل دائرة تحيط بجماعة أو فئة، تكون فى الغالب ثابتة الأوضاع بغرض السعى إلى الإستقرار، والموت وحده، هو الذى يحرك فيها ذلك الحراك الداخلى البطئ.

•••

أما الدائرة العليا المحمولة فوق الدوائر جميعها، فهى دائرة السلطان وأهله وقصره، والذى هو فى نفس الوقت "مقر الحاكم والحكومة"، بداخلة حراس القصر، وحوله فرق الجيش والأمراء وأمراء الأمراء، والوظائف الأخرى المتقاطرة من "نفر" فى "فرق" السلطان، إلى "أمير" الأمراء، وركن من أركان الدنيا والدين، والسيادة..

•••

مقدم أربعين، "قائد مائه"، أمير ألف، ركن
عشرة آلاف، ونائبا للسلطان فى ولاية أو إقليم، يعيش
فيه المملوك عيشة السلاطين، فى صورة لا تتقل
للملوك الأشياء، بل تنقله إلى تلك الأشياء، فىستمتع
بها، فجأة يحاط المملوك بالثروة والنفوذ والعظمة،
يحاط بالأدباء والكتاب والشعراء والمشايخ وكثير
ممن يعملون فى أن يتيه المملوك بنفسه، ويستلذ بأيامه
الجديدة، عندما يحاط بالادباء والكتاب والشعراء
ومبدعى المباحج.



وإذا ما صار المملوك ركنا، تعتقه الوظيفة
ويمنح الحق فى شراء الممالك من حر مال وظيفته
واقطاعاته، يجبسهم فى برجه، ويأتى لهم بالمعلمين
القساء ليعلموهم الطاعة والعسكرية، يعيد ما مر به،
وأن يكونوا له كقوة تحرسه وتخدمه كسيد، بهم
سيشارك فى حروب سلطانه، لكى ينعم عليه السلطان
بالإنعامات بقدر هذه المشاركة، وكلما زادت
الإنعامات، أزداد قوة ممالكه لتزيد الإنعامات، حتى
تصل إلى حد مشاركة السلطان، والتأمر عليه، ليحل
محل.

"يا لها من عجلة لا تتوقف. وقودها الموت
والقتل والدم.

ومن يتأمل هذا النظام سيجد أنه يحمل فى
طياته الدوافع الدائمة إلى القلاقل والحروب، واستمرار
نقل الثروات من يد إلى يد، ذلك يدور فى كل دائرة

على حدة، مما يعطى شعورا عاما بالثبات والسلم الطويل، طالما أن الخطر ليس خارجيا، والحقيقة أن هذا التفاعل المخطط له والذي يعكس حالة انتعاش في الحياة الاقتصادية وتحريكها باستمرار يدفع الأمراء الجدد لأن يتعاطفوا مع العامة، ويحسنوا إليهم كسبا للشهرة، فإذا تجمد الوضع، قلل التعاطف وتوقفت الإحسانات، مما يجعل الفقراء يسعدون بالصراعات التي تقوم من حين لآخر بين قوى المماليك، وذلك التنافس الخطر بين الأمراء.

لكن الأمر يختلف تماما إذا جاء الخطر من خارج الدوائر المحلية، ففي ذلك تحدث تحولات خطيرة تؤثر على مظهر الثبات للمجتمع الدوائري، أو الفتوى، كما حدث في آخر عصر سلاطين المماليك، لما جاء السلطان العثماني غازيا لمصر، فإن فترة طويلة من الزمن مرت، وخسائر ضخمة للمزايا المملوكية فقدت. حتى تم لهم استعادة جزء من مكانتهم، وقد رضوا بأن يكون موقعهم "متوسطا" بين الفقراء والأغنياء، المحكومين والحكام، وأمام عموم الفئات غير التركية فهم الأسياد، لكن أمام العنصر التركي الفاتح، فهم "العبيد" الذين يسخرون طاقتهم في خدمتهم!

•••

إذ كان المماليك قد بدأوا حياتهم مستعبدين لسيد يملكهم ويسخر جهودهم لصالحه، فأنهم انتقلوا للسيادة تحت ضغط خطر خارجي أمكن له أن يأتي بسفنه

الهائلة، وجيوشه الجرارة، ليهبط كالصاعقة على شواطئ مصر في دمياط، يحتلها ويستتيعها، وبينى فيها استحكاماته، يتطلع إلى قطع المسافة فى حقول الدلتا ومزارعها إلى القاهرة بغرض إسقاط عرش الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهدف الفرنجة كان، السيطرة على املاك الدولة الأيوبية فى مصر والشام. والدولة الأيوبية فى أخريات أيامها كانت تعاني تفككا وضعفاً شديدين، وقد تنافس الملوك الأيوبيين فى الشام ومصر، حتى طمع فيهم الطامعون، وقد جاء من فرنسا، "لويس التاسع" الملقب بالقدّيس، يقود حملة كبيرة تحمل شعار الصليب يريد أن يضع حداً نهائياً للحروب التى تثار بين أنصليبيين والمسلمين لصالحه، وأن يخلص ثأر أوروبا من المجاهد الأعظم، صلاح الدين الأيوبي. واستهدف أيضاً أن يتسلم من أحفاده أملاكهم فى مصر والشام مقابل ما ألحقه "جدهم" من هزائم لأوروبا، عندما فتح "بيت المقدس".

•••

فى أولى خطوات الحملة الصليبية والنجاحات التى تحققت لها تباعاً بدا أنها نزهة لقوة بحرية ضخمة يقودها القدّيس، مصحوبة بعدد كبير من ملوك الفرنجة، والذى وزعت عليهم مسبقاً المناصب العليا فى مصر والشام وسواحل بلاد العرب، وأفريقية.

" الصليب الذى رسموه على ملابسهم ودروعهم من أطماعهم براء "

والحملة فى مظهرها، وفيما أنت به من أفعال التدمير والتخريب والإستباحة، ألحقت بالأمنين من الأهالى، الخراب والدمار والقتل. كان ذلك لبث الرعب فى القلوب، وإزاحة التفكير فى المقاومة، وحتى لا يتحرك السلطان بمماليكه، أما أن يهرب إلى الشام وينحصر هناك كضيف ثقيل، أو يجابه الجيوش الصليبية الجرارة وهو فى ضعفه ومرضه، فيهزم ويتم حسم الأمر سريعاً.

أما إذا ظل السلطان مستحكما بالقاهرة فتتزع منه أراضى الدلتا، ويأتى الفلاحين الأوربيين لزراعتها إذ ستوزع عليهم، تمهيدا لإسقاط قلعة صلاح الدين وطرده الأيوبيين منها.

•••

لم يكن باديا أمام الصليبيين من المقاومين إلا أفواج من الأهالى، يقود بعضها شيوخ الطرق الصوفية، من بقايا الدولة الفاطمية الذين يأملون فى إستعادة "دولتهم الشيعية" التى أستأمن عليها صلاح الدين فمنحها لنفسه وباتت إرثا للطامعين من ورثته!! لكن المفاجأة التى أذهلت لويس وأركان حربه أن السلطان نجم الدين أيوب لم يهرب ولم يتحصن بالقلعة، بل أتى إلى الدلتا لكى يوقف تقدمهم، إذا هم ملكوا دمياط، فلينشئ أمامها مدينة جديدة، لتكون معسكرا كبيرا فى فارسكور، يعطل الزحف ويصيب الفرنجة باليأس، حتى يركبوا البحر عائدين من حيث أتوا.

المناقشات المستفيضة انتهت إلى تحييد فكرة ملاقاتة الأعداء وعدم إنتظارهم بالقاهرة، فإن سيطرتهم على الدلتا ذات الخيرات العديدة لهي كارثة على مصر والشام.

لذا سهل السلطان وأتى إلى فارسكور بعتاده وسلاحه وأمواله وحرимه ومماليكه، مع أن ذلك أخذ وقتاً، وخاصة وأن "السلطان الشيخ" كان مرهقاً، وكبار الأمراء المماليك كانوا يكثرّون من تغليب المواضيع، وبينهم كثير من التنافس، أقواهم كان الأمير "اقتاي"، أما "أيك" فكان كثير التوجس والرّيبة، مع أنه يملك القوة التي تعادل قوة اقتاي، ويأتي بعدهما ركنان آخران "بلبان" و"سنقر" وعلى مسافة من الأمراء الكبار، كان يأتي قواد مماليكهما الخاصكية قطز لأبيك، وبيبرس لاقتاي..

وبينما حملة لويس تتمركز في دمياط وترسل بالسرايا والكشاف فلا يجدون مقاومة لهول المفاجأة التي حدثت، والكرشة التي أجبرت الأهالي بأن يجفلوا من أمامها، راح الملك لويس يرسل بالرسل إلى أمراء المماليك، بواسطة ذلك الطابور "الممالي" الذي ينضم عادة إلى الغزاة، ممنيا نفسه بأنه صاحب الحق الشرعي في البلاد، ويعتقد بأن الصليبيين ما جاءوا إلى مصر إلا من أجل رد الحقوق لأصحابها. الذي سيوافقون مقدماً على المشاركة في حكم مصر،

ينخدعون بما يطلقونه الدعاة بأن لويس القديس جاء ليخلص مصر من يد بنى أيوب "الغرباء" ويقدمها على طبق من فضة إلى المطالبين بالعرش الفاطمي !
ليحدث ذلك الإنقسام فى صفوف الجمهور وهو الجمهور الذى يخشى لويس أن يلتفت للجهاد كما يدعوه دينه إلى ذلك!

•••

•• سوف يحاط الملك لويس، وملوكه من أركان جيشه العرمرم المشحون بالغضب والتعصب بأخر أخبار بنى أيوب فى نزعاتهم وعداوتهم وتفتيتهم للملكة القوية، إذ أن مظاهر الضعف عادة ما تحل إذا ما إنصرفت مصر عن الشام، والعكس صحيح.

ولعل الملك لويس كان يعلم بوهن "الشيخ السلطان" وغضب ابنه تورانشاه، وكيف أنه نفاه، وحبسه هناك مع قلعة من مماليكه فى قلعة كيفا بديار بكر، حتى لا يتغلب عليه "وقد أنفجر غضب ابنه تورنشاه على أثر تزوج الشيخ السلطان من شجر الدر" "الجارية الكردية" كما أحاط الغزاة بالخلافات الناشبة بين أمراء المماليك، وتنازعهم، وتلك الطاعة الشكلية التى أدمنت فترات السلم، حتى جعلت المماليك ليس بأهل حرب، بل أهل أطماع وتنازع وثراء.

•••

ولعل الملك لويس فرك يديه أبتهاجا، فكل شئ فى مصر مهيب لتأسيس مملكة مسيحية على أرض "مصر والشام"، والشطب على إنتصارات المسلمين فى

عهدهم الأول على اعتبار أنه لم يكن هناك قديسا مثله
يصددهم.

ولعل الذين سمعوا هذه الأخبار من قادة حملة
لويس فركوا أيديهم أيضا وسأل لعابهم على الغنائم
والثروات التي تنتظرهم، بل تدعوهم أن يخطون إليها،
ويبتزعوها من "العبيد" إلى "الأحرار".

كما لاح للقديس لويس. أنه جاء فى الوقت
المناسب، والثمار طابت، بدانت قطافها، ما عليه إلا
أن يقطفها "بأقل الجهود".

ولم يكن أحد يدرى بأن حملة لويس على
دمياط، كانت الباب الذهبى لصعود المماليك إلى عرش
سلطنة مصر والشام، وبداية عصر جديد من القوة
الإسلامية الجديدة.

نعم فالحروب فى معظم احوالها تآتى بالمتغيرات
الهائلة!

ففيها ينشط "عزرائيل" إلى آخر مدى، وتتصهر
المعادن.. فيعلوا معدن على آخر.

إذ أن البطولة لا تظهر إلا فى الملمات!

(٣) الأبواب الذهبية للثراء والنفوذ

□ حملة لويس التاسع "الصليبية" على دمياط، بما جلبته من خراب ودمار، ستكون الباب الذهبى الذى يذلف منه المماليك الصالحية إلى السلطنة، فيتبشروا، عرش مصر ويستمتعون. بالسيادة والملك، الجاه والنفوذ، إذ سيبدأ عهدهم منذ تلك "الحرب" التى ستتيح الفرصة "لبيرس وزملائه" ليثبتوا أنهم أحق بالإمارة بما قدموه من تضحيات وبلاء أمام جسامه وأخطار الحملة الثقيلة، التى جهزت لتجتاح مصر والشام.

•••

كان الملك لويس يعقد على حملته الآمال العظمى فى أن يكون هو "القديس" الخالد الذى ينتقم من المسلمين، ويثأر من مجاهدتهم الأكبر "صلاح الدين" عندما يهزم ويحطم جيوش "أحفاده" وينكل بالأيوب، ويزيل أسطورة شجاعتهم، ويضم أملاكهم إلى أملاكه.

•••

لكن فى خضم المعارك العديدة التى دارت بين المماليك وجيوش لويس، حدثت التحولات مع ما شابها من مفاجآت، فقد علم أمراء المماليك الكبار أن سلطانهم نجم الدين أيوب قد مات "أثناء سير المعارك

الضارية" فأخفوا ذلك الأمر بواسطة (شجر الدر) واستخدموا أختامه، وتحدثوا بإسمه، إذ أنهم حاربوا معركتهم اليائسة، النصر أو الموت، فأمكن لهم أن يحققوا ذلك النصر العزيز، بل وأن يؤسروا "القديس لويس" بدار ابن لقمان في المنصورة، ولم يطلق سراحه وسراح ملوكه وأمرائه المنهزمين إلا بفدية كبيرة من الذهب.

"جاء لياخذ فدفع" وكان "الجميع" عند النظر إلى الوظائف والعطايا، يضعون "الأعور الجسور" في مقدمة السجلات التي يجب أن ينظر فيها السلطان، إذا ما بلى من المرض، وأمكنه توزيع الترضيات، أن يحصل بييرس بطل "معركة القصر" في فارسكور، بالنصيب الملائم، لأهمية هذه المعركة.



بييرس وهو يبنى نفسه بالأمانى، رأى أنه قد لاحت له فرصة عظيمة، فعادلها بالموت. وكان جسورا، فاهتبل البطولة، مستهدفا باب النفوذ والجاه، وبات يحلم بالمكافأة والإمارة، ولم يكن يدري بأن السلطان قد مات. وأن شجر الدر والأمراء الأربعة الكبار يتكتمون الأمر منذ بداية المعارك تقريبا، حتى تضع الحرب أوزارها. بما فى ذلك من مرارة التحول من العمل فى فرقة السلطان (صاحبة المزاييا)، إلى كونهم "قرانيص" سلطان سابق وإرث لسلطان قادم، مزاحين إلى الهامش، وملقى بهم إلى المهام اليائسة،

أنها المعاناة، يحاربون معركة كبرى وقد يستولى
آخرين على انتصارهم الشاق!

•••

في ابراج الروضة بالجزيرة التي يحيط بها
النيل وتسمق فيها الأشجار وتكثاف على أرضها
الخضرة، وتتنوع الألوان.

نشأ المملوك بيبرس، يتدرب حتى الارهاق،
ويختلس النظر الى ما حوله، فيغيب فيما وراء النهر،
يزيل ما على ضفافه من قصور، يقيم بها الكبار
يتعمون ما بين السلامك والحرامك، المشهد المنبسط
مع النيل الذي تسبح على صفحته السفن الشراعية.

مع فترة السلم الطويلة، شذبت نفس الفتى
المليئة بالأسواق، وأمكن أن يتألف، بما يجتزه من
أمانى وأن يهدئ من شراسته، وقد ولت أيام التدريب
القاسية وبدأ الانخراط في المهام المحددة، والفرق
العسكرية في أيام سلطنة الملك الصالح نجم الدين
أيوب، كانت تتوزع على ثلاثة فرق نظامية كل أفرادها
من الأرقاء، ورؤسائهم من عتقاء الوظائف والمختارين
من المماليك، والجميع يعملون في خدمة سلطان هادئ
النفس محدود الأطماع، قنع بما بين يديه، كإرث
متوارث عن الأباء، وقام بجلب "خاصكيته" وفرزهم
بمعرفته لمس أجسامهم الفتيّة، فنشأت بينه وبينهم تلك
العلاقة التي تقع وسطا بين عاطفة المالك وعاطفة
الأبوة، يتمحور في "الملكية والأبوية!!".

•••

بيبرس وجد نفسه ينضوي إلى أولى الفرق،
وهي طائفة المماليك السلطانية، والتي تتكون "أو ينبغي
أن تتكون" من أعظم الأجناد شأنا، وأوفرهم إقطاعا،
وأرفعهم قدرا، وأشدهم قربا إلى سلطان البلاد الذي
كان أكثر إطمئنانا لهم، فهم حرسه الخاص، وحراس
قصوره، وأمواله، وحريمه، وعياله، وكنوزه، ومعهم
تتغلق الأبواب وينام قرير العين!!

•••

حصل بيبرس على درجات الترقى في هذه
الطائفة، رتبة بعد رتبة، وعلى مسافات متباعدة نظرا
لطول فترة السلم، ووجود المنافسات المعتادة "ولكيل
طموحاته" حتى الثورات الداخلية التي تكتنف حياة
السلطين، كانت في حياة الملك الصالح نجم الدين
أيوب، تكاد تكون معدومة، أو يمكن إطفاء ما يثور منها
دون تحريك لقوات محاربة كبيرة، فالعدل النسبي،
جعل العربان يهدأون، والنوبيون يخضعون،
والمصريون يلتصقون بأرضهم.

وقد تسمت الفرقة التي ألحق بها بيبرس بأسم
الصالحية، ويقال لها "البحرية" نسبة لسكنابهم في
معسكرات تربيتهم في جزيرة الروضة، وحتى يتم
تمييزهم عن المماليك المتوارثة "القرانيص، ومفردها
"قرنص" أو "البرجية" وهم غير الأجلاب الذي يشترتهم
السلطان ويقوم بتربيتهم بنفسه، يلتقى بهم كثيرا،
ويشاهد تدريباتهم، ويتخير منهم الأفضل، والذي يقع
في نفسه موقعا حسنا ليقربه إليه، أو يكلفه بالمهام

الخاصة، وللمالك الصالحية "سجلات خاصة" تختلف عن سجلات مجلوبات السلاطين السابقين "القرانيص" الذى تكون سجلاتهم بديوان الجيش فى قلعة الحبل، وتصرف لهم الرواتب الثابتة، ومنزلتهم لا ترتقى إلى منزلة الممالك الأجلاب الصالحية، والذى ترتبط حياتهم وترقياتهم وما يتعمون به وما يشغلونه من وظائف الأمانة "حتى على اجناد الحلقة" بشخص السلطان ذاته، فيكونوا محل ثقته، قوتهم ثبات لعرشه من القلاقل والأطماع. هم بمثابة يده اليمنى الذى يبطش بها من تسول لهم نفوسهم التمرد عليه، والخروج عن طاعته، تلك هى الفرقة الأولى "الصالحية"

•••

أما الفرقة الثانية فى جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب فهم طائفة "أجناد الحلقة" وتتكون هذه الفرقة من الممالك "محترفي الجندية" من بقايا ممالك السلاطين السابقين وأولادهم، وهم طائفة تكون أقرب إلى نظم "الجيش العامل" لا يتغيرون بتغير السلطان، بل يزداد عددهم بما يخلفه السلطان الراحل من ممالك "قرانيص" ينتقلون من "الفرقة الأولى" التى تمثل حرس السلطان الخاص، إلى كونهم قرانيص، وللقرانيص نظامهم الداخلى، الذى يتسم بالثبات الشديد "والرؤساء من داخلهم فيما يختص بمقدم أربعين" أو ثقب دباش مائة، أما أمير الألف، فتعقد لأمير من ممالك "السلطان" أثناء الحروب، يتحكم فيهم ويؤمر فيطاع، أما فى وقت السلم، فإن ترتيبهم ونظامهم يكون من

داخلهم بالرؤساء المقدمين والنقباء، طبقا لما هو مبين
فى النظم المتعارف عليها، والتي يصدرها سلطان
البلاد.

فلا يملك أى "قائد" لأجناد الحلقة سلطة إخراج
أو إضافة مملوك من وإلى "الحلقة" إلا بعد الحصول
على إذن صريح من السلطان، وتقديم الأسباب المقنعة،
والسبب الوحيد المقنع، هو موت أحد أجناد الحلقة
وفراغ وظيفته، فيستخدم آخر عوضا عنه، بعد إثبات
ذلك فى ديوان الجيش بالقلعة، وتحديد وظيفته الدائمة،
وبناء على ذلك يحل محل "المتوفى" ويحصل على كافة
المزايا التي كان يتمتع "أو يشقى" بها الراحل، وقد
تصل هذه المنافع أن يحل محله فى بيته، وإقطاعه،
ويتزوج من زوجته، ويواصل تنشئة أولاد المتوفى فيما
يضمن عدم إلحاق الأذى والتشريد بزوجات وأولاد
المماليك، فلا يحصل "أهل البلد" على هذه الزوجة أو
يكون لهم القيامة على أولاد المماليك، وهم من
ممتلكات السلطان فى الأساس، ولهم ما له من علو
مكانة!

•••

أما الفرقة الثالثة "فهي تتكون فى أيام الخطر"
تلقائيا من ممالك الأمراء، والأركان، وكبار موظفى
وأقارب السلطان، وذلك اذا ما أحدثت الأخطار بالبلاد،
فلكل أمير يرفعه السلطان إلى القيادة العليا، ويقربه
منه، الحق فى إقتناء المماليك بمقدار ثروته واقطاعاته
التي حصل عليها كإنعامات، مقابل خدمات عليا

للسلطنة، هؤلاء المماليك لن يكون لهم أمير واحد ياتمرون بأمره، بل أن كل جماعة يترأسها مملوك يختاره الأمير من خاصته، وتكلف هذه الجماعات بمهام محددة أثناء الأخطار، وإذا ما تلاشت الأخطار وانحسرت، تعود هذه الجماعات لخدمة وحراسة وطاعة أميرها، وتقاس مكانه "الأمير" في وظيفته بما يملكه من ممالك محاربين أشداء، ويتعاضم شأنه إذا ما تكفل بمهمات خطيرة وانجزها، كأن يثور الاعراب وينهبون القرى، فيتكفل أمير لمحاربتهم واخضاعهم، أو ينقلب أمير على السلطان، فيوعز لأمير آخر أن يستخدم ممالিকে في ايقاع العقاب به وردعه، وإذا ما أفلح الأمير بما يملكه من ممالك، يظل ركنا ركينا من أركان السلطنة، وشاغلا لوظائفه واقطاعاته التي تدر عليه الخير الكثير، الذي يكفى الصرف والنفقات على ممالিকে ومزاياهم، والإنعامات تزيد من قوة الأمير، كما تزيد في قوة السلطان "في تبادل بين القوة والمزايا الاجتماعية لا يتوقف" بل يتنامى دائما، حتى يلفت نظر السلطان لخطورة هذا الأمير على عرشه "فيسعى للخلاص منه وتصفيته" وإدخال جزء من ممالিকে "في خاصكيته" ويلحق ما لا يريد لهم بأجناد الحلقة!

وفي كل الأحوال سيتعلم الأمراء الكبار الدرس، فلم يعد أحد. يتمادى في إظهار خطورته، على عرش السلطان فإذا كثرت الأنعامات على الأمراء، قاموا بتوصيل معظمها إلى مماليكهم، ليتشبه المملوك الصغير بالمملوك الكبير "مع الفارق" أن يكون له

قصره و خدمه وأكثر من حصان، وقد يتماذى بعضهم
فيكثر من الأتباع والنفقات على المظاهر الاجتماعية
التي ترفعه عاليا أمام أهل البلد الفقراء، وتحيط الأمير
بالأحزرام والتبجيل!

•••

القتال يعنى مواجهة الموت والأخطار، وهذا
العمل من أهم أعمال الممالك، فقد كانت لهم الوظائف
الرئاسية فى المجتمع، تلك الوظائف الإشرافية، أما
الوظائف التنفيذية والعملية فى النواحي الاقتصادية من
زراعة وحرف وتجارة وخدمات، فتقع جميعها على
عاتق أهل البلاد، فى ترتيب طبقي ثابت متوارث، يعبر
عن سمات المرحلة الأقطاعية، سيكون فى أعلاه،
التجار والمشايخ، وأرباب السجاجيد، واصحاب اليد
على الأوقاف، ونظار المدارس والعلماء والقضاة، ثم
تتراص تحتهم الفئات الأخرى بقدر مدخولاتها من
أعمالها، وهذا النظام الاجتماعى لأهل البلاد يأتى
جميعه كقاعدة يتربع فوقها أمراء السلطان، وكبار
حاشيته وعلى قمة ذلك الهرم، يأتى السلطان وأولاده،
ذلك السلطان الذى يمسك برقاب العباد، دنيا ودين.

•••

أما فقراء البلد، معظمهم يعيش على الزراعة
والسخرة فى القرى والنجوع، يشتركون فى توفير
الغذاء، ويموتون بسوء التغذية وأمراض الجوع، سيكون
أقصى ما يتناهما الانسان الفقير فى هذا المجتمع

"الثابت"، هو العمل في قصور الامراء كخدم، لضمان وصولهم الى بقايا طعامهم الوفير.

والأمر بدأ في البداية، أن الممالك هم عبيد يشتريهم السادة لخدمتهم، ثم صاروا يدرّبونهم على حمل السلاح ليموتوا دونهم في الحروب والقتال، وكان أهل البلاد أسيادا وأحرارا، ثم انقلب الحال تدريجيا، فبات الخادم المستعبد، هو السيد المبجل، عندما فرض قانون القوة واستبد بالأمر، وهو ما حدث دائما منذ النصف الثاني من عهد الدولة العباسية، وقد أتى الأتراك لخدمتهم وتولية شئون الحرب والموت دون العرب والفرس الأسياد، فتشكّلت العصبية التركية العسكرية، كوزراء أقوياء، وقلبوا الوضع المعتاد إلى أن يكونوا هم السادة "والخلفاء" أمسوا ينفذون مشيئتهم بلا جدال، مما هزم العرب، وجعلهم يتقهقرون، بعدما كانوا هم الغزاة دائمي الحركة إلى الأمام.



وقد استقر الأمر بأن الذي يمسك بالسلاح أيضا كان نوعه، وفي أي زمن كان، سيصاب بداء العظمة والتعالي، وهو مرض إنساني، لم يخترع المصل المضاد له بعد.

"وكثير من الشواهد في عصرنا الحالي تجعل جنرات الحيوش رؤساءً للدول على أثر انقلاب، يفرض القرارات الرئاسية الملزمة والتي سيكون لها قوة القانون والسيادة".!



(٤)

الأماراة تأتي إلى بيبرس محفوفة بالخطر

□ القاعدة "في زمن دولة الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي أكثر من إقتناء المماليك"، أن أكثر الأعمال خطورة، تتمتع بأكبر المزايا، على أساس أن "المملوك" كان يربى للتضحية به في الحرب وأنه سيلاقي الموت، من أجل السلطان، واستمرار عرشه، وإبعاد المؤامرات عنه وعن أهل السلطان، في قناعة بأن من المسلم به، أن حياة المملوك ستكون قصيرة كالشهب، وعلى الجميع أن يتغاضوا عن المزايا التي توضع بين يديه كمكافأه لعمره القصير، بل ويسمح له عادة ببعض التجاوزات، والدلال، في وقت السلم القصير، كما تعلق الحملان لذبحها، والاستفادة من لحمها وشحمها وصوفها، والتضحية بها في أيام المواسم والاعياد، وعلى عتبات الأراضى المقدسة في أداء مناسك الحج، كفدية وتقربا لله، لذا نظر الجميع إلى "المملوك" على أنه "ابن موت" يموت من أجل الإسلام والمسلمين، أنه "الضحية" الذي سيخلصهم من الأذى، والمضحى به من أجل سلامتهم، فيكون على

الجميع، من الواجب تفرغ قلوبهم من أى كراهية نحوه، أو الحقد عليه، إذا لم يستطيعوا أن يخبوه..
"هكذا روج شيوخ من صنائع الأمراء المماليك بين العامة بأن يسلّموا لقاعدة أن أكثر الأعمال خطورة تتمتع مع الرضاء التام بأكثر المزايا، ويضاف على ذلك "إخوة الإسلام" التى يتخذها المملوك هدفا لإعلاء شأنه وقتال أعدائه".

وبتراكم مزايا المماليك، بات المملوك يتمتع بمظاهر الجاه والثروة، وفى نفس الوقت امتك القوة التى لم يسمح لأهل البلاد بممارستها، حتى أن أهل البلاد وهم فى ضيق وتقتير وبلادهم تمر بحالات الفاقة والضعف والجفاف والأوبئة سيكون عليهم القناعة وعدم الالتفات "المكروه" إلى مظاهر النعيم التى يتمتع فيها المماليك وأمرؤهم، وبالتالي السلطان وحاشيته.
ذلك المملوك الذى سيؤمر بالقتال، ضد أعداء بلاد المسلمين فيذهب طائعا، يحارب، بل قل يجاهد فى سبيل الله والوطن ليلقى حتفه وهو فى عنفوان شبابه.
"انه يموت من أجلنا فلا تقتير عليه أو إرهاب عندما يكون فى مرحلة الاستعداد لملاقاة الموت"

•••

لكن، عندما تطول فترات السلم، يحدث أن يتناسى المماليك دورهم الأساسى الذى من أجله يسمح لهم بمكانة السيادة ونعيمها المقيم، فيظنون أنهم من طينته مختلفة عن أهل البلاد، وما هم فيه من حياه رغدة، واحة وارفة الظلال فى محيط من الجذب، أن

ذلك حق من حقوقهم الإلهية، مزايا خلقوا لها، وخالقت من أجلهم، وإذا ما كان السلاطين ضعافاً، باتوا العوبة في أيدي المماليك يتفنن الأمراء المماليك في التهرب من مواجهة الأخطار، بأن تكون لهم كلمتهم في السياسة، وتعليقاتهم في المشاركة، والقيام للقتال أو التوسع، يكفيهم عمليات الكبت لأهل البلد، وما تكبده من مشاق لحفظ الأمن لأنفسهم وللسلطان وحاشيته!

•••

،، وقد تبرز مهارة بعضهم في أساليب الدعاية، وكيف يحيطون أفعالهم المظهيرية بكثير من الروايات والجلبية، وقد تمكنوا من التمرکز فوق رؤوس العباد يشفطون اللبناات ويأكلون الثمرات مبتعدين عن النزاعات ومواجهة الموات، لذلك فضل بعض أمراء المماليك تشكيل أحزاب لهم بين الشيوخ والعامة، واختاروا من بين الموهوبين أفضل الرواة، الذين يعملون من الحبة قبة، يؤلفون البطولات حول شجاعتهم، وجسارتهم، لتصل أخبارهم إلى العتبات السلطانية، وإلى عمق الحوارى المغلقة على سكانها، كما تنتشر الروايات عنهم فى أنحاء البلاد وعرضها، يلوکها الناس فى أماسيهم الفارغة، يصورونهم اذا ما نهبوا الأموال والغلال وتنازعوا على مباحج الدنيا، أنهم حماة الدين والغيارون على الشريعة، أنهم بناء المساجد الكبرى، والمدارس، والأسبلة!

•••

ويحدث أن يفعلها أمير، يجمع الأموال وينشىء مسجداً، لينسى الناس مجونه وظلمه، جبنه وفسقه، أو يفعلها أمير "توبة نصوحة" ليختم بها حياته الحافلة بالسينات تائباً ومتقرباً لله الغفور.

•••

.. إذا ما حاقت، الأخطار الحقيقية بالبلاد على أثر غزو خارجي وعدوان حقيقي، هنا يرغم المماليك على مواجهة ذلك الخطر الذي يهدد، أول ما يهدد، مزايهم وحياتهم المنعمة، ولعلمهم يسوفون ويتباطأون حتى تأخذ "المحنة" وقتها، وتتفك من تلقاء نفسها، دون التعرض لبذل الدماء ومجابهة لمغامرة قد تبدل كثيراً من الأحوال، وخشية أن يهب "الشعب" للتصدى للمعتدى وقد يفلح ويتملك زمام القوة التي تنازعهم!

•••

أما وقد قام الفرنجة بقيادة ملكهم "القدس لويس" بالنزول في دمياط، بحملة كبيرة ترفع شعار الصليب وتتمكن الحملة من موطأ قدم دون مقاومة، ثم تتوسع وتحتل مدينة دمياط، وينكرون بأهلها، يقتلون حاميتها، ويتجهزون لمواصلّة المضي ضد تيار فرج النيل، للوصول إلى القاهرة وقد شاع بأن الملك الصالح طريح الفراش، وأن ابنه "تورنشا" مغضوب عليه ومنفى إلى قلعة "كيفا". وأن الملك الشيخ ليس إلا أعبوة في يد زوجته "الجارية" الجميلة. وأن امرأه المماليك يتنازعون فيما بينهم، وفي نفس الوقت يشكلون حزباً ضد مشيئة السلطان الذي لم يعد له الأمر

والنهي، أمام قوتهم التي استمرت السلم الطويل،
فترهلت فرق الجيش، وساء أمر أجناد الحلقة.

ثمة من صور للملك لويس، أنه إذا ما ركب
النيل ووصل إلى القاهرة، ما على الفرنجة إلا إسقاط
العمائم من فوق رؤوس المماليك فيجدونهم شقر
وحمر وبيض، وانهم من نفس الفصيل الغازي، وإذا ما
طرحوا أمامهم الأموال والمناصب والعنق من
العبودية، يمكن استمالتهم كطبقة فرسان، تقع وسطا بين
النبلاء وملح الأرض من الزراع والصناع، بل يمكن
إعادتهم لإعتاق الدين المسيحي، مقابل اشراكهم في
المزايا!!

وأن شعب مصر الغفير يستغيث بالقدّيس
لويس، أن يعيد إليهم الصليب، كما كان قبل الفتح
الاسلامي، وأنه بسقوط القاهرة التي طاب قاطفها،
سيكون ذلك بمثابة النصر النهائي على يد القدّيس،
لوضع النقطة الأخيرة في الحملات الصليبية المتعاقبة
منذ نشبت الحروب بين الغرب والشرق، بل يمكن أن
يخلص مصر والشام من الأسرة الأيوبية المغتصبة
للعرش الفاطمي بكل سهولة!

وصوروا له أيضا، أن أمراء السلاطين، إذا ما
ضمنوا نفوذهم ورغدهم المقيم، فلن يتأثروا كثيرا
بتبديل سيد بأخر.

وصور المصورون للملك لويس الذي نزل
على شاطئ مصر واستباح مدينة اسلامية بدون مقاومة
تذكر، أن أمراء المماليك لجيش الملك الصالح سيقع

بينهم الشقاق اذا ما طلب منهم السلطان مجابهة الخطر
الفرنجى الجسيم، تلك الحرب الثقيلة على من اعتاد
الدعة، واستعراض قوته على طوائف عزل من السلاح
كالمصريين الذين ليس لهم فى الصدام..!

• • •

ما لم يكن فى حساب الملك لويس وملوك جيشه
أن يقبل الملك الصالح المريض، ذلك التحدى. وبدلاً
من أن يستجد بالملوك الأيوبيين فى الشام، ويدخل فى
حالة تأجيل وتسويق أخرى من الأقارب، بادر وجمع
ممالكيه وقرر نقل قصره وعرشه الى ميدان المعركة
فى قلب مزارع الدلتا، مستغفراً قواته الخاصة من
ممالكيه البحرية لوقف زحف الفرنجة من مكانهم الذى
احتلوه على الساحل فى دمياط، كما قرر بناء
استحكامات قوية فى "قارسكور" وأمر بتعجيل الرحيل،
واستدعاء مشايخ المذاهب الاربعه وجميع مشايخ
الطرق وأرباب السجاجيد، ليخطبوا فى الناس
يحثونهم على الجهاد، وأن تعتمد مصر على نفسها،
وتسارع بتثبيت الداء فى مكانه قبل أن ينتشر فى باقى
الجسد ويستعصى القضاء عليه، هذا القرار الخطير
اقتدى بما فعله المسلمون فى معركة القادسية، اذ تجمع
الجميع القاصى والدانى فى سرعة لم تمكن الروم من
تثبيت قواعدهم، وبناء استحكاماتهم وتجهيزها "والملك
الصالح فى مرضه" كشعلة من ضوء أوشك زيتها على
النفاد، فتوهجت بالرمق الأخير، قام باجراء تعديلات فى
مناصب الأمانة مثلت إضافات على الأمراء

الأساسيين، وأشار إلى "بيبرس" ذلك الفهد الصامت الذي يقود مماليك: الأمير اقطاي، بأن خلع عليه خلعاً "أمير" يقود ألف، حتى يخلوا منصب أمير يقود عشرة آلاف من الأركان الأربعة، يحل محله، وكلفه بما يكون تحت أمرته من مماليك اقطاي وأجناد الحلقة الذي يختار منهم فرسانه، بأن يقوم بحراسة "قصره" الذي سينشئه على عجل في معسكر "فارسكور"، وينقل إليه سريره وخزائنه وحرимه ومخازن أسلحته وأمواله..

•••

لقد حل الخطر وجاءت الحرب إلى الديار، وبدأ الحراك يحدث بين المماليك، ذلك الحراك الذي كان متباطئاً في أوقات السلم الطويلة، وقد ارتقى "بيبرس" من "تقيب دباش" يقود مائه "أو عدة مئات من مماليك استأذنه "قارس الدين اقطاي" إلى "أمير" ألف، أو عدة آلاف "أقل من عشرة آلاف"، طبقاً لما يتوفر له من "أجناد الحلقة" ومماليك خاصكيته، وصار من مزايا "الأمير بيبرس" أن يحضر مجلس السلطان، لكنه يجلس تحت كوع أميره الأعلى اقطاي، متأخراً عنه بمسافة شبر، ومهما يكن فقد جعلته الحرب أميراً له موقّده بين الكبار من أمثال عز الدين أيبك، وسيف الدين بلبان الرشيدى، وشمس الدين سنقر الرومى، وهى ميزة سبق فيها "قطز" الذى ظل فائداً لمماليك "عز الدين أيبك"، لا يحق له حضور مجلس السلطان، إلا على مسافة بعيدة، وينتظر اشارات أميره، فلا يخاطب السلطان مباشرة، وكان من مزايا بيبرس، أن

يخاطبة السلطان بصفته قائد حرس قصره فى أى وقت.

أما وقد لاحت لبيرس فرصته فى الترقى إلى الأمانة فقد قبض عليها بشدة، وود أن يثبت من خلالها أنه جدير بأن يرقى إلى "ركن" ويكون تحت أمرته "العشرة آلاف" ويزيد، وله الحق فى إقتناء الممالك الخاصين به!

هى لحظات إنشء تآتى له، تخوض فى الأخطار، لكنها كانت تمثل أمانى تمور فى نفسه، فتحمله على أجنحتها محلقة به فى الأحلام.

أحلام عظيمة يتمنى لو أنه دفع بها إلى أرض الواقع، هو الذى كان فى صباه يختلق "العائلة" العظيمة التى فقدها بالعبودية، كثيرا ما تخيل أنه ربيب عائلة كبيرها أمير، فكان زملاؤه يسخرون منه ومن ذكرياته العرجاء، ولعل أحدهم صدمه بقوله:

- بأى عين كنت ترى أحلامك يا بيرس، بالعين السليمة أم العين المنقوطة؟

يغضب بيرس ويثور ويحاول أن يتغلب بدنيا على من يسخرون منه، لكنه كان يشعر بأن فى حديثهم كثير من الحقيقة.

فهو لم يكن يملك إلا أن يحلم وينتظر الفرصة، تلك الفرصة التى لاحت عندما صار "تقيب دباش" لمائه، أمسك بها كعصفور سقط بعد أن عبر البحر وانهكه الطيران.

يمكنه الآن أن يرعى فرصته المتاحة بالعناية
واليقظة، وبالطاعة وحسابات يجريها، تأخذ في الاعتبار
عنجيه أميره أقطاي، : الاعتداد بما يملكه من قوة
وعناد، وأن يبذل ما يستطيع من جهته لإرضاء السلطان
الذى بات تحت بصره الدائم، وإن كان فى الاجتماع
الوحيد الذى حضره بيبرس قرشاهد السلطان منهكاً،
نصف جالس ونصف نائم، لا يقوى على الحديث،
وابراز خطابه الذى يحضهم فيه على بذل الجهد ويبين
لهم أن مصير السلطنة ومصيرهم جميعاً معلق على
سن حراهم وسيوفهم التى يجب أن لا تغمد، حتى
ينهزم الفرنجة ويجلون عن أرض الكنانة!

• • •

بيبرس، كانت طموحاته قد بدأت مشوارها، لا بد
وأن يجعل الجميع يلتفتون إلى بطولته، وليس إلى تلك
النقطة البيضاء التى تشوه سواد ننى العين، وتوقف
حالة الإبهار به كفارس، فتحول الإبهار إلى حالة
عطف وشفقة!!

ولعل ترقيه بيبرس إلى أمانة الألف، كانت
آخر أعمال الملك الصالح نجم الدين أيوب، وذلك
الخطاب الذى كان واهناً ولا تقوى انفاسه على
استكماله، يحض قواده وأمراء جيشه على الجهاد، وفيه
يلح بأن لا يستقر حال الفرنجة فى الأرض السوداء
بالدلتا، يقتطعونها ويعزلونها عن جسم البلاد، أو يقفزوا
منها ويصلوا إلى القاهرة، فينكسوا ماذن يذكر من
فوقها اسم الله أكبر "

وعلى اثر اللقاء الوحيد القصير الذي حضره الأمير
بيبرس". لم يعد بيبرس يشاهده. فقد لزم الملك الصالح
سريره، ولم يعد أحد يدخل إليه إلا زوجته الشابة "شجر
الدر"، والتي تعلمت من السلطان الشيخ كثيراً من
الحكمة والدهاء..

•••

ولعل السلطان مات فور وصوله إلى فارسكور
 واجتماعه بأمرائه جيشه نصف جالس، نصف نائم، فقد
 وهنت قواه، بعد أن تأجج تأجج الإنطفاء، فكان التوهج
 الأخير على غير العادة، في ذلك التوهج كان ينظر إلى
 بيبرس ويطلب منه إثبات بطولته الحقّة..!



(٥)

خطة بييرس المجنونة أمام الصليبيين

□ على قاعدة من مشاكل وأزمات يعانى منها النظام الإقطاعى فى أوربا ، فى وقت كان الصراع قائما على أشده بين السلطة الدينية والسلطة الزمنية . وقد بدأت قبضة [الكنيسة] هناك تتراخى عنوة، فتتقصد مكاسبها التى جنتها باسم الدين والطمأنينة.. باتت الكنيسة حليفة النبلاء، عندما كانوا حول مائدتهم المستديرة بدون رئيس، أو ملك قوى، يحصل على الناصية التى تتوجه إليها الأنظار.

...

لكن النظام الملكى ظهر لحاجة الناس إلى وحدات كبرى، ومصالح مشتركة. ذلك أدى لصدمات أثارها الطموحات الذاتية للنبلاء، مما أدى إلى نشوب الحروب التى أنهكت الجميع ، فأثروا أن يكون لهم هدف أعلى يتوحدون حوله. مجرى يصرفون فيه مشاكلهم الداخلية، يرحلون إليه الأخطار التى تحرق باقطاعياتهم . وقلاعهم الحجرية المعزولة. والكنيسة وافقت على ترحيل الأخطار خارج البلاد الأوروبية، ذلك سيعيد لها الدور القيادى القديم.. عندما كانت

الكنيسة للدين والدنيا، فأمكن صبغ أشياء كثيرة بالقداسة الزائفة.. ولما كان الجهل هو القاعدة. والكتابة بالاستنساخ اليدوي قليلة الإنتشار، لكنها أمست فعالة بوجود الورق، وقد تم طبع "الإنجيل" بألوف النسخ في وقت قصير، ثم طبعت الصحف التي بها الأخبار، والمقالات، والآراء لتنتشر الأفكار الإصلاحية في أحوال الدين والدنيا وتصل إلى عمق الغابات، تعبير السهول والفيافي.. تلك الصحف المتقلبة دفعت بالبدائل عن الوعاظ والقساوسة.. تناولت حياة الناس واحتياجاتهم، حركت أفكار أعداد كثيرة من الناس حول أسباب الحروب التي عطلت تنمية بلادهم. والصراع الأساسي بين الكيانات التي تنخر في نظام الدولة وتفسد عليهم مصالحهم، وقد حاولت أوروبا أن تصل إلى ثروات الشرق وسحره، وقد تم الاحتكاك بالشرق من عدة منافذ أهمها صقلية. وبلاد الوندال "الأندلس" وقيلام حضارة عربية إسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، رافق ذلك.. الحروب الصليبية التي انستزعت (بيت المقدس) من الدولة الفاطمية في حالة ضعفها بتنازع الوزراء شاور وضرغام.. وأحدهما استعان بالصليبيين والآخر استعان بالدولة الحميدية، **الناهضة** (عماد الدين بن زنكي) تلك الدولة التي كانت املكها في بقعة بالشمال الشرقي (الموصل) على الحدود بين العراق وسوريا.. هذه الدولة اعتمدت على شعب الأكراد المقاتل.. ساكن الجبال والهضاب العالية، أعراق ممتدة بأرض الفرس والترك.. فكان أسد الدين شيركوة

التكريتي قائدا من قواد هذه الدولة الحميدية التي جشت
له جيشا ضخما ليحمي "القاهرة" من السقوط فى يد
الصلبيين... يأتى صلاح الدين مع (عمه) القائد
ويستقر بالقاهرة.. وإذا ما توفى أسد الدين يتولى صلاح
الدين أمر الجيش الذى صار يحارب باسم الدولة
الفاطمية والدولة الحميدية فى مصر..

•••

وأمكن لصلاح الدين وقد خاض سلسلة من
المعارك أن يتوج أعماله الجهادية العظيمة بإزالة
الدولة الشيعية الفاطمية، وإعادة مصر للخليفة العباسي.
كما كانت، وأن يحرر القدس وينزعها من يد
الفرنجة.. لكن خلفاؤه من بعده تنازعوا.. وعادت أوربا
تتطلع من جديد إلى وضع النقطة الأخيرة فى الحرب
بين الصليبيين والمسلمين لصالحها. أوربا- فى
معظمها- تحارب متطلعة إلى الاستلاب وغزو
الشرق.. وربما لم يكن الأمر واضحا أمام الملك
الصالح بهذه الكيفية.. لكنه أثار أن يدعو المشايخ
وأرباب الساجيد وعلماء الدين ويحثهم على اللقاء
الدائم بكتائب جيشه وخاصته المماليك كى يعمرُوا
قلوب المحاربين بالإيمان، يحضونهم على بذل الروح
والجهاد فى سبيل الله.. كما يبينون للنصارى بداخل
مصر بأن الصليب الذى يزين ملابس الغزاة.. لا يعبر
عن سماحة الدين المسيحى، وأن من عبر البحر ونكل
بأهل دمياط، وقطع الطرق، ونهب الدواب والغلال..
طامع فاجر، يتوارى فى شعار المسيحية المقدس!

وفى ذلك طلب الملك الصالح من العلماء أن يردوا على ما يروجه المهرجفون من حالة الضعف والهوان التى يريدون تصوير المسلمين عليها.. وحالة القوة والمنعة التى جاءوا بها لتخليص البلاد من سيطرة آل أيوب.. وأن يظهروا للناس الصالح من الطالح، ويبينوا لهم أن ما يحدث من غزو يهدد الجميع ويتطلب إرجاء كافة الخلافات الثانوية، وعدم الانسياق لوعود الغاصب الذى فاجأ بلادنا فى ليل. هؤلاء الذين يستكثرون علينا أطايب بلادنا. وكيف يجب أن نعمل على ردهم مخذولين. وأن يتكاتف الناس فى الجهاد الأكبر..!

• • •

•• وقد بذل الدعاة جهدا بين الناس فى الكفور والنجوع، فامتلات بهم المدن •• وفيها تشكلت الكتائب من الأهالى، تلك الكتائب التى وظفت فى بناء معسكر فارسكور وقصر السلطان الذى كان نواة "لمدينة المنصورة".

كما تم بناء المحلات التى يتركز فيها الصناعات والمعاونين.

وكان من أهل مصر قبلى وبحرى أناسا كثر تجمعوا فى مروحة الدلتا يقودهم مشايخهم وأرباب الطرق.. وفى ذلك ساهم أوفاء منهم فى بناء المدينة الجديدة، التى لا بد وأن تعوق تقدم الفرنجة، وتجبرهم على القتال العنيف،كى يتم الضغط عليهم وإرجاعهم

إلى دمياط.. تاركين وراءهم الكثير من القتلى
والعتاد.. والأسلحة، كغنيمة توزع على الأهالي ليشاركوا
بها في المعارك التالية. وقد تضخمت المنصورة، وأتم
فيها إنشاء القصر السلطاني في فارسكور، معظمة
مخازن للسلاح، والعتاد، ويحتوى على خزائن الملك
الصالح وأمواله التي خصصها لنفقات الحرب.. والتي
جمعت من أهل البلاد في مساهمتهم للجهاد.. "إذ لم يكن
بالنفس فبالمال".

•••

على أعتاب هذا القصر السلطاني الذي لم يكن
منيعا كقلعة تعوق المهاجمون، سوف يحارب الأمير
"بيبرس" بمماليكه القلائل.. الذي لم يصل عددهم إلى
الألف..

ففي عجالة الرحيل والتحصير وكثرة المهام
الملقاة على عاتق الفرق. وعدم تفريط الأمراء فيما
تحت أيديهم خشية الهزيمة ووقوع المسؤولية على
كاهلهم.

وبيبرس ما كاد يقبض على فرصته في الأمانة
حتى وجد نفسه وجها لوجه مع الأخطار الجسيمة..
يخوض معركة يائسة.. فقد انكسر جناح من أجنحة
المعركة أمام ضغط جيش الفرنجة بقيادة الملك (رايدا
فرانس) وهو بطل من أبطال الملك لويس الصناديد،
يتسم بالجسارة والجرأة والوحشية في القتال. وقد تمكن
بفرسانه الأقوياء وأتقاله من الوصول إلى العتبة
السلطانية للاستيلاء عليها، بما تحويه من كنوز

ورموز.. ولعلمهم أبلغوه بأن بداخل القصر توجد الأسلحة الإضافية التي تنتظر تكوين الفرق الجديدة من السيوف والحراب والدروع.. كما أن بداخل القصر حريم الملك وجواريه وكنوزه من ذهب ومجوهرات الشرق التي لها بريقها الأخاذ.

ولعلها خطة شيطانية وضعت تفاصيلها على ضوء وشايات الطامعين، أرادوا صيد فرصة لهم تجيء محملة بالأموال والنفوذ بينوا للمهاجمين أن الطريق إلى القلعة بالقاهرة يبدأ من قصر السلطان بفارسكور. وليس بالصدام مع فرق السلطان من المماليك وأجناد الحلقة أو حرسه، ومماليك أمراؤه، إذ أنه يقتل السلطان ومنع وصول الوريث. سيعتق جميع المماليك. ويتم مساومتهم على أن يحفظوا لهم وظائفهم أو مزاياهم.. مقابل نقل السيادة الإسمية التي لن تكون عبودية بأية حال. بالإضافة إلى أن مقتل السلطان أو أسرته مع أسرته وأمواله وأسلحته سيوقف حمى التنافس بين أمراء المماليك في إثبات جهادهم وشجاعتهم مقابل العطايا المنتظرة..

وكانت حمية المماليك تزداد من معركة إلى أخرى. وبدا أن الحصول على قصر السلطان بفارسكور بأي ثمن.. من أهم أهداف الملك لويس وقواده، وقد اشتد الصدام مع كافة الأمراء المماليك الكبار لكي ينشغلوا.. عما يتم تدبيره في الخفاء لتنفيذ الهدف الأجدر بالرعاية، والذي كلف به الملك الصليبي المحبوب من قلب الملك لويس الداوية "رايدا فرانس"

يرافقه عدد كبير من شجعان جيشه.. وجميعهم فرسلان
لا يشق لهم غبار لتحقيق الغاية المحددة.

•••

وأثناء اشتداد المعارك على كافة الجبهات أمكن
للملك الصليبي (رايدا فرانس) من أن يمضي قدماً إلى
معسكر فارسكور ويقتحمه من خلف القصر السلطاني،
هاجمه بفرقة فرسان. استخدم أدوات الصعود على
أسواره التي لم تكن في مناعة قلعة متوسطة. وأمكن له
أن يقتل الأعداء التي تصدت له أو يجبرهم على
التقهقر، وبعضهم من الخدم، أذهلتهم المفاجأة فولوا
الفرار وأغلقوا الأبواب. وصار بيبرس يقود الأعداء
التي تحت أمرته، ويضع الخطط للدفاع عن هذه البوابة
من الداخل.. قام بإحصاء المهاجمين فهالة أنهم جميعاً
من الفرسان وعددهم ثلاثة أضعاف ما لديه.. خشى
أن يستخدموا السلالم المتحركة ويمتلكوا سطح القصر
من أماكن مختلفة، وقد أرسل من يتسلل ويهرب من
أحد الخنادق التي لم تكن قد جهزت تماماً كأداة أمان
يستخدمها أهل القصر في الهروب من الحصار. كانت
المفاجأة أن يعود إليه فارسه ليخبره أنهم ينتظرون
هناك عند نهاية النفق، يقطعون الطريق على كل من
بالداخل، لقد سدوا كافة السبل.. مما يعني أن الوشاة
كانوا على علم بأسرار كثيرة.. ولعل حالة اليأس التي
اكتفت بيبرس لبعض الوقت أهمته بالخطة التي لسن
تخطر على بال فرسان الصليبيين.. أن يقسوم بعكس

الطبيعى الذى تمليه الظروف. يحدد هدف وحيد، ويلقى عليه بكل ما بيده لتحقيقه، يلقي عليه بكل ثقله.

أنها لحظات قاسية مرت على بيبرس ولم يكن باستطاعته تغليب ما يفكر فى القيام به تحت ضغط حصار من فرسان الملك رايدا فرانس وحماستهم الدينية وقسوتهم..

الخطة المجنونة التى برقت فى ذهنه ولم تبرحه، أن يفتح أحد الأبواب التى تكون الأقرب إلى موقع وجود الملك رايدا فرانس نفسه، ومن يحيطه من نوابه والمقربين إليه، ويهاجمه بكل ما لديه، ينقض على الملك رايدا فرانس، الذى هو بمثابة القلب للمهاجمين (أضرب القلب وانزعه من بين قواته فيموت الجسم وتتهدل أطرافه) هكذا صرخ بيبرس فى فرسانه.

بيبرس رأى بعين اليأس. الطامة الكبرى إذا سقط قصر السلطان بما فيه غنيمة لهم.. أنه يحاربهم بخطتهم. هم يوجهون للقلب ضربه قاسية. فليضرب قلب قوتهم المهاجمة.. ولم يكن أمام بيبرس إلا أن يشجع قواته حوله، وهى قليلة العدد بالنسبة لقواتهم. ولكنها كثيرة إذا وجهت على هدف محدد، وبينما تفرقت قوات الصليبيين حول القصر لحصاره، والبحث عن منفذ ليدخلوا منه.. بعضهم يجهز "صدامة" مستطيلة معلقة فى حبال تتأرجح لتحطيم الأبواب.

كان هناك باب آخر جانبى يفتح.. وهجمه تمتزج بصرخات الحرب، تشق طريقها سريعا إلى

موقع القيادة التي بدا أنها قد اطمأنت لعدم وجود المقاومة الكبيرة حول القصر فتراخت.. الإعصار البييرسى حصد عدة رؤوس من الفرسان.. حتى كان بييرس وجها لوجه أمام الملك رايدا فرانس ورفاقه. دارت بهم الخيول على أعقابها. لكنها لم تغادر مكانها المحاصر. وبدا أن هذه المعركة الجانبية تتسم بسمات المعركة العامة. لكن لصالح بييرس.. فإذا كان الصليبيين أكثر عددا وأقرب إلى الاستيلاء على القصر وتحقيق هدفهم. فإن في هذه البقعة الجانبية، كان الأمر يميل لصالح بييرس بنفس النسبة، وبجراحة شديدة، تقدم بييرس وأطاح برأس الملك رايدا فرانس في عمل جنوني. يمكن أن يشعل حماسهم أكثر في ثأر لا يهدأ. وأحد فرسانه رفع رأس الملك رايدا على سن حريته.. والذهول أخذ بمجامع رفاق الملك المقتول وهم كبار القادة الصليبيين فغشيتهم الغاشية. وجدوا أنفسهم أسرى يسوقهم عسكر بييرس ويدخلون بهم القصر مرة أخرى. ومن فوق سطوح القصر.. صرخ المنادى في الفرسان بأن يتأملوا رأس "ملكهم". وليكفوا عن اقتحام القصر وإلا تم قتل باقى أشرفهم.. فتجمد المهاجمون مكانهم. وهالهم أن رأس بطلمح المحبوب مرفوعة على الحربة. تنظر دما. وبدا معهم في أخذ ورد.. عارضا عليهم إطلاق سراح كبارهم وعددهم يزيد عن العشرة رجال.. وبالصدفة علم بييرس أنهم من النبلاء الذين تزدان بهم حلقة الملك.. وقد قصد بييرس إطالة الأخذ والرد والمماطلة حتى حضرت إلية النجدة من فرسان

أميره إقطاي.. وأنصرف المهاجمون فور ظهور
فرسان المماليك على مرمى البصر.. لكي يقوم فرسان
الأمير إقطاي بمتابعة مطاردتهم.. وقتل من يتلصق منهم.
حتى لاذوا بمعسكرهم في دمياط..
وإذا ما نظر بيبرس إلى ما في يديه.. وجد أنها
بطولة عظمى.. وإذا ما تأمل إقطاي ما قام به بيبرس..
احتضنه، وقبل رأسه على جراته وخطته المجنونة،
وكيف أنه أفسد خطتهم وأنقذ القلب. فأحبط نصرهم
المتوقع!



(٦) "قاتل الملوك"

□ منذ أن أعلن الأمراء أن المرض الشديد يمنع الملك الصالح من حضور مجلس الحرب الذي ينعقد دوريا لمتابعة الجهود التي تبذل في المعارك الفرعية.. والتجهيزات للمعركة الفاصلة تتم بناء على ما يتجمع لدى الأمراء الكبار الأربعة- إقطاي وأبيك وبلبان وسنقر- وقد صار بيبرس مع قطز يحضران هذه الاجتماعات، ولكن اذا تكلم "أمير" كل منهما فلا يزيدا.. في الاجتماع الذي انعقد عقب معركة القصر.. قامت "شجر الدر" والتي كانت لسان حال السلطان، وأبلغت الأمراء أنها أحاطت السلطان ببطولة الأمير بيبرس وقتله للملك الصليبي رايدا فرانس، وأسر له عشرة من فرسانهم الكبار، وكيف أنه بذلك التصرف الجريء، أنقذ القصر السطاني من السقوط في يد الصليبيين. وأن الملك الصالح تنفس الصعداء وهو يستمع لما حدث، وأنه سوف يقدر جهود بيبرس وعدم تهييبه الموقف المتأزم في هذه المعركة، التي بدت فرعية، لكن إذا ما خسرناها لغيرت مسار الحرب تماما- فهي إحدى المعارك التي كانت لصالح الغزاة- فباتت في صالحنا بفضل شجاعة بيبرس وبسالة رجاله، فقد كانت بداية

الإنهيار في جيش الملك لويس.. واقتراب ساعة النصر
النهائي الكبير لمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

•••

.. في ذلك الأجتماع الذي نظر فيه الأمراء باجلال
لما أتاه ببيرس، ابلغوه أنهم يحفظون له حقه في
(الإمارة) عندما تضع الحرب أوزارها ويرحل الغزاة.
وتحدثت "شجر الدر" والتي بدت بأنها تدير
الاجتماعات بكفاءة، وتقابل برضاء تام من الأمراء
الكبار، بأن الملك الصالح تحدث معها حول عمق
الخلافات التي تفصل بينه وبين أخوته وأعمامه
وأولادهم.. وقد أختط كل أمير أو ملك لنفسه جزء من
الشام.. وتنازعوا.. فضعفوا. وطلب منها أن تبلغ
الأمراء بأن الملك الصالح لم يعد يأمل "نجدة" مؤثرة
منهم، ترجف قلوب الفرنجه.. والأمراء أكدوا بأن
الفرنجة يعلمون الكثير حول هذه الخلافات..

•••

.. بدا أن مرض السلطان الشديد حال دون ظهور
السلطان بين جنوده وفرقه.. واقتراح 'إبيك' بأن يعلن
الجهاد في الأقطار والأصقاع الإسلامية باسم الملك
الصالح.. لعل الخطر الجسيم يقرب بين الإخوة
والأعمام.. ورأى بأن يرسل "قطز" ليحث الملوك
والأمراء لإرسال جيوشهم للوقوف بجانبنا في دمياط
لكن "إقطاي" اعترض.. مدعياً بأنه لا يرغب في أن
يأتي أحد من أخوة الملك الصالح أو أعمامه ليره
راقداً وضعيفاً.. وبدا إقطاي وهو يتكلم ويداعب لحيته

الحمراء بذلك الاسلوب الممطوط بأنه يقصد شينا
أخر غير الذى يقوله. ولا بد وأن بيبرس كان يلتصق
بإقطاى ويكاد يستشف ما وراء طريقته فى الكلام.
أدرك تلك الرسائل التى لا يفصح عنها.. وقد صار فى
مقدور بيبرس أن يحل شفرتها.

أيقن بيبرس بأن إقطاى يرد على أيبك وهو
ينظر إلى "شجر الدر" بتلك النظرات المعبرة بأن ليس
هذا وقته ليعلم أخوة الملك الصالح وأعمامه الطامعين
فى عرش مصر.. بأن الملك الصالح قد "مات" وإننا
ندعى بأنه يقود المعركة من على سرير المرض، حتى
بتنا نصدق ما ادعيناه، بنظراته الثاقبة يقول.. "لا
تتعجلوا يا حضرات الأمراء على الاتيان بنهايتكم..
المعركة لم تزل فى الميدان لم تحسم بعد.. ونحن أمراء
هذا البلد بأسم السلطان نجم الدين.. ما دام لا أحد يعلم
بأنه مات، أما اذا جاء الورثة، فقد نتحول جميعا إلى
"ممالك قرانيص".. وتسجل اسماءنا فى "أجناد الحلقة".
وتنتزع من بين أيادينا المزايا التى ننعم فى نعيمها.."

ورأى بيبرس الأمراء ينتبهون لما غفلوا عنه
فى اضطرابات العيون والحركات العصبية التى
صدرت تباعا.. والانتقال المفاجيء للحديث فى
مواضيع بعيدة عن المجال المنعقد.. كما شاهد بيبرس
على صفحة وجه "شجر الدر" المعبر.. حقيقة كل ما
فكر فيه.. فأصيب بالأسى، تغلغل بداخله شعور
بالحزن، ليس على ما آلت إليه أحوال السلطنة.. لكن
على الفرصة التى لاحت واهتبلها وحقق فيها بطولته

المرجوة.. وإذا بالرجل الوحيد الذى يمكن أن يكافئه بالعطايا والوظائف ويرفعه من حال إلى حال، يخالفه فى بؤسه ويرحل!

أى سوء حظ هذا الذى يلزمك ياببيرس ؟
لكن لماذا تسبق الأحداث وتبتئس.. ثمّة أمل واهن بعيد أن يكون الملك الصالح مريضاً بالفعل وقد يتمثل للشفاء، ألم تذكر "شجر الدر" بأنه تنفس الصعداء.. لعله ابتهج فانهزم المرض.. وسيفاجىء الأمراء بالدخول على مجلسهم.. يجلس على سريره نصف راقد.. نصف قائم.. ويمنحه الحلة السمور.. ويمكنه من وظائفه واقطاعياته.. بنفس الصوت الواهن المتقطع.. والذى يتقوى به جميع الأمراء الكبار ويطمئنون على ما بين أيديهم طالما هو يتنفس !!
والأمر أمسى مربكاً حقاً لببيرس.. بل وللأمراء الكبار وتابعيهم، والمعركة يشتد وطيسها حول دمياط.. وميدانها المسافة بين البحر.. وقصر السلطان فى معسكر الملك الصالح فى فارسكور.

•••

•• بينما أزمة الأمراء الكبار الشخصية تشتد، لم يكن أمامهم إلا أن يحاربوا المعركة بجسارة.. وكأنها الباب الوحيد المتاح لهم للإفلات من الموت الذى ينتظرهم.

وإذا ما كان "طارق بن زياد" قد أشعل النار فى السفن عندما نزل جنوده على صخور شبه جزيرة أيبيريا.. وابلغ جنوده بأن البحر وراءهم والعدو

أمامهم.. فإن الموقف برمته يعيشه المماليك فى معركةهم ضد الصليبيين.. الموت لمماليك قرانيص ليس لهم شأن كبير.. يعيشون فى معسكرات كالسوائم تغلف لتذبح "خلفهم". أو الموت فى الصدام المروع مع جحافل الصليبيين ووحشيتهم "أمامهم". ولأمناس من بذل أقصى الطاقة لإيجاد مخرج لأزمتهم الشخصية، إلا بالانتصار على الملك لويس ودحر جيشه.. ثم يحدث بعد ذلك ما يحدث، ففى كل الأحوال.. سيكون وضعهم كأبطال دافعوا عن أرض الإسلام وعن الإسلام ذاته.. أفضل كثيرا لو أنهم انهزموا.. أو تسلمهم الورثة وسلبوهم كل ما حققوه من تقدم وجهود فى تلك المعركة المنتشعبة.

المفاجأة التى أنهلت الجميع أن تتوالى انكسارات قوات لويس وهزائمهم فى العديد من المعارك الفرعية.. وقيل أن مقتل الملك رايدا فرنس، ورفع رأسه على سن رمح، فت فى عضد الملك لويس وأحزنه كثيرا.. وعندما توالى أسر الأمراء الفرنسيين كان أول شىء يبدونه هو التوسل بأن لا تقطع رؤوسهم وانهم على أتم استعداد لدفع فدية كبيرة من الذهب.

وعندما صار "النصر النهائى" يلوح لأمرء المماليك.. فوجىء ببيرس بأمر سلطانى مبصوم باختام الملك الصالح، يقرأ فى الأجماع الدورى للأمراء- يعلن فيه- ترقية ببيرس إلى إمارة العشرة آلاف.. ومنحه وظيفة أمير الحرس المنوط به حراسة السلطان

وحريمه وعائلته في وقت السلم والحرب - مقرون ذلك - بإقطاعية في صعيد مصر .

وعلى ضوء ما تقدم يصير الأمير بيبرس معتوقاً. وله ما للأمرء الكبار من حق المشاركة في المجالس السلطانية، وقت السلم والحرب، كمستشار للسلطان أو "من ينوب عنه" - كما سيكون لسه الحق أيضاً بأن يفتى العبيد والمماليك ليشارك بهم في المهام السلطانية.

تلقى بيبرس التهانى من الأمرء الكبار وقسواد ممالئكم، لكن بيبرس وقد أدار في رأسه ما جاء في القرار، نظر بين يديه فأم يجد إلا وعوداً.. وأنه لم يزل "قائد الألف".

"وأميره" الذي في مقام "أستاذة" هو "فارس الدين إقطاي" .. والمعركة لاتزال محتدمة محملة بالمفاجآت. وأن كل ما جاء في القرار وإن بدا نهائياً، إلا أنه كان - في الواقع - يرتبط بانتهاء الحرب لصالح الملك الصالح.. الذي ضمن قراره أن يطيع السلطان أو "من ينوب عنه" ..

لعلها المرة الأولى التي يسمع فيها قراراً سلطانياً بأن يخضع الأمير الكبير "قائد المشرة الألف" .. قائد جيش كبير من المماليك، ويطيع من "ينوب" عن السلطان!

وسأل بيبرس نفسه؛ من الذي ينوب عن السلطان في هذه المرحلة؟

الأمراء الكبار تعادلت كفتهم بصورة لا تجعل لأحدهم الكفة الراجحة.. وما الفروق الإفى ساوك الأمير وشخصيته إن كان متساطا كإقطاى.. أو مسالما كأبيك. أو منبسطا كلبان.. أو معقدا وخبثا كستنقر.. لا بد وأن طرفا ما.. رأى فى صدور هذا القرار الآن مصلحة ما، هل هو الأمير إقطاى يريد أن يتقوى به؟ أم أنها زوجة السلطان (أشجر الدر) وقد بات الأمراء الكبار يخاطبونها بلقب (سلطانة) ولم يعد أحد يناديها (خوند جانم)؟!

والأمير إقطاى بكل ما هو معروف عنه من الكتمان والشعور بأنه الأقوى، هو الذى كان يتصرف بين الأمراء على أنه كبيرهم، صار يلاطف بيبرس ويهتم به.. فلم يغتر بيبرس وينسى أنه أميره واستأذنه واستمر ينقل إليه احسانا بأنه - تائلا مما ليكه - الراسدى يجب أن يحترم إمارته عليه واستأذيته له.

ولما قال الإمبر إقطاى لبيبرس:

أنت خامس الأمراء الكبار يا بيبرس.

أجاب بيبرس بتواضع:

- العين لا تلو على الحاجب يا استأذنى.. وسأظل دائما لك يدك اليمنى التى تحركها بإرادتك وكيفما شئت!

وقد سر إقطاى بما يسمعه من بيبرس، فقد عجل وصحبه إلى مكان ناء يكونا فيه وهدهما، وأفضى إليه "بأسرار" لها أهميتها، بقدر ما رفعت بيبرس عاليا.. نزلت به إلى أسفل السافلين.

- اسمع يا بيبرس..نحن فى ورطة كبيرة. مما يجعلنى أتمنى لو أن حربنا ضد الملك لويس استمرت مائه عام!

أنتبه بيبرس جيداً، يريد أن يستوعب ذلك اللغز العجيب واستطرد إقطاى:

- لو لم ترفع لك الإمارة وأنت تستحقها ما تحدثت معك فى هذا الشأن.. كما إننى اثق بك وكأنى اتحدث لنفسى!

شكره بيبرس على هذه الثقة الغالية وأعاد على مسامعه شيئاً مما يتلج صدر إقطاى، ويحب أن يسمعه منه، فقال إقطاى:

- الملك الصالح.. توفاه الله منذ فترة.. واضطرننا أن ندفنه سرا، ونحن ندفن قتلتانا.. فأننا لايمكن أن نحفظ بحثه طويلاً.. والحجرة التى ندخل إليه فيها ونخرج منها وبيدنا القرات المصومة بأختامه.. تقوم السلطنة "شجر الدر" بإصدارها...

وعندما رأى إقطاى أن بيبرس قد بدأ ينزعج طمأنه قائلاً:

-الأمرء الكبار وافقوا على القرار بترقيتك ومنحك وظيفه وإقطاعية، ورفعك إلى مصافنا.. فهم معى، ومع "شجر الدر" قررنا ذلك فى اجتماعنا المغلق علينا. وحتى صديقك قطز.. لا يعرف، إلا أن السلطان مريض ولا يقوى على حضور الاجتماعات..

حاول بيبرس أن يتساعل.. يلقي بما في ذهنه من أسئلة.. إجبرته على أن يقف ويدور حول نفسه.. كان إقطاي الذي لايجيد الاسهاب يقول:

- المشكلة أن السلطانة شجر الدر قررت ابلاغ "تورنشاه" ابن الملك الصالح، بصفته الملك القادم.. رأت أن ترسل إليه ثلاثة رسل يحيطونه بما نحن فيه من "أسرار" على أن يأتي في مماليكه، وخدمه القلائل، دون أن يشعر به أحد من أعمامه، وينضم إلينا ويشاركنا الحرب. وأن ينقل له الرسل ما أتخذه والده من قرارات.. أهمها أن لايتبدل الأمراء الكبار الذين شاركوا في المعركة وكتب لهم الله النصر ...

نعم.. ضمن القرارات.. القرار بترقيتك ووظيفتك واقطاعيتك يا بيبرس. وما على تورنشاه إلا أن يعترف بنا ونحن نعتزف به. يبادر ويظهر بيننا، يتقدمنا في الحرب، ونحن جميعاً معه على الخطوة والمره.....

بيبرس في مكانه لا يستطيع أن يستوعب ما دفع به إقطاي دفعة واحدة..

قال إقطاي ما قاله ثم جلس منكس الرأس يتفكر ولم يعتد بيبرس أن يرى على محياها ذلك الأسى، فجلس أمامه في هدوء وانتظر.. حتى قال إقطاي:

- الوريث تورنشاه.. استمع إلى رسلنا من المشايخ وحصل على كل ما أخفيناه. وبادر وأعلن نفسه ملكاً على مصر باسم (الملك المعظم تورنشاه). وعكس ما كنا ننصحه. إندفع يطلب المدد والعسكر من أعمامه

الملوك و الأمراء على مقاطعات الشام. وقد نصب عددا من كبار مماليكه كأمرء قبل أن يأتى إلينا ويشاركنا القتال. مما يعنى أنه ينقلب علينا وعلى شروطنا. بالطبع ستضيع ميزتك قبل أن تستمع بها يا بيبرس. كما ترى يا بيبرس نحن نبلى بلاءا حسنا فى الحرب ضد لويس، وبدأنا نعلو عليه ونرغمه على التقهقر. نحاصر قواته و ننتظر منه التسليم بين لحظة وأخرى لكن اعلان تورنشاہ بأنه صار الملك المعظم خليفه لوالده المريض.. قد أدى إلى أنتشار سر خبر وفاة الملك الصالح.. و إذا بالروح تدب فى الصليبين يحاولون كسرنا باشاعة أن قواد وأمرء المعارك ما هم إلا "قرانيص الملك المعظم".. وأن أمرء الملك المعظم أضعف من أن يجبروهم على ركوب البحر... قاطع بيبرس الأمير إقطاى سائلا:

- ما الذى تريده منى تحديدا فى هذه الحالة يا سيدى؟

قال إقطاى بدون لف أو دوران:

- وقع اختيار السلطانة "شجر الدر" عليك.. لتخلصنا من تورنشاہ كما خلصتنا من ريدا فرانس! يا قاتل الملوك!

(٧)

الحرب تقلقل الثوابت..

□ لم يكن بيبرس يملك - وقد صار معلقا في مهب الريح - إلا أن يبدي طاعته لأميرة القوى "فارس الدين إقطاي" .. ولعله يعبر إلى بقعه الضوء التي تخص شجر الدرء. بصفتها السلطانة التي تقبض على أعنة الأمور.

كما أن المعارك الدائرة في ميادين متشعبة بقدر تشعب الدلتا، بين جيش الملك الصالح، وجيش الملك لويس. كانت تشغل المساحة بين دمياط ومعسكر الأيوبيين في "فارسكور". وتثير كثيرا من الغبار والدخان والصرخات المقرونة بالتدمير والقتل بأنواعه المختلفة.. حتى بانقضاض المجاهدين على من يركبون النيل والغرق بهم في النيل!

أما وفرصة بيبرس في الترقى والإمارة وقد لاحت له على عتبات قصر السلطان في معركة خاضها بقسوة اليأس من النجاة. قطع فيها رأس ملك فرنسي، كان يمكن أن يبادلها بثروة.. والفرصة قد ترنحت، لفظت أنفاسها على سرير الملك الصالح.. ذهبت فرصته أدراج الرياح مع آخر أنفاس الملك،

وكان الموت صنع له حجرى الرحى.. يهرسه من فوقه ومن تحته.. بالموت لرايدا فرنس كسب فرصته فى الترقى.. وبالموت للملك الصالح خسر فرصته فى الترقى..

الموت للعين لا ينتظر قليلا حتى يقبض على وذلانفه واطاعيته، يقتنى الممالك الذى يتقوى بهم، ويعتق كأمير، ويصير بالفعل خامس الأمراء الكبار فى عرش مصر..

ها هو.. يهبط فى واقع الحال إلى الدرجة الثانية كقرنص "مملوك موروث من سلطان سابق، عليه أن يخضع لأوامر ممالك السلطان الجديد!"



كان بيبرس يئن تحت وقع كثير من الكوابيس، بعد أن لقبه (اقطاي) بقاطع رؤوس الملوك- فى إشارة إلى "رأس الملك الفرنسى رايدا" وتحريض له بأن يهوى نفسه لقطع رأس الملك المعظم "تورنشااه" ابن الملك الصالح. وقد بين له الخطر الجسيم الذى يمثله عليهم. فالملك المعظم.. إذا أمسك بزمام البيت الأيوبى فى مصر.. سيميل بوجدانه إلى ممالكه، ثم ممالك الشام.. الذين سيحضرون بايعاز من أعمامه الكبار والصغار لمعاونته.. والأمور لم تعد تتوارى، أنهم هناك يعلمون بأن الملك الشيخ كان لهم بمثابة الأب، وكان لشجر الدر بمثابة العاشق المتيم. وفى ظن [الورثة] أن الوقت قد حان لتخليص عرش مصر من "الممالك" الذين أحاطوا معاركهم حول دمياط بكثير من

دعاوى البطولة المزيفة، وهم الذين اذا سقط بين أيديهم أسرى من الصليبيين بادلوهم بالذهب أولا بأول. فى إشارة إلى سقوط الملك لويس أسيرا، وحبسه فى دار ابن لقمان بالمنصورة، والتفاوض على إطلاق سراحه مقابل فدية كبيرة من الذهب، والاتفاق على رحيل حملته مع مهماتها الحربية على سفنه، دون العمل على إلحاق الهزيمة كاملة به وقتله.

وقد سارع الملك المعظم تورنشاخ فى التسهيل بالحضور إلى إفسكور ليتولى أمر الفدية بنفسه.. ويحاسب الأمراء المماليك على الذهب الذى حصلوا عليه مقابل فديات القادرين والنبلاء فى جيش الملك الفرنسى، والذى كثرت عثراته وهزائمه أمام جحافل المقاومة التى شكلها الأهالى. والهجمات القوية التى كان يشنها فرسان المماليك ويأتون فيها بالغنائم والأسرى. يبادلون كبارهم بالمال.. ليعودوا ويأسرون غيرهم!

والحالة الكابوسية التى اكتتفت بيبرس كان مصدرها الفرق الهائل بين الملك الفرنسى المقتول الذى بقطع رأسه أوقع الرعب فى فرسان الصليبيين وأمكن أن يضىفى الحماية على القصر السلطانى، وبه أنقذ رأسه وأنقذ القصر - والملك المعظم ابن سيدهم.. والذى يمثل قتله سابقة خطيرة، وذنبا عظيما يرتكبه مملوك فى حق سيده.. ومن هذا السيد؟ انه سليل البيت الأيوبرى العظيم.. والذى لايزال المدافع عن المسلمين

والديار الاسلامية، مقتديا بالأسس التي أرساها المجاهد
الأكبر صلاح الدين الايوبى..
بدا بيبرس كمن تلقى ضربة مؤثرة على أم
رأسه.. يترنح ولا يستطيع التفكير.

•••

بيبرس لم يكن وحده الذى ينز تحت وقع ما
ستأتى به الأيام القادمة. وقد صار للملك المعظم
تورنشا من يأمل فى الأمانة والقبض على المزايا.
بفريق يعمل على إزاحة الممالك الصالحة.. ليحل
محلهم الممالك المعظمية!

فالأمرء الكبار - الأربعة - كان يكر بهم، هم
الأيام القادمة، وقد قلبوا معظم بطولاتهم وتضحياتهم فى
صد العدوان الصليبي على البلاد، إلى خيانة، جمدهم
فى أماكنهم بشق الأنفس، ثم نهشوا معنوياتهم، واندفعوا
للوصول إلى أجسادهم ليثخنوها بالجراح.. تحولت
البطولة، قرينة للخيانة والتواطى..

•••

•• أما وقد انتهت الحرب بوقوع الملك لويس
أسيرا.. وبات مقتل الملك ريدا فرانس يشكل ضغطا
وارتباكا فى صفوف الجيش الصليبي، خشيه أن يتهور
أمير مملوكي ويقتل الملك "القديس" لذا سارع
المفاوضون منهم بالموافقة على معظم طلبات أمراء
الممالك، وشرعت المقاطعات الفرنسية والأوربية فى
تجميع الفدية الكبيرة، وترسلها على عجل إلى مصر.

•• ولما حضر الملك الشاب تورنشاه، كان همه -
الأول، ليس رحيل قوات الفرنجة واستعادة دمياط،
وإنهاء تلك الحرب التي أعيت جسد السلطنة. بقدر
اهتمامه باستلام خزائن والده. ومحاسبة الأمراء المماليك
على ما يملكونه وما حصلوا عليه ••

وفى كل الأحوال كان الفريق الذى يحيط بالملك
المعظم يهون من أعمال المماليك الصالحة. حتى أن
الملك المعظم تورنشاه •• قام بزيارة الملك لويس الأسير
وأهداه (خلة) وانتظر أن يقبض بنفسه قيمة الفدية التى
حددها المماليك، ورضوا بها أثناء المفاوضات على
وقف العمليات القتالية وتجهيز جيش الفرنجة للرحيل!
الملك الشاب تورنشاه •• بدأ نزقاً ومبهوراً
وأظهر بأنه لا يكن شيئاً من الاحترام لأمرأء منحهم
والده الثقة.

وقد أعلن بأن الحرب قد وضعت أوزارها، وما
على 'القرانيض' إلا الطاعة.. •• بادر وشرع يملأ
الفجوات التى حدثت فى الفرق - بمماليكه - ليرثوا
بيوت وزوجات وأولاد ووظائف من ماتوا أثناء
القتال.. دون مراعاة للأحياء من المماليك الصالحة
الذين ينتظرون دورهم فى الترقى، وعلى ذلك بذلوا
الجهد فى الحرب!

كما دأب دعاة الملك المعظم تورنشاه يعانسون
بأن على 'القرانيض' الطاعة، وإفساح المقدمة لأمرأء
الملك المعظم، أنها دورة معتادة - صعود وهبوط - وما
على المملوك مهما ارتفع شأنه فوق الرؤوس، إلا

لينحني أمام وارثه سيّد البلاد... فهو منقول من منقولاته
المتوارثة!

•••

•• سريعا ما تخلص الأمراء الصالحية من
غضبهم الذى يشل قدرتهم على التفكير، وتتأسوا
المنافسات التى بينهم. وهى منافسات اعتبروها ثانوية
بالنسبة لما يواجهونه الآن من اخطار ذاتت عن الحد.
والملك المعظم يطلب من زوجة أبيه - شجر الدر - التى
سارعت وأرسلت لتستدعيه من قلعة كيفا البعيدة - بين
جزيرة ابن عمر وميارقين بديار بكر - يطلب منها
بطريقة غير لائقة، بأن لا تجالس الملوك وأن لاتلتقى
بالأمراء السابقين، أو الحاليين، وأن يكون مقرها الدائم
مع الحريم..

وقد تشكك فى أنها لم تدله على كامل أموال الملك
الراحل وأنها تخفى الكثير منها. هى التى كانت محل
ثقة والده المتوفى، وفى ظنه أنها قد أخفت الكثير من
أمواله وجواهره.

ولم يقتنع بأن معظم أموال الملك الصالح انفقها
على تجهيز فرقة المحاربة، وأنه لم يتقل على التجار
أو الفئات الزراعية والحرفية واكتفى بأن تتكون من
الأهالى القادرين منهم، فرقا لتقديم المعونة لفرسانه.
وقام ببناء 'مدينة' مع ما يتطلبه ذلك من نفقات باهظة.

•••

كان أمراء المماليك الصالحية الكبار قد خرجوا
من معركة المنصورة وحصار دمياط مؤنخين بالجراح.

الجراح النفسية، أفسى على نفوسهم من جراح الجسم،
والأمال التي رافقت انتصاراتهم في معاركهم الجانيية
والرئيسية، حلفت بهم.. سقطت على أرض صخرية
ذات نتوءات لتنتفتت!

النصر على الملك لويس وقواته وفرسانه لم يكن سهلا،
والخسائر فى الأرواح من الجانبين كانت عالية،
والحساب دائما ينعصر فى الممالك الذين قتلوا.. أما
أهل البلاد الذين شاركوا فى المقاومة وأقاموا السدود
البشرية لتعطيل زحف هذه القوات وتجميدها فى
أماكنها، فلا أحد سيحصر عددهم، لكى يدفع عنهم
تعويضا. أو يؤشر على وظائفهم بانتقالها لبدلاء فى
سجلات القلعة.. ومع ذلك فإن الأموال التى وصلت
أمرء الممالك الكبار لم تكن تكفى رتق الثقوب فى
الثوب الذى تهرأ..

وما هو الملك الشاب "تورنشا" يستدعى أمرء الممالك
لتقديم كشف حساب مشكوك فى صحة ما يقولونه قبل
أن ينطقوا به. ويؤكد لهم بأن عيونه وجواسيسه زودوه
بإحصاء بكامل الأموال التى وصلتهم.. ويسألهم أن
يقروا - فقط - أين وضعوها.؟!.

انه يحاسبهم على ما حصلوا عليه من أموال
سيدهم. وذهب فديات الأسرى الكبار من الفرنجة
ويصم أذنيه إذا ما ذكروا النفقات والخسائر من الأموال
والممالك. وما تعرضوا له من أخطار، فلو أن الملك
الصالح كان لا يزال حيا.. لضاعف ما انفقوه وأزاد من

الإعطيات لهم، و عوضهم كثيرا.. أو على أقل تقدير
لبقيت لهم مزاياهم، ولم تعد مهددة بانتقالها لغيرهم..



في الأوقات العادية كانت طاعة المملوك واجبة
لسيده. والتبديلات التي تحدث هي سمه النظام والحياة.
يوم في النعيم ويوم في العراء مطاردة.. والمصير
مرتبط دائما بأحوال السادة. وما تسفر عنه منازعاتهم.
لم يكن للمملوك أن يفكر في تعديل قرار.. وحياته
مقبوض عليها بيد سيد- في كسل الاحوال- ترجب
طاعة هذا السيد بدون نقاش!

معاملة الملك الصالح لمماليكه كانت تتسم
بالروح الأبرية، ففتحت الطريق للمشاعر الانسانية، وأن
يشعر المملوك بأدميته.. لعل تلك المشاعر الجديدة
كانت جوهر انتصارهم الساحق في معركة المنصورة.
وقد أصبح الأمر بيدهم منذ الأيام الأولى لوصول
"الملك الصالح" إلى قصره في فارسكور.. ثم أقعده
المرض. أو سلب روحه مبكرا.. لقد زرع الملك
الصالح في نفوسهم شيئا جديدا: حولهم من آلات صماء
لا يتكروم تنفذ الأوامر ولو كانت بالخطأ.. إلى شبيه
أحرار يفكرون ويبدلون، يضيفون أو يحذفون أثناء
المعارك، طبقا لما تتطلبه الظروف.. حتى توالت
إنتصاراتهم على جيوش أعداء الملك لويس جيدا
وجهزها لتغطي مصر والشام.. هي الحرب التي
تصهر الأشياء جميعها وتعيد تشكيلها من جديد.. معظم
المتغيرات تأتي عقب الحروب الكبرى.. ومعركة

المنصورة.. كانت بالنسبة للمماليك.. هي حريهم الكبرى.. التي ملأت نفوسهم بالفخر والانتصارات.. وملأت نفوسهم أيضا.. بالقلق والأضطرابات. لكى تذوب الطاعة التي ليست فى محلها.. وتهتز المقدسات المترسبة فى نفوس المماليك منذ بدأ هذا النظام فى دولة السلاجقة بأسيا الصغرى.. وتصرفيات الملك الشاب "المتهور"- وقد جاء إليهم فى فرقة قابلة الشبان بالنسبة لفرقهم التي تحدى أيديهم، فرقم المعبأة بأمانى النصر الذى تحقق بدون أن يكون لتورنشة سهم فيه. أنه يريد أن يستحوذ على مزايا هذا الانتصار الكبير الذى هز أوربا وسيقوم بردعهم لمئات السنين القادمة.. حتى لا تفكر فى غزو الشرق بتلك الحملات، من الكراهية.

والمشكلة فى الواقع، أمست تقلق الأمراء الكبار من المماليك.. عز الدين أيبك التركمانى.. وفارس الدين إقطاي.. وهما أقوى أمراء المماليك الأربعة. إذ أن شمس الدين سنقر الرومى، وسيف الدين بلبان الرشيدى. كانا يقران بأقدمية الأميران أيبك، وإقطاي.. وبأنسهما أكثر حيازة للمالك، وللوظائف، فى الدولة والتسى تسدر دخلا ثابتا يكفى نفقاتهما على مماليكهما فلا يتطلعسان إلى أكثر مما هما فيه.. وقد صدر مرسومهما أن يحافظا على ما بيدهما!

"بيبرس" الذى رفع إلى إمارة الألف فسى بدايه المعركة.. وأبلى بلاءا حسنا فى معركة القصر، فطيبوا خاطره بقرار مبصوم بخاتم الملك الصالح. يشك بسان

الملك الصالح كان حيا عندما صدر هذا القرار - والذي مهدت به شجر الدر - لكي يطرحون عليه فكرة قتل الملك المعظم. ويتركونه يدبر هذه "الفكرة الخطيرة" يقرب فيها من كافة الوجوه، وفي ظنهم أن من يقتل الملك الصليبي "رايدا" يستطيع أن يقتل الملك المسلم.. تورنشاة.. متناسين أن الملك الصليبي جاء معتديا.. وتوغل إلى فارسكور ليحاصر قصر السلطان، وكان مقتله - المنفذ الوحيد - لوقف اجتياحهم لقصر السلطان، واستيلاءهم على أمواله وحريمه، بل وعليه شخصيا - حيا أو ميتا - وفي ذلك كان سبب انهيته إلى انهيته جبهة المسلمين في تلك الحرب التي هبطت على شمال مصر كالصاعقة، دون مقدمات أو أسباب تستدعي ذلك. مع ما هو معروف عن عهد الملك الصالح بالدعة والسلام، وعدم الدخول في مغامرات ضد الفرنجة أو تجارهم. بل كان يفتح الطرق في مصر لجميع التجار من أنحاء العالم، شرقه وغربه. وكان يدرك تفكك البيت الأيوبي أمام الأخطار العظمى، فلم يعتمد إثارة أحد من جيرانه، وكان منكفئا على أحوال مصر، محصورا في القاهرة.. يعاني من الوهن والمرض والشيخوخة حتى أنه تخلص من ابنه تورنشاة بالطرد - عندما صدم بتهوره واندفاعاته، فإذا باينه يكمن في قلعة كيفا.. عدة سنوات. ثم يعود طاغية.. لا يصدق أحد بأن هذا الإصرار من الغضب، هو ابن الملك الصالح.. والذي كان يصدق عليه لقب 'الملك الهادي' نجم الدين أيوب.

(٨)

قاتل الملوك والمهمة الصعبة

□ معركة المنصورة، تمت فى بدايتها ترقية المملوك "بيبرس" من نقيب دباش قائد مائة إلى "أمير الأي"، يقود ألف وبذلك أصبح قائداً لمماليك فارس الدين إقطاي. وعقب معركة "القصر" أضحي بطلاً يحتفى به. وتمت ترقيته على الورق، أمير ركن، قائداً لعشرة آلاف، وتلك الترقية جعلته خامس الأمراء الكبار فى فرق جيش الملك الصالح، لكنه ظل تحت أمره إقطاي، إذ لم يتسلم إقطاعه أو وظائفه. كما لم يسعه الوقت حتى يعمر قصره بالمماليك "الخاصكية" الذى يتقوى بهم ليعيش وكأنه صورة للسلطان على الناحية التى سيتولاها من البلد.

كان أحدث الأمراء، مثله مثل قطز الذى يعمل قائداً لمماليك عز الدين أيبك، كلاهما تمت ترقيته فى غمار الحرب وضجيجها، وليس لهما إلا أجناد الحلقة من المماليك "القرانيص"، وما وجود به أمراءهما من "خاصكية" يقودهم أثناء التكليف بالمهمات الحربية، وهؤلاء لا يخدمون أميرهم فى قصره، أو يوظفون فى

إقطاعياته، وليس عليهم تكاليف شخصية نحو أميرهم
فهم "أجناد حلقة".

حتى كانت الأزمة الضاغطة التي خلفها موت
الملك الصالح، والمجىء بولده تورنشاه الذى أبدى
انقلابا على المماليك الصالحية. وقد سارع ونصب نفسه
ملكا بأسم الملك المعظم، ولم يكن كبار المماليك أمام
طنغيان "تورنشاه" وتهوره، -حفاظا على ما بيدهم من
مزايا- إلا التأم مع "شجر الدر" لقتل تورنشاه، قبل أن
يتولى أمراؤه مناصبهم، ويستولوا على ما بأيديهم من
إقطاعيات ووظائف!

وقد وقع اختيار إقطاي على "بيبرس" لكى يدين
هذه المسألة، ويقوم بتنفيذها بمعرفته، ووعد إقطاي
بأنه سيعالج المسألة مع باقى الأمراء حتى لو اضطروا
إلى تنصيب [طفل] من البيت الأيوبي، ويكون أحد
الأمراء منهم "وصيا عليه" ذلك يحفظ لهم مزاياهم،
كما سيكون فى الامكان منحه ما سطر له فى "القرار
السلطانى" المبصوم بمزاياه، كامير ركن، له ما لأمرء
الأركان الأربعة من مزايا، ونفوذ!



•• بيبرس لا يخفى إعجابه الشديد بالأمير فارس
الدين إقطاي الذى كان واسع الأطماع، قوى الشكيمة،
وهو أقرب إلى فرسان المغول فى عنفهم وإنقلابهم
وردود أفعالهم غير المتوقعة، كما أنه كان يتسم
بالغموض، فلا يعرف أقرب الناس إليه موقع خطوته
التالية، وعلى كاهله، وقعت أعظم المعارك فى

المنصورة "فكان لها" ولم ينكسر أمام الفرنجة ولا مرة واحدة "كما أنكسر بلبان في واحدة" وانكسر سنقر في اثنتين، ويساويه في عدم الإنكسار عز الدين أيبك إذ أن كلاهما يقتنى الأعداد الكبيرة من المماليك الأقوياء، وفرسان الفرنجة كانوا يعملون حساباً للناحية التي يقع عبء الحرب فيها على كاهل "إقطاي"، ربما أكثر من "أيبك".

فإقطاي كان يفضل أعمال السيف في رقاب من يسقطون أمامه، أو يخادعونه بالتسليم ورفع الرايات البيض وإدعاء المسكنة، وأنهم جمعوا من حقولهم البعيدة في أوروبا وألقوا بهم في أتون المعركة، وما على العبد الفقير إلا أن يطيع. لا تأخذه رحمة بأحد منهم، بينما كان "عز الدين أيبك" يستجيب لرجوات الأسرى "ويخفف عنهم" وإذا ما كانوا فقراء "يكفى أن يقرون بذلك" فلا يتعالى في طلب الفدية لإطلاق سراحهم، وإعادتهم إلى الملك لويس، مصدقاً على العهد الذي يقطعوه على أنفسهم بأنهم لن يحاربوا المسلمين مرة أخرى. ومع أن أيبك كان يعثر على من ينكث بعهده من اسراء السابقين، يخوض المعارك ضده واحدهم أجاب عليه بأنه دفع فديته وما عليه إلا أن يستردها بنفسه. في وقاحة أساعت إلى أيبك وأثارت من حوله، ومع ذلك رفض قتل هذا الأسير الوقح، وطلب فدية مضاعفة عليه، وأبلغه بأنه في المرة القادمة إذا ما سقط في يده فسيقتله الفرنجة

كانوا يعلمون الكثير عن طباع الأمراء المماليك، فقد رد عليه الأسير قائلاً:

- أنت لن تقتلني يا أمير، ليس هذا طبيعك، فأنت لست الأمير إقطاي الذي يحصل على الفدية ويقتل أسراه!



كان الصليبيون يتسلحون بالحمية الدينية، وعدم الرحمة، ويعتبرون المسلمين "عبدة أحجار" لكونهم يطفون حول الكعبة، فيقتلون أسراهم دون إحساس بأن ذلك سيعكر صفو العلاقة بينهم وبين الرب! وكان فارس الدين إقطاي له طابع المغول في حربه ضدهم وهو الأبشع. إذ كان يناور مثلهم، ويلقى بالوعد المحفوفة بالإيمانات العظمى "ثم يحنث بها" كدأب الطابع المغولي في الحروب "قطمه أفضل من نحتيه" والوصول المباشر إلى مواقع القيادة الكبار وقتلهم والتمثيل بجثثهم، ذلك يسهل لهم قتل الصغار بدون بذل كثير من الجهد، ولا مجال لإقتناء الأسرى واطعامهم وانشغال فريق بحراستهم، في رأيه، أنه من الأفضل، قطع خيط العقد كي تنفطر حياته، والحيات بدون الخيط لا تصلح عقداً، أو مسبحة!

وبيرس أتقن تلك الخطط المغولية وتشربها! "أقطع الرأس فلا تكون هناك خطورة من جسم يتحرك قليلاً ثم يهدم، حاول ببيرس أن يكون غامضاً وطموحاً وجسوراً" مثل إقطاي" في أن واحد، لكن هناك فرق كبير بين أمير ركن، في يده وظائفه ومماليكه، وله نفوذه، وبين "أمير ركن"، كانت ترقبته

مجرد ورقة سلطانية مبصومة، فتحت أمامه باب الأحلام، ثم قام الموت باغلاق الباب على تعاسة وإحباط، مع أن القرار السلطاني يضعه في مصاف الأمراء الكبار "تظريا" لكنه عمليا لم يزل "المأمور" من إقطاي، ذلك الذي لا يحترم وعوده إلا بقدر قوة خصمه في الإمساك برقبته، إذا أطاح بيده بادر وخنقه!

لذا كان إعجاب بيبرس بالأمير القوي إقطاي مشوب بالحرص، والعمل على أن يأمن جانبه، إذ يراه سريع الغضب ويمكن أن يطيح بما بقي له من آمال، إذا ما رأى منه تسويفاً وعدم جدية في حسم التكليف الذي صورته، بأنه "تكليفاً جماعياً" من أركان فرق جيش الملك، الصالح، ورغبة ملحة من "شجر الدر".

بيبرس يرى في إقطاي صورة من ذاته، على أتم استعداد أن يبني مجده بالجماجم، يصعد عليها ليكون هو الأعلى، بيبرس كثيراً ما تصور في أحلامه وسرحاته أنه فارس من فرسان المغول قام بتدمير الدولة الخوارزمية، ولأنه فتح عينيه فوجد نفسه في جانب المسلمين يجب أن يحزن على هذه الدولة التي بأنهارها ساح المغول، في الشرق، وباتوا يحاصرون عاصمة الخلافة العباسية، ويستهدفون عاصمتها بغداد، ويتوعدون الخلافة بالزوال، وبغداد بالدمار.

بينما المملوك قطز، عكس بيبرس، يتخيل أنه ابن لأخ الملك المهزوم جلال الدين، الذي لم ينجب صبياً يرث العرش، وانجب فتاة يرى ملامحها في أحلامه، يحق له الزواج منها، واستعادة عرش آبائه،

لذا كان قطز يرتاح لحالة يحاول فيها الابتعاد عن العنف المغولي، ميالا لذلك الهدوء الذي كان طابعاً مترسخاً في أميره عز الدين أيبك، وبدا قطز أنه يتصرف بين الممالك ووحشيتهم وبدائيتهم على أساس أنه أمير! ضل الطريق، وينتظر أن يصل إلى مملكة أبائه ليستعيد عرشها من يد المغول!

وكثيراً من الممالك كانت تزول وتتهار ومن بقى من البيت المالك، يعيدها ويقيمها من جديد، فالثبات لم يكن طابع العصر، وأى خلل فى ناحية ما، تتأثر به النواحي الأخرى، **إخراجه** الثوابت كثيراً ما أنهارت أمام الحروب. وها هو بيبيرس يمسك بأمارته، أمانة فرضتها الظروف القهرية، أمانة زئبقية إذا ما رفع يده ليعلن الفوز بها انصرمت من بين أصابعه وأفلتت لتقع فى حجر إقطاي، يتناولها من حجره ولا يعيدها له إلا إذا دبر مقتل الملك المعظم تورنشاه. وأن يكون ذلك سريعاً، أسرع من الأحوال التى تتبدل حولهم.

لذا فإن إقطاي جعل بيبيرس لصيق الصلة به، على اعتبار أنه سيدبر الأمر وينتهي منه، لابد وأن يفعل ذلك، إذا ما كان بيبيرس يعجب بإقطاي ويعلم الكثير عن طباعه وخصاله المغولية، فإن الأمانة الفعلية لا تتأثر إلا بالرجال، ونفقاتهم كثيرة، فيكون الإقطاع المناسب له أهميته، كما تكون الوظيفة الكبرى لها أهميتها للحفاظ على الإقطاع وزيادته، وهذا كله لا يستمر إلا بدعم "أمير كبير قوى" يصد عنه المؤامرات عند السلطان.

أما والسُلطان قد مات، فالأمير القوي باق، كلفه باختبار قد ينجح فيه أو يرسب، لكن المهم "المحاولة" التي تعبر عن الطاعة.

يا له من اختيار قاس على قلبك يا ببيرس، قد يتضمن التضحية بك، فيكسب إقطاي على طول الخط، إذ ما يتم قتل قاتل الملك المعظم سليل الملوك الأيوبيين، فإن ذلك وارد طبقا لمسار تفكير إقطاي!



كان ببيرس يخشى إقطاي برغم إعجابه الشديد به، كشخص، وكمحارب، وكأمير-إقطاي مثله الأعلى، إذا ما ارتفع للسيادة فأنت يا ببيرس "ستكون" أمير الفرقة" المحاربة وقت الحروب ووزيره وقت السلم. لكن الأمير القوي، حتى ولو أحاط نفسه بالأمراء الأقوياء، فلن يقبل إلا أن يكون الأقوى، لكي يحصد مزيدا من القوة فسيكون عليه دائما هزيمة من حوله ودفعهم بعيدا. وفي تلك المرحلة المضطربة، كان ببيرس يتمنى أن يرفع عز الدين أيبك "ليكون الكبير" الذي بيده الحل والعقد، لكن كيف؟ والقوة الفعلية، مقسومة بين الأميرين، تميل قليلا إلى كفة إقطاي، لكن مجمل المماليك يرون أن أيبك واضحا وصريحا ولا يخفى المفاجآت في كم بذته العسكرية، إذا ما وضعت الحرب أوزارها، قام كالحاوي بإخراج المذهلات منه. إذ عندما يغضب إقطاي يقتل، وإذا ما حدث القتل الخطأ لا يدفع تعويضاً، لكنه يلوم المقتول بأن وضع نفسه في مواجهته!

ومجمل المماليك.. مالوا إلى صف "عز الدين أيبك" لطيبة قلبه ولخشيتهم من أطماع "إقطاي" التي لا حدود لها. وقد لاحت نذر الصراع بين الأمراء الكبار والملك المعظم.. ورأوا أن "أيبك" لديه المقدرة أن يكون بالنسبة للملك الشاب في صورة "المستشار" الذي يوفق بين مصلحتين، ليس بينهما تناقض كبير..!



الأموال الطائلة التي خلفتها فترة السلم الطويلة. ولم تستغرقها الحرب الساحلية في دمياط والمنصورة. كان البعض يترصدها ويتابع حركتها، فإن اسرار الودائع الموزعة عند مشايخ الحارات المغلقة. وأرباب السجاجيد، لن تفصح بها شجر الدر إلا لأنسان تأسن عدالته في نصيب وافر لها. انسان فنوع بما بين يديه.. أنه "أيبك" وليس "إقطاي"، وقد اطمأنت أن "تورنشاه" لن يتخلص منها لذلك السبب. وحظ: بيرس أوقعه تحت أمره إقطاي الذي يعجب به ويخشاه. كان يرى في "عز الدين أيبك" أميرا لا يصلح لفترات الحروب. لكنه خلق لفترات السلم الطويلة. "أيبك" واسع الثقافة ويستطيع أن يستشهد في أقواله بأبيات من الشعر وأيات من القرآن الكريم، كما أنه ملم بأخبار الأمصار الإسلامية. ويهتم بالعلوم الدينية، وأحيانا يبدو كأنه أحد طلاب الأزهر الشريف. عندما يستمع في مجالسه للشيوخ، يحفظ عنهم ويساجلهم - وقد يشبه مجلسه مجالس السادة العرب المسلمين، بل ويقرن اسمه بأنه ابن عبد الله النجمي الصالحى - يجيد الخديث، كما

أنه لم يهزم في الحرب.. بينما إقطاي لا يجيد "الحديث"
ويضيق باللف والدوران، ويصل إلى هدفه مباشرة،
حتى لو أغضب ذلك من حوله.

•••

في مجلس الكبراء- الذي لم تحضره شجر
الدر.. وقد حدد اقامتها الملك المعظم تورنشاه في
القصر السلطاني بفارسكور، مزعما عودتها إلى القصر
السلطاني بالقلعة. بدأ الأمير عز الدين أيبك قلقا، وغير
مستريح لفكرة الجهر بقتل الملك المعظم ابن سيدهم.
وهو ما كان يجهر به "إقطاي" بلا وجل!

لكن بيبرس استشف بأن مقتل الملك المعظم في
ذلك الوقت وانجاز هذه المهمة، لن يعارضها أيبك
الذي يريد اللف والدوران حول الهدف للوصول إليه
من الخلف، وليس من الأمام. على أساس عدم إثارة
المشاعر!

كما أنه حذر بأن تورنشاه سليل ملوك. والأمر
لن يمر ببساطة. والأفضل الذي يراه ملائما الآن. هو
إذا ما حدث وقتل، أن يتولى الملك مكانه، "ملك أيوبى"
يوافق على شروط الأمراء الكبار، فالجهاد الذي تحقق
بهزيمة الفرنجة لا يجب أن يذهب هدرا مع دماء
تورنشاه..

وعاد عز الدين أيبك يقترح أن يعطى فرصه
بأن يقدم تحذيرا للملك المعظم تورنشاه ويبين له أن
القوى صارت بيد الأمراء المماليك.. وأن يكلف عددا

من المشايخ والعلماء وأرباب السجاجيد بتوجيه النصيح
للملك الشاب..

.. في الوقت الذي وافق فيه إقطاي على
مقترحات أيبك، كان ينظر في عيني بيبرس، يصب فيها
رسالته الأخيرة "عجل بقتل الملك المعظم يا بيبرس."
"انظر.. انت إذا ابطأت أدخلتنا في مآهات!"



(٩)

الموت المعجل والموت المؤجل!

□ تورانشاه، ابن الملك الصالح، سليل الملوك الأيوبيين، مستقوى القلب بأعمامه وأبائه ملوك وأمراء الشام، لعله في عزلته بين خدمه وحراسه في قلعة كيفا البعيدة عن مصر وما يجرى فيها، كان قد توغل في الأحلام.

والده الشيخ في أواخر أيامه، خيل له بأنه البطل الذي سيوحد البيت الأيوبي، "تورنشاه" الذي عاش عمره منعماً في فترة السلم الطويلة، ذلك الذي ولد وفي فمه ملعقة من ذهب، وإذا ما غضب عليه والده، خاصة بعد أن رفع جاريته "شجر الدر" إلى مرتبة الزوجة الشرعية دون أن يكون له منها وريث، فناهضه ابنه، ضايقه حتى قرر إبعاده عن قصره في مصر.

أرسل معه مائه خادم، يسهرون على راحته، وأرفق بهم مائة مملوك يسهرون على حراسته في القلعة البعيدة، فأمضى "الفتى" وقته الطويل في الصيد والقنص، أو الزيارات إلى عروش أعمامه في الشام، يحل عليهم ضيفاً كريماً، يخاطبونه في إجلال "ملك" مصر القادم على عرشها القوى، "فالشام بدون مصر"

ضعيف مفكك، متنازع القيادات " والشام بمصر " قسوى
ويملى أرادته على جيرانه. ويصد عن مدنه وأرضه
وقلاعه الأطماع التى تحيق به من البر الشرقى،
والبحر الشمالى، أما الجنوب فصحراء، الأغارات منها
للسلب والنهب دون المكوث لتملية الإيرادات!

لذا لم يكن تورنشاى على علم بخفايا نفوس
أمراء الملك الصالح، وظن عندما أرسلوا له الرسل من
فصحاء العلماء.

بأن يسارع ويشاركهم الجهاد الأكبر ضد
الصلبيين وبذلك يحق للأمراء بالنصر النهائى، أن
يكونوا قادة فرقه وجيشه، ولا ينزلهم إلى مرتبة
"القرانيص"، وأنهم يتقوون به ويرغبون فى أن يتقوى
بهم.

ولما عرض عليه الوسطاء بأن لا يحضر معه
أحد من عسكر الشام، وقد دانت المعركة لهم، والنصر
أوشك أن يتحقق، وبينوا له خط سير المعارك وما أدى
إلى الهزائم المؤثرة التى منى بها الصليبيون، فقد فعل
عكس ما طالب به أمراء والده، أتى فى فرقة من
المماليك - غير متجانسة - تم جمعهم من مماليك
الأعمام والأقارب - كل منهم يريد أن يبدو بأنه ساهم
فى مسانده عرش تورنشاى * وفى الجهاد ضد
الصلبيين. وهم يعلمون بأن المعركة قد دانت للمماليك
الصالحيه، والمفاوضات قائمة لرحيل الغزاة.. وفك
أسر مدينة دمياط.

لم يكن الملك المعظم الإشباق تلعب به الاحلام،
تصعد به الأوهام فى أن يلعب دورا يماثل دور جده
الأعلى صلاح الدين، لكنه فى الحال. لم يكن صاحب
حنكة أو سياسة، حتى يدير إليه كل الرؤوس مهما
تناقضت أهدافها ومرامياها..



كان يمتلئ بالغرور.. وكان يستمع بميل وهوى
الى عدد من مماليكه المقربين.. ولم يستشف أغراضهم
البعيدة فى الطعن وتصوير المسائل فى مصر بأنها
تحكم بعصبيه غير مشروعة.. وأن المعركة التى فى
الذلتا لاستحق كل ما يشيع حولها من دعايات يحملها
الرواة.. وأخبار يروجها الاخباريون ودليلهم، أن الملك
الصالح لم يطلب المعونة من أقاربه بالشام، وإن دل
ذلك، فإن المعركة برمتها أقل كثيرا مما يحيطها من
مغالاة وبطولات.. فكان كلام أمراء الملك المعظم
يقع موقع القبول عنده- لأسباب قديمة مترسبة- ولم
يشاهد أو يشتم رائحه أطماع أمراؤه فى الوظائف التى
سنتاح لهم بالقاهرة، وقد لاحت لهم الفرصة سانحة
مدعومة من مشايخ يقدمون وافر الولاء لتورنشا، قبل
أن يعلى عرشه، يفرشون له الأرض من قلعة كيفا الى
قلعه الجبل بالقاهرة بالأمانى الطيبة.. والتسى تحقق
بعضها. إذ وهو فى الطريق إلى القاهرة. سقط الملك
لويس أسيرا، وتم حبسه فى دار ابن لقمان بالمنصورة
وكان هم الملك الشاب الحصول على إرث والده من
الأموال والنفائس.. وكيف يمكنه أن يوقع الرعب فى

قلوب أمراء والده، حتى يفصحوا عن كافة الأسرار
التي لديهم..

أما الوعود والرجوات التي طلبها الأمراء الصالحية
من ابن سيدهم.. فقد أجل النظر فيها والوعد بها.. ثم
خالف رجواتهم ولم يذهب إلى القصر السلطاني
بفارسكور.. فضل أن يحل أولاً بالقصر السلطاني
بالقلعة، وفيه يعلن نفسه ملكاً من هناك.. محاطاً بحلقة
من مماليكه، ومن انضم إليهم من أجناد الحلقة اللذين
يحمون العاصمة، ويديرون شئونها..



قال العامة الذين كانوا يتابعون أخبار المعارك
في المنصورة ويستمعون لرواة الروايات والمنشدين..
كل غربال وله شدة.. ولكل دولة رجالها.. ولكن لن
يكون مكافأة الذين يجاهدون في سبيل الله وأمة الاسلام
أن لا يحضروا احتفال صعود تورنشاه إلى عرش
والده.. فهم الأمراء الحقيقيون الذين يستحقون الوقوف
في ذلك المشهد مع الملك المعظم، وليس هؤلاء الذين
يأتون - ليأكلوا من السماط بعد أن تم اعداده وتجهيزه -
يأكلون منه قبل تواجد اصحاب البيت! «

كانت الأخبار تترى إلى الأمراء المجاهدين في
المنصورة بما يحدث في القاهرة.. وعندما تقام قلق
الأمراء.. من جراء ما يصلهم من أخبار ووقائع.
عكس ما طلبوه من الملك الشاب. تم عقد الاجتماع
بحضور [شجر الدر] والأمراء الأربعة الكبار،
يشاركهم في ذلك الاجتماع "أربعة" من القواد الصغار

- لكل أمير كبير قائداً للماليكه- كان أبرز هؤلاء القواد "بيبرس، وقطرز" ولم يكن لقطز حق التدخل والإدلاء ببدلوه، فهو يحضر الاجتماع كقائد لمماليك أميره "عز الدين أيبك"- أما بيبرس فقد منح بالقرار السلطاني الذي صدر عقب معركة القصرء وما أبلاه فيها- بات له الحق فى المشاركة الفعالة على اعتبار أنه خامس الأركان العظام..!

فى هذا الاجتماع الخطير.. أمكن لأمرء المماليك أستعراض أفعال الملك المعظم.. وتبلورت المشكلة بالنظر فى جوانبها المختلفة.. واستقر الرأى بأن فيما يأتية تورنشاه من أفعال تعتبر موجهة ضدهم وتفقدهم الأمان. كما تهدد مزايهم..، بصفتهم المجاهدين واصحاب الانتصار فى معركة المنصورة، فأنهم يجب أن يتكثروا ويقسموا على التمسك بوحدتهم، والتي قد تعصف بها الريح القادمة من "قلعة كيفا"- واذ ما لم يقم الملك الشاب باحترام ما عرضوه عليه، فإن رأس تورنشاه تكون فى المقابل.. وعليهم الاستفادة مما حققوه من بطولات وسمعة طيبة..

وقال بلبان الرشيدى:

- أما وبيدنا الآن أربعين ألف من المماليك المزدانين بانتصارهم. الأقوياء بأموال الفدية.. فإنه سيكون من الغفلة أن نسلمه- قوتنا- وننتظر بقلق ما سيفعله ضدنا.

وإعطاي لزم صمته الطويل، وإذا ما تحدث دفع بنتائج ما يجريه من حوار بداخل رأسه، قلب فيه

كثيرا. انه لايفكر مع من حوله بصوت مسموع كما يفعل "عز الدين أيبك" حتى يشرك من حوله فيما يفكر فيه. يظن الذين يستمعون لأيبك أنهم أباء لمعظم أفكاره واقتراحاته.

وبين كافة الاقتراحات والمداومات ومضت تفاصيل الخطة التي رست عليها سفن الأمراء الكبار، ومن يحيطون بهم. بدت شجر الدر مستسلمة لما يقترحه الأمراء الكبار. فى ذلك الإجتماع. [ضرورة التخلص من تورنشاه قبل أن يتخلص هو منهم].

[يفطرون به قبل ان يتعشى بهم].

" بدت اقتراحات عز الدين ايبك مقبولة. فور التخلص من تورنشاه يتم اختيار أمير صغير من البيت الأيوبي فيحكم الأمراء باسمه.. وبذلك يكسبون الدنيا، ولا يغضبون علماء الدين، وشرائعهم المشرعة إلى صدورهم كأسنة الرماح.

وكل ما كان يهم إقطاى هو انتزاع الموافقه من عز الدين ايبك بالتخلص من تورنشاه.. وذلك بدد الاضطرابات فى موافقات سنقر وبلبان.. وعندما نظروا إلى بيبرس ليبدلى بدلوه..قال:

- نولى طفلا مقربا من الملك الصالح، ونستعد لهزيمة أعمامه واخوته بالشام ونستعيد أملاك مصر هناك..

لكن عز الدين أيبك عاد مرة أخرى يتساعل؛ حول موقف الشرع ومدى انقلاب الملوك والأمراء الأيوبيين عليهم بسبب مقتل الملك تورنشاه..قال:

- إلى أى مدى سيقف معنا مشايخ و علماء الدين فى مصر؟

وخشى إقطاعى أن تعود المنافشات من حيث بدأت فقال:
- أنها اسئلة معقولة، إذا ما تمكنا من الأمر فلن نخالف علماء المسلمين، نحن مجاهدون صدوا غزوا صليبيلا .
يا حضرات .. نحن الآن نقف فى ظل انتصارنا الحربى،
و العالم الاسلامى يؤازرنا. ومعلوم أن أخسوة الملك
الصالح وأعمامه لم يساهموا فى هذه الحرب .. و اذا
انصرفت سحابة الانتصار التى تظللنا .. تبدل الموقف
تماما. سيدفعوننا دفعا إلى القتال بعيدا "كقرانيص" حتى
يفنوننا عن آخرنا" سكت برهة ثم قال بحزم:
"اقتلوا الملك المعظم قبل أن يتعاضم شأنه."



شجر الدر التى كان لها خليل من الملك الصالح ..
اضطربت. و اسئلة كثيرة أثارها الأمراء .. فإن قتل
المماليك للملوك شئ غير مسبوق. ارتفعت الاسئلة
التي تخوض فى مخاضة من الشكوك والرعب أمام
المغامرة كحاجز .. سكنت خلفه المشاعر المتضاربة،
لكنهم جميعا باتوا محبوسون فى ركن ضيق. لافكسالك
منه، إلا بالتخلص من "تورنشا" ..

سنقر تدخل أخيرا وتكلم؛ اقترح اغتيال نفسه مقرب
بالقلعة .. أو وضع السم له فى الطعام .. لكن عز الدين
ايك استنكر ذلك، وبين أنه ولا بد محاط بخامة وحرسه
ومحتما من تلك الأفعال الخسيسة. ولما ازداد توتر
الأمراء - ومعهم شجر الدر - حائرين يتخبطون بين

الموافق الصريحة على قتل الملك المعظم تورنشا..
والرفض غير الصريح الذى يقف عاجزا أمام توالى
الأيام.

كل يوم يمضى لن يكون فى صالح
امراء المماليك.

عاد ورفع فارس الدين إقطاي يده، فتعلقت بها
ابصارهم، التفت إلى يمينه مع ميل إلى الخلف قليلا،
وانزل يده على كتف بيبرس ببطئ، حتى استقرت
تماما. ثم ربت على كتفه وقد تحولت الأبصار نحو
وجه "بيبرس" كان جامدا يغمض عينا نصف أغمضة
والعين الأخرى مفتوحة على واتساعها..

وقال إقطاي، وفى قوله شئ من التفاخر بتابعه:

- ما رأيك يا بطل معركة القصر..!

"أنها المرة الأولى التى يتفاخر فيها إقطاي
ببطولته أمام الأمراء القدامى والجدد" ..

تعلقت أبصار الأمراء بشفتى بيبرس.. لم يكن
يعنيه من كل ذلك إلا عينى "شجر الدر" .. وتلك
الرجوات التى تطل منها.. أنها تعلم بأن "إقطاي" قد
كلفه بالمهمة الثقيلة. ما تريده الآن أن تطمئن بأنه
فاعلها.. أن ترى طيفا لموافقة مسبقة يطوف بلامح
وجهه، قال بيبرس:

- التخلص منه سيكون صعبا فى قصره بقلعة الجبل،
وهو بين مماليكه وخدمه... وذلك، مهما خططنا له
سيستغرق وقتا طويلا.

امتلاً صدر إقطای بالهواء.. فبدأ أضخم
الموجودين فى ذلك الاجتماع.. وقال وهو يريح ظهره
على مقعده الوثير:

- بسيطة.. سنأتى به إلى هنا..
واندفع سنقر قائلاً:

- حتى إذا ما جاء فى قوته.. يمكن حصارهم
وهزيمتهم.

انتفض أيبك.. تحرك فى عصبية.. فأنتبه له
الجميع كما استدارت إليه شجر الدر.. تريد أن تتعرف
على رأيه النهائى.. قال:

- لا نريدها حرباً بين ممالك الشام وممالك مصر
ونحن كما تعلمون قد خرجنا من معركة المنصورة
مثنخين بالجراح.. لاشك أن ما يأتى به الملك المعظم
من تصرفات مضادة لنا ولإتفاقنا معه.. يعطينا الحق
فى الدفاع عن أنفسنا.. لكن لا بد وأن ابين لكم.. أنكم
إذا خالفتم المتبع قلن يكون لكم مكان فى العالم إلا هنا
فى مصر.. العالم كله سيكون فى ناحية.. ونحن أمراء
الممالك وما معنا من ممالك.. سنكون فى الناحية
المضادة..

تدخل إقطای سريعاً قبل أن يبدد أيبك ذلك
التقارب الذى أتمه.. حول هدف واحد محدد.. قال:

- يا أمير عز الدين.. نحن إذا تخلصنا من هذا الشاب
الأرعن.. تحت ظلال انتصارنا على الملك لويس
وجيوشه، سنكون قد كتبنا صكوكاً بحريتنا من
العبودية..

أنه هدف يتضاعف أمامه كل خطر.. تأتينا
فرصة الوصول إليه. وكل شيء بيدنا.. هنا.. الجيش
والأسلحة وقصر السلطان.. وشجر الدر.. وقد كانت
محل ثقة سيدنا.

وفى المقابل.. أخوة وأعمام مزقوا الشام
فتمزقت قوتهم هناك، وكل ما استطاعوا إرساله مع
الملك المعظم.. أقل من ثلاثة آلاف رجل.. معظمهم لم
يمارس الحرب منذ مولده.. جاؤوا للتركة والإرث..
جاؤوا من أجل الغنائم التي غنمناها في معركة
المنصورة.. يا حضرات الأمراء.. كل شيء يهون أطماع
الموت.. لقد حكم علينا تورنشاه بالموت المؤجل..
فعلينا أن نحكم عليه بالموت المعجل!



(١٠)

القطب فى مقابل القديس

□ حملة الملك لويس على دمياط.. وسقوط المدينة فى يده على أثر الاجتياح المفاجئ، وانسياح جيوش الحملة فى أرض الدلتا المصرية.. كان أشبه بجرح عميق أصاب جسم مصر.. فتداعت له كافة القوى.. بالسهر والحمى!

كما أن قرار الملك الصالح نجم الدين أيوب- وهو الشيخ العليل- بأن ينتقل بعرشه، وبكل ما يملك من مال وسلاح وممالك إلى المعسكر الذى انشأه فى فراسكور على عجل.. كان يعنى أن يتبعه كافة المجاهدين من ملوك وأمراء المسلمين وهم يرونه يتصدى بنفسه- برغم مرضه وشيخوخته- لهذا الخطر الجسيم، الذى يدهم الأمة الاسلامية من باب مصر الشمالى.

وإذا تقاعس الملوك، فان شعب مصر بجميع طوائفه بادر بالتطوع، أما بالرجال، أو المال، أو الجهد الجهيد.

الحرب تخللتها الحماسة الدينية من الطرفين وإن كان الملك لويس الذى رغب فى تثبيت لقب (القديس) قد أتى بعرشه الذهبى إلى دمياط مع خيرة فرسانه، وأمرائه وجنوده، ومن لف لفهم، فإن القوتين

كانتا من الضخامة والضحيج المحصور في مساحة تقع بين دمياط وفارسكور، صارت ميدانا للقتال اليومي من كروفّر.. وقد بدا الأمر في شكل شد وجذب، يحتاج إلى النفس الطويل، والحنكة في إدارة المعارك، مع شيء من الجرأة، والمغامرة، وشيء من الحرص وعدم التهور!

وعلى عادة القادة من السلف، تقدم الملك الصالح ممالئكه، فجاءت معه جماعات من العامة، الحرفيين والتجار والشيوخ.. وعشرات الألوف من المجاهدين وشيوخهم. تطوعوا للمساهمة في هذه الحرب.. كسبا لثواب الجهاد في سبيل الله والوطن. والحرب طالت أيامها ولياليها.. وأخبار معاركها كانت تنتقل خلال المعسكرين الكبيرين. وأحداثها تترجج بالمزاج الشعبي الديني، فإن كان الملك لويس هو [القديس] فإن الملك الصالح نجم الدين أيوب. هو [القطب].

وإذا كان بطل الفرنجة المغوار هو "الملك الصليبي رايدا فرانس" - الذي أعده الملك لويس ليحكم مصر، فإن الذي جندله وقتله بسيفه ورفع رأسه على سن الحربة.. هو "الأمير بييرس" ..

" ومن هو الأمير بييرس يا جماعة؟! " !
انه واحد من شجعان الأمير فارس الدين إقطاي. والحديث عن معركة القصر في فارسكور. ماقتاً يتفاقم، حتى أمكنه أن يغطي على أسر الملك لويس نفسه.. والتحفظ عليه في دار "ابن لقمان

بالمنصورة". الحديث عن شجاع من شجعان إقطاي، يدفع دائما بالأمير " فارس الدين إقطاي" إلى المقدمة، ويأتي بالأمرء القدامى من بعده. هؤلاء الذين ساهموا في كسب معركة المنصورة، وانقذوا الأمة الإسلامية من حالة انهيار تام.. كان متوقعا.. ومخططا له..!



هل كان إقطاي يحلم بأن يكون سلطانا على مصر؟! أمام شرعية الحكم، وعدم اثاره أمراء وملوك الأسرة الأيوبية، وقد تركز ثقلهم في الشام. كان تفكير إقطاي في التسلطن على مصر. نوع من الجنون. فالمملوك لا ينسى أنه "عبد" من العبيد، وقع عليه إختيار سيده، بأن يجعل منه محاربا، يموت من أجله، مهمته أن يحفظ لسيدة أمانه، ويسهر لحمايته، فكيف تسول له نفسه أن يفكر في التسلطن؟

الباب مسدود بثوابت العصر!

ومن ذا الذي سيقبل ذلك من مملوك ويعترف به، بأن يتبوأ عرش دولة إسلامية؟ وللحاكم المسلم شروط.. تكسبه المبايعة.. لا تنطبق على المماليك الأرقاء..

والترك الذين خدموا في الدولة العباسية لم يتجرأوا كعسكر لها، إلا أن يتقلدوا الوزارة والوكالة والنيابة.. وهم أحرار من جنس كانت له إنتصاراته في العديد من الدول التي اسقطها واقامها المغول والنتنر. اقصى ما كان يحلم به أمراء المماليك عموما.. أن يخرجوا من الأزمة التي وضعهم فيها الملك المعظم

تورنشاہ ابن الملك الصالح .. المتوفى .. خروجيا سالما .
أما تلك "المغامرة" أن يكتب لها النجاح .. ويمكن لهم
إزاحة تورنشاہ، وأن يتسلطن على مصر - طفل
أيوبى - يكون أحدهم اتابكا له [وصيا]، ومن خلاله تمتد
أيام الأمراء المماليك بعد وفاة سيدهم أثناء سير معارك
المنصورة .. تلك الوفاة التى قد تفقدهم الكثير . تنقلهم من
أمراء حاكمين .. إلى قرانيص محكومين . وهى فكرة
ليست جديدة - بل أن لها أصل فى تاريخ الدولة
الفاطمية .. وصلاح الدين الأيووبى - لم يصعد إلى
الوزارة، إلا "كاتابك" لصبى من صبيان الدولة
الفاطمية، أزاحة بعد حين، وأسس على انقاضه عرش
الدولة الأيوبية. تلك كانت أقصى الأمانى . ومع ذلك لاح
لإقطاي أن هناك من يستطيع أن يجمع فى يده أكثر من
أمير قوى من أمراء المماليك المتنازعين . على أن
يحتفظ كل أمير بخاصته وخصوصيته .. وما وصل إليه
من مزايا . أنها السلطنة "شجر الدر"
و حمد الله أنها امرأة وليست رجلا ..

ولعل إتفاق أمراء المماليك الصالحية على
ترأسها لإجتماعاتهم، جاء عندما كانت أنفاس هينة
تتلاحق فى صدر الملك الصالح .. أما الملك الصالح
قد مات، فإن الإتفاق على أن تجالسهم امرأة، وتترأس
اجتماعاتهم، جاء من أن "شجر الدر" صرحت بأن لديها
معظم أسرار الملك الصالح . وعجلة الحرب كانت
تدور بشدة لم تمهل الملك أن يدون وصيته أمام جماعة
العلماء والشيوخ . إذ كان الملك الصالح يشحن كل قواه

امواجهه كارثة الحملة التي دهمت بسلاذه، واحتلت
جزءاً عزيزاً منها، وكان يظن أن المرض قد يسزول
عنه ويستعيد عافيته..

•••

منذ أن نقلت له شجر الدر بطولة بيبرس قائد
ممالك القصر أثناء المعركة التي دارت حول القصر
لاقتحامه.. اعتر الملك الصالح ببطولة بيبرس وتخيل
لو أن فرسان الملك لويس فازوا في تلك المعركة
واقحموا عيباته، فإن وصولهم إلى قصره في
فارسكور.. يعنى أنهم عبروا على جيش أربعين ألف
من ممالكة.. وشجر الدر تحاول أن تخفف عن نفس
الملك.. وتبعد عنه شبح الهزيمة. سارع وأداسى لها
بأخر أسرارها.. منحها (الأمارات) والعلامات التي
تستعيد بها الأموال من الأمان.. كما أنه أوحى بأن لا
ينقل العرش الأيوبي في القلعة إلى أخوته بالشام.
هؤلاء الذين خذلوه ولم يرسلوا بقواتهم لمعاونته متعالمين
بتجاوزهم لجاحفل من المغول، وأنهم هناك، مههدون
باجتياح أراضيهم، ورأى برغم أنه كان لا يزال غاضباً
على ولده تورنشاه.. سرعة إرسال من يستدعيه حتى
يوصيه خيراً بزوجه الحبيبة "شجر الدر" وبأمراء
ممالك الذين يجاهدون في سبيل الله، ورفعته شأن
الإسلام، وحمائته من سلطة المستبدين الذين لا يتفهمون
جوهره.

•••

كان كل ما يهم شجر الدر.. التى بادرت وأرسلت بالرسل الفصحاء من العلماء إلى تورنشاه، لكي يزيلوا من نفسه الغضب، ويصلوا. معه إلى تعهدات قبل أن يأتى ويسمع من والده "كيف يعامل شجر الدر كملكة تستحق كل تقدير".

وقد قامت شجر الدر بعد إرسال الرسل إلى قلعة كيفا بديار بكر بتجهيز الشهود من أرباب الساجيد، والعلماء، ليشهدوا لقاء تورنشاه كأمر بالملك والده.. قبل أن يصعد الأمير إلى عرش مصر. ويتحول إلى ملك. ليعمل بمقتضى الوصية.

لكن الملك الصالح مات، واضطرت شجر الدر بأن تكشف الأمر للأمراء المماليك الكبار، ويوافق الجميع على إخفاء هذا الأمر الجلل الذى يفت فى عضد المماليك المحاربة. ويثير فى نفوسهم كثيرا من الأطماع.. بل قد يبدل كثيرا من النفوس فتقلب الأوضاع فى الميدان رأسا على عقب.



فى ذلك الوقت عمل إقطاي مع شجر الدر على اصدار قرار سلطانى- والأختام بيدها- لصالح بيبرس لترقيته إلى أمير ركن، وهما يعلمان صعوبة تقلده لمزايا هذه الترقية بالفعل.

"هل كانا يعدانه للمهمة الصعبة؟!"

يلوحون له بمزاياه كأمر ركن مقابل تلك المهمة الثقيلة.. أن يضع خطة لتخليصهم من تورنشاه الذى بات يترصد الجميع؟!

بيبرس منذ صباه كان يحلم بمعركة يخرج منها منتصرا فيكافأ بالإمارة والأقطعية. ودون كل الأمرء القدامى والجدد، دفعت الأقدار إليه بالملك الصليبي "رايدا فرانس" ليصل إلى عتبات القصر السلطاني ويتحداه.. وجد نفسه مضطرا في خضم هذه المعركة بأن يلقي بنفسه "يا قاتل يا مقتول". فاذا بالحظ يواتيه ويخرج من الخطر الذي دهمه.. "هو القاتل".
والرواة صنعوا من معركة القصر الجانيبة..

حواديتا وحكايات، يروونها ويضيفون عليها كثيرا من رموز واساطير المزاج الشعبي.. يخلو لبعضهم أن يلقيها تشخيصا وتجسيما مع اضعاف التفاصيل المثيرة، فتمتلئ لياليمم بالإثارة. وهم يشاهدون بيبرس يجندل امرء وملوك الحملة الصليبية فيضاعفون أحزان الملك لويس حتى يفقد عقله ويقع أسيرا.. إذ أنه يهيم في البرارى، فيقبضون عليه ويحتجزونه في دار ابن لقمان. فمن يعتدى على دار الاسلام لابد وأنه مجنون أو في الطريق إلى الجنون!

والناس في تلك الفترة الذي يتعرضون فيها للاخطار الخارجية يسعون إلى تضخيم البطولة. والفنان الشعبي يجسم بيبرس في دور الفارس الذي يواجه الشر ممثلا في الملك "رايدا الصليبي" ولا بد وأن الفارس المسلم يتخلق بكل الحسنات والمكرمات، والشرير في المقابل، يتمسك بكل السيئات والسفالات، في تحديد قاطع مبالغ فيه!

ولما استدار الملك الصليبي ليهرب من سيف
بيبرس، لحق به واعترضه، حاول أن يفلت من
المواجهة لكن بيبرس كان يصيح "الله اكبر" فإذا
بالرعب يشل قدرات الصليبيين فتجمد خيولهم فى
أماكنها.. والهلع يغزو قلب الملك رايدا فيسقط السيف
من يده "الله اكبر" هذه الصيحة التى شتتت جحافل
الغزاه الصليبيين- ياجماعه- وجعلتهم يلوزون بالفرار.
ومن لحق به "بيبرس" كان يجندله ويسقطه من فوق
حصانه ليداس تحت الاقدام]

والناس تصرخ فى انفعال: الله اكبر.. الله اكبر
يا بيبرس- ويرفع الرواة من حرارة الرواية-
ويظهرون كيف أن الشرق الأمن المسالم إذا ما أُنشِر
بالظلم.. انتقض كمارد عملاق، وكيف أن الغرب
الشرير.. يزعج الأمنين فى ديارهم.. ويأتى بالطمع
فى ركابه..

لذا كان بيبرس يحارب فى قوة عنتره
العيسى، ويفكر فى براعة ابن العاص، ويلقى بالمحكمة
وكأنه عمر بن الخطاب].

فلما انهزم الملك الصليبي ياخلى ياهووه، ونزل سيف
بيبرس البتار على ذراعه.. قطعه ومزق زرده. هنا
جحظت عينا الملك الصليبي هلعا. وعيوننه الزرق
كانت تتوسل "ارحمنى ايها الأمير المسلم الشجاع"
ورفع فى وجه بيبرس بكف ذراعه الأخرى ليشهد فى
أصبعه [خاتم الملك] وبأنه يستطيع أن يفدى نفسه
بالمال الكثير والذهب الوفير...

لكن البطل بيبرس كان قد جعل باب القصر السلطاني في ظهره.. وصاح صيحته التي تزلزل كيانهم "الله اكبر، وشهد بأن لاله إلا الله وأن محمداً رسول الله" ونزل بسيفه الحق على رقبة الباطل فاطاح بها.. وجاء من رفع رأس الملك الصليبي على سن الرمح ليشاهد رأسه الطغاه..، ومن بقي من فرسانهم.. كيف ينهزم الباطل أمام الحق. وكيف يكون مصير المعتدين على ديار الاسلام التي يحميها الله سبحانه وتعالى.].

والجمهور الذي يستمع يتمايل نشوه واستحسانا. والرواة جعلوا من فرسان الملك رايدا فرانس منات الألوف، بينما جعلوا من القوات التي تتصدى لهم فى معركة القصر تتناقص إلى قلة قليلة شجاعة، حتى تتجسم البطولة تحديدا فى البطل المغوار "الأمير بيبرس" وحده.!



ولعل الأمراء القدامى إذا ما استمعوا إلى ما يرويه الرواة حول البطولة التي يستأثر بها بيبرس فى معركة القصر، أيقنوا بأن أتباع الأمير القوى "قارس الدين إقطاي" من جمهور الأهالى هم الذين يضيفون كثيرا من الأخيطة على الرواية كما يضيف عليهم إقطاي حمايته.. جاءوا ليثبتوا له بأن تأثيرهم على العامة من نفس تأثيره على أمراء المماليك. وقد دأبوا وهم يرفعون من قدر "قائد مماليكه بيبرس" أن يتوقف الراوى- فيها الجميع- ويبدأ فى تأكيد أن المغوار بيبرس ما هو إلا

أمير من أمراء "فارس الدين إقطاي" .. فاذا كان الأمير
هكذا شجاعا، فما حال أمير الأمراء يا أخوان؟
فينظر الجميع إلى فارس الدين إقطاي .. بكثير
من الإجلال والإحترام ..

محفوف ذلك الإحترام بشئ من الرهبة
والخوف الذى يتسلل حثيثا إلى النفوس، وهم يرون ذلك
الأمير القوى الغامض .. قابضا على مصائرهم
وأرواحهم.



(١١)

الشمس والقمر

□ الأحداث الكبرى تطوى صفحات، وتأتي بصفحات جديدة.. فى الملمات تكون الأجواء مهينة لولادة أبطال جدد على الساحة، فإذا كان "فارس الدين إقطاي" وهو أقوى أمراء الملك الصالح من المماليك قد سمح بأن يعلو صيت الأمير بيبرس بطل معركة القصر الجانبية على صيته - وثمة بطولات عديدة فى معركة المنصورة التى أوقفت الملك لويس بقواته الضخمة فى دمياط، ثم بدأت فى حصاره، والقضاء عليه - فهناك أمراء كبار فى حجم فارس الدين إقطاي من أمثال عز الدين أيبك وسيف الدين سنقر الرومى، وشمس الدين بلبان الرشيدي.. لعل ذلك حدث بتخطيط ذكى، ليكون "إقطاي" فى مكان كالشمس، وبيبرس فى مكان كالقمر.. لا يشع بيبرس بالضياء إلا لأنه إنعكاساً لأشعة شمس "فارس الدين إقطاي" ..



ولما كان لكل أمير ركنٌ من كبار أمراء المماليك، حزبه عند "العامة" - يصفون عليه حمايتهم، ويستمدون منهم صيغتهم وقوتهم - أمام السلطان - فإن التوصية بأن يتحدث العامة عن أهمية "معركة القصر" التى أحدثت التحولات الخطيرة.. مما أدى إلى هزيمة

الصليبيين وتسليمهم ورحيلهم.. وكان النصر منذ البداية إلى النهاية، كان من صنع الفريق الذى يترأسه إقطاى.. فى وقت كان يعلم فيه، كبار أمراء المماليك على الأقل، بوقاة الملك الصالح اثناء سير العمليات الحربية.

مما جعل الأمير عز الدين أيبك يرى، خطورة ذلك على مركزه كأمر منافس لفارس الدين إقطاى، فأوعز لشيوخه ومن يدورون فى فلكه من "الأهالى" إلى الإشادة بجسارة قائد مماليكه "قطز". وكيف أنه كان يفتح الثغرات، ويقوم بالمهام الصعبة، وينهش فى قوات العدو.. فى جراءة الأبطال الصناديد.

لكن انعكاس صورة الأمير عز الدين أيبك كأمر يحفظ كثيرا من الأحاديث النبوية، ويميل إلى التشبه بالمتصوفة، ويحاول أن يستشهد فى أحاديثه بأبيات من الشعر العربى.. جعل المماليك الذين تقولوا فى قالب المحارب الذى ليس له قلب. يرونه كسلزهرى متفقه، وصاحب حديث. وأمثاله يميلون إلى السلم، ويترددون كثيرا فى اتخاذ القرارات العاجلة بجسارة المغامر.

الأمر الذى انعكس على مماليكه وعلى قطز بالذات، الذى تمادى فى الخيال فتصور نفسه من أبناء "الدولة الخوارزمية" المنهارة أمام هجمات التتار.. حاول أن يبدو فى مسلكه المعتاد بعيدا عن مسلك القتال كمثال لاستاذة عز الدين أيبك. هادئ الطبع، يأخذ الأمور بالتعقل والبحث ويدير المسراع بعد.

تفكير.. تلك المسائل لا يؤدي ترويحها في وقت الحروب إلى تحقيق "دعاية وصيت" لحزب عز الدين أيبك. وقد تأتي تلك الخصال بعكس ما يدعى. بل أن التركيز عليها. يرفع من قدر "الأمير فارس الدين إقطاي".. وقائد مماليكه "بيبرس" وكلاهما.. يتعاملا مع أعداء الإسلام بالشدّة والحسم، بل بالضرورة الراجبة في الجهاد..

لذلك كان لإقطاي وبيبرس شهرة في حواديث الناس، وروايات الرواة أثناء احتدام المعارك في المنصورة.

أما إذا استتبت الأوضاع بالصلح، وترقنت الصدامات بين المتحاربين، وشرع الصليبيون طبقاً لاتفاقيات التسليم في مغادرة أرض المحروسة، فإن دور "عز الدين أيبك" العاقل الرزين، وقائد مماليكه قطن.. الأمير الحصيف الذي ألقت به المقادير ليكون مملوكاً.. يبدأ في الانتشار، وينشط أيبك بين العامة في أن يتألولها بالميزان الحساس الذي يزن بالعقل والمنطق خلفيات الأحداث، فيكون لكل مقام مقال، ويعلو صيت عز الدين أيبك على صيت إقطاي.

•••

.. المماليك في قلاعهم وبرايمهم خلال أوقات السلم الطويلة.. يتدربون على القتال بدون استخدام الأسلحة الحقيقية.. يستعوضون عن الأسلحة بالنبايب؛ وقد لا تنتظم التدريبات.. والقتال بين الزملاء يتمويه "التمثيل والتشخيص" والاتفاق على من يكون الغالب

والمغلوب فى كل جولة.. وإذا ما ابتعدت الأجسام عن الإصابات الحقيقية التى يعترىها الألم.. والدماء الحقيقية التى تنبثق حارة ومتخثرة.. قد تستعيد تلك الأبدان طبيعتها المسالمة التى خلقت عليها.. والشجاعة الخارقة التى تتبدى فى الحروب التى تجئ مفاجئة.. قد تخون البعض ويحل محلها الجبن.. وقد تنفجر عند بعض من كان ينظر اليهم على أنهم مسالمون طيبون بطولات خارقة لم تكن متوقعة.

والأمر يصير مرتها بأمر خاص يكمن فى طبيعة الذى يواجه الحدث الأكبر، ومدى رباطة جأشه، عندما يكون الموت هو المعادل لاستخدام العقل، والركون إلى الطبيعة الإنسانية المسالمة.. يفرض على الشخص خياران لا ثالث لهما، أن يكون "قاتلا أو مقتولا" ..

•••

بيرس وهو يواجه الموت فى معركة القصر لم يشاهده موتا يريحه.. بل شاهد موتا مكللا بالعار، وسقوط للملك وحرime وأمواله وأسلحته فى يد الصليبيين.. ومع الخوف الشديد- لعل هذا الخوف كان أحد أسلحته- قام بتطبيق نفس الخطة. أضرب القلب ليتداعى باقى الجسم، وقد فعلها وهو مرعوب.. ولما أسقط الملك الصليبي رايدا فرانس عن فرسه، ووضع على عنقه سيفه. رآه يظهر له خاتم الملك على اساس أن رأسه يساوى كومة من الذهب. وأسرره يخفف ضغطا.. ويحقق نصرا.. لكن بيرس كان يرى أن قوات الملك رايدا التى اخترقت الحصار، وقطعت تلك

المسافة الطويلة بين دمياط وفارسكور دون مقاومة..
تمثل خطرا قائما.. على قواته قليلة العدد، وأنه لا بد
وأن يوقع الرعب في قلوبهم. كعادة المغول يجعلون
من أعدائهم دروعا ومن رؤوسهم اكواما ليصيبوا ابناء
جلدتهم بالهلع.

قام بيبرس بدافع ذلك الخوف.. بذبح الملك
الصلبيي. فاذا به في لحظة ينتقل من حال المدافع إلى
المهاجم، ومن حال الإحساس بالهزيمة، إلى حال
النصر والبطولة.. لا يكاد يصدق أنه يتجسرو برأسه.
ويتحول إلى "الفارس المغوار" الذي أنقذ "القلب" من
طعنة محققة.. يستحق من أجلها أن يرفع إلى مصاف
الأمرء الكبار.. بقرار سلطاني.. فتح شهيته، ورفع
من أماله، وجعله يخلق في أجواء الإمارة والنفوذ..
لكن الموت الذي رفعه بقتل الملك الصليبي. هو نفسه
الموت، الذي أخذ الملك الصالح.. فلم يتحقق له من
أمال داعبته شيئا.. إلا أنهم يسامونه الآن.. لقتل الملك
المعظم تورنشا.. وهو يكاد يرى مصيره "يقتل الملك
المعظم سليل البيت الأيوبي المجاهد.. فيقتلونه.. وربما
قام بقتله الأمرء المماليك الكبار.. ليكون فدوة لهم..
وعلى جثمانه يعبرون أزمتهم..!



الخيطة الرفيع بين التوفيق وعدم التوفيق خلال
أحداث كبرى لا عقل لها.. يكون محفوقا بكثير من
"الخط" وبيبرس الذي ارتفع صيته خلال أيام معركة
المنصورة. كان يتقبل التهاني، وفي نفس الوقت كان

بداخل بذته العسكرية، يرتعد.. أما وقد حطت الحرب
أوزارها.. فقد وقع عليه الإختيار.. بأن تستمر حربته
قائمة، حتى يتم اختفاء الملك المعظم تورنشااه عن
مسرح الأحداث.. لعل بيبرس هو الأمير الوحيد الذى
استخدم سيفه الخاص فى القتل والذبح.. والدماء التى
انبثقت افترنت بنظرات السهلع والصرخات.. ومن
قطعت رأسه.. كان يتحرك أمامه جسما بدون رأس..
ومن طعنه فى قلبه كان يتهاوى ليسجد على الأرض
وكانه يصلى صلاة الوداع على طريقته من جاء
ليقهرهم.. والدماء التى غطت سيف بيبرس وملابسه..
ألمته.. فلم يعد يدري، أهى دماء اصابة لحقت به؟. أم
هى دماء من جندهم؟. وفى تلك الحالة تجتاح المقاتل
مشاعر مؤلمه، تأتى على توازناته، تفسد ضماماته..
فيكثر من الطعام والشراب، ويكثر من لقاء الجسم
بالجسم.. يحاول أن يستعيد أيامه التى ولت. فلا تأتیه
الإ أيام مشحونه بالقلق والتوتر. وقد يتخيل أحداثا لا
يستطيع أن يتنبأ بنهايتها.. فى تلك الحالة.. يحدث
الندشين للنوايا الحسنة.. والركون إلى الدعة.. فأن
بيبرس الذى كان قبيل معركة القصر.. ليس هو الذى
يأتى بعد معركة القصر!

•••

أما وقد وصل إلى مصاف الأبطال، فهو قد
يبعد مسافة ليتأمل هذا البطل.. الذى يتناوله الرواة
بالحكايات.. يجعلوا من معركته اليائسة بداية النهاية
لهزيمة كبرى لحقت بجحافل الملك لويس التى تم

تعينتها بالكرهية المسلمين.. لقد صوروا لهم المسلمون
على أنهم الذئاب الغبراء والتعالب الماكرة.. وأن قتلهم
وسحقهم يكون تقربا لسماء المسيح الإله..

ولا أحد بدري بأن بيبرس قد خرج من بذته
العسكرية وتركها لشخص آخر يحلو لحزب إقطاي
الأهلي أن يتصورونه ويتلقونه.. وأن بيبرس الذي
ابتعد ليتأمل ما يجري، صار أميل إلى الأمير عز الدين
أيك.. بل صار يتقرب إلى "قطز".. يرفعه إلى درجة
عالية في نفسه.. يتمنى أن يكون في وداعته، يتمنى
أن يكون مكانه، هاديء النفس مثله.



الأمير سنقر الرومي.. والأمير بلبان الرشيدى
كلاهما أمراء كبار.. دأبا بأن باتيا بقدادة مماليكهما،
أسوة بما يفعله عز الدين أيك - وفارس الدين إقطاي -
إلى الاجتماعات الكبرى وقد لجأ الأمير سنقر والأمير
بلبان إلى الإشادة بما جاء به "بيبرس" فى مغزاة
مقصود منها إثارة "فارس الدين إقطاي" وهما يدركان
أن ردة الفعل الغاضبة من إقطاي ستأتى سريعة.. فى
تحية بيبرس عن مجلس الكبار، أو الزج به فى كمين
ليرتاح منه ويريحهما.. كلما تعمد سنقر الرومي وبلبان
الرشيدى الإشادة ببيبرس. سارع بيبرس وقلل من شأن
ما أتاه فى معركة القصر. وأضاف بأن "لولا النجدة
التي أرسلها لى الأمير إقطاي.. ما حققت شيئا
ذوبال.. حتى لا يثير حفيظة أميره الكتوم!

لكن بيبرس كلما هون من دوره.. تمادى
الأمراء فى تجسيم هذا الدور والأرتفاع به.. عندها،
يكاد يشاهد الدخان يخرج من أنف وفم إقطاى..
الدماء تتجمع حمراء فى عينيه الملونة وعصبيته
تزداد وهو يداعب لحيته الحمراء، يضغط على
مقبض سيفه.. هنا يشعر بيبرس بدنو النهاية التى لأبد
وأنها ستأتى من حيث لا يحتسب.

وأحاساس بأن معركة المنصورة حطت أوزارها
فوق كاهله، تغور فى نفس بيبرس.. يتضاعف بأن عليه
أن يخلصهم من الملك المعظم تورنشا.. ثم يلتفتون
نحوه ويشيرون

"ها هو قاتل الملوك.. إقتلوه.."

ذلك المشهد بات يراه فى صحوه ومنامه. "لماذا
لا يفعل عكس ما يبغيه هؤلاء الأمراء الذين لن يفسحوا
له مكانا بينهم بسهولة.. يذهب إلى الملك المعظم،
ويوضح عنده مؤامراتهم ضده. ويرسم له خطة التتكيل،
بهم.. ويطلب منه أن يتحصن بقلعته فى القاهرة..
ويحصل عليهم فرادى.."

وإذا ما قضى عليهم، لن يكون إلاه بجانبه..
كبيرا لأمراء سلطنته.. ووارثا لوظائفهم وإقطاعاتهم..
فهو مع الملك المعظم سيكون مع الشرعية، خادما أميننا
لأل أيوب، ولهم نفوذهم الكبير من مصر إلى الشام
ولهم تاريخهم الموقر عند العامة والخاصة!!

(١٢)

الوسائل والغايات

□ "الوسائل تبرر الغايات" فى مؤامرة المماليك الصالحية ضد وارثهم.

فقد دجبت الرسائل باستدعاء الملك المعظم تورنشاه وأرسلتها "شجر الدر" مع رسول من كتابها، وجعلت من جملة المرافقين، ثلاثة من كبار العلماء، حتى يعملوا لإقناع الملك الشاب بأن "يتفضل" ويسارع ويأتى إلى قصر السلطان فى فارسكور.. ليتثنى له حضور آخر المفاوضات مع الملك "لويس الاسير" بشأن التسليم والفدية، ورحيل حملته عن دمياط.. ثم يكذوا عليه..

"ولتسلم يدك الكريمة" الفدية" التى سيفتدى بها الملك لويس نفسه.."

وأوصت "شجر الدر" الرسل، بأن يحاط "الملك" بما فعلته، وبما قام به أمراء المماليك الصالحية من إنجازات أدت لتحقيق النصر المؤزر فى معركة المنصورة. وأنهم جميعا فى انتظار قدومه الميمون ليتسلم "مفاتيح خزائن" والده، وجملة القرارات المبسوومة بخاتمه، بضرورة صرف مكافأة لأمرء المماليك الذين أبلوا بلاءا حسنا خلال أحداث الغزو الصليبي.. فكتب الله للمسلمين النصر!!

كان على الرسل أن يحثوا الملك الشاب على عدم الإبطاء في "القاهرة" وضرورة حضوره إلى (أرض الحرب) التي لها الأولوية على (أرض السلم) حتى يكون له النصيب في الجهاد الأعظم الذي كان لوالده الملك الصالح "المجاهد الكبير" الذي يشبهه بالمجاهد الأكبر جده "صلاح الدين".

كما سيعمل الرسل على إظهار أعمال أمراء المماليك وطاعتهم له، ويوصون بأن في إمكانه وحالة جيوشه المنتصرة، عالية؛ أن يقودهم ويمد نفوذه كخليفة لملك منتصر مات في ميدان القتال وهو يجاهد الفرنجة- أن يمد نفوذه على دمشق وحلب- والجميع يصبحون قوة يفكر اعداؤها عشرات المرات قبل أن يتجرأوا ويتصاموا معها..



كان الأمير تورنشاہ "شبه منفي" في حصن كيفا بديار بكر- على الحدود الشامية الشرقية- لجفوة بينه وبين والده، وخلافات تفاقمت اذا ما رفع والده من شأن إحدى جوارية الكرديات، وتزوج منها لتصير بجانبه في موقع الصدارة من حريمه. وملازمة له في حياته، وهو الشيخ الذي وهن. وبات تورنشاہ يخشى أن تأتيه "شجر الدر" بالولد الذي يتم اختياره خليفة للملك على عرش مصر.. وهو ما اعتادت أن تقوم به الجوارى في الدولة الفاطمية، حتى ضعف شأنها وزالت على يد جده الأكبر صلاح الدين. وجاء لها خليل لكنه مات

والمك الصالح . كان يرى فى تصرفات: ابنه
شينا من التهور، وكثيرا من نرق الشباب المدلل، وأن
ابنه أعطى اذنه لأعمامه فى الشام يحرضونه عليه
حتى يزيحه عن العرش.

اراد الملك الصالح- الذى اعتمد على
مماليكه- كأمرء، وفرق، تدافع عن عرشه ومصالحه.
أن تودب قلعة كيفا البعيدة ذلك الولد المدلل، وتجعله
صالحا لحكم مصر من بعده..

•••

تورنشاه عندما تم استدعاؤه من قلعة كيفا
ذهب إليه الرسل يحثونه على سرعة الذهاب الى
المنصورة طبقا لإتفاق أن تظل "شجر الدر" متمتع
بمركزها كسلطانة، وأرملة والده المتوفى، والأمراء
القدامى يقر لهم بما بين أياديهم من مقرات ومزايا..
بحكم أنهم جاهدوا وانتصروا على حملة الفرنجه
الغازية، وعليه أن ينفذ القرارات المبصومة بخاتم
الملك الراحل..

•••

لكن الملك الشاب، خالف الشروط وانعطف
على أعمامه فزودوه بجملة من المماليك فى حدود
الثلاثة آلاف.. ونصح أمراءه بأن يتوجه إلى قلعة
الجبلى بالقاهرة، ويعلن نفسه ملكا.. ثم استدعى أمراء
ممالك والده ليحاسبهم على الأموال التى بين أيديهم
والفديات التى حصلوا عليها من الصليبيين.. وتلك

الاتفاقيات المتساهلة التي أضرت بالبلاد.. وكان على
المماليك عدم ابرام أى شئ إلا بعد حضوره..

•••

أما وقد حضر تورنشاه إلى قصره بقلعة الجبل
فى رهط من شيوخ الشام، بينهم الشعراء والمداحين
والمستشارين.. ومنهم من كلف من قبل أعمامه
بالالتحاق بحاشيه الملك الشاب- كعيون عليه- يعملون
على استمرار إستمالاته إليهم.

•••

فقد صوراً له بأن أمراء ممالك والده، ما هم
إلا عبيد- ورثهم- فلا يحق لهم طبقاً للقانون المتعارف
عليه إلا أن يتحولوا إلى "ممالك قرانيص" ليس لهم
مشورة فى دولته.. وأنه يجب أن يعاقبهم على
تجرائم التي ارتكبوها فى حقه، إذ كيف سولت لهم
تفويضهم بأن يمارسوا "الحكم" واصدار القرارات
السلطانية اثناء معركة المنصورة. والملك الصالح توفاه
الله.. متعللين بالمعارك مع الفرنجة- هذه واحدة- أما
الجريمة الأعظم هو إرغام الملك الصالح- وهو شيخ
مريض لين العريكة- بأن ينقل عرشه بما يحتويه من
مال واسلحة وعتاد الى ساحة المعركة.. تسقط مدينة
دمياط فينشأ قبالتها مدينة أخرى.. فى قلبها المعسكر
الأيوبي بفارسكور.. يضم القصر السلطاني.. وما فى
ذلك من خطر جسيم على عرش الأيوبيين الذى كان
لابد وأن يبتعد كثيراً عن ميدان المعركة. فاذا هجم
الملك لويس حتى على القاهرة.. يمكنه أن يفر إلى

النشام لتستمر المعركة، طالما كان العرش الأيوبي فى
مامن، أما أن يتقدم العرش بداخل القصر إلى ميدان
المواجهة، فإن ذلك لا بد وقد حدث من "الجارية
التركية" وزملائها من المماليك الكبار..

•••

والملك المعظم تورنشاہ لا يزال شابا يعطى
أذنه لمن يوسعون الشقة بينه وبين ممالك والده.. الذى
وقع عليهم عبء الحرب والجهاد فى المنصورة
ودمياط.. حتى كتب لهم الله النصر.. ووقع ملك
الفرنجة "لويس القديس أسيرا".. وهذه كرامة من
كرامات الملك الصالح "القطب" الذى ظهرت بركاته..
حتى وهو ميت!

•••

وفىما يبدو كانت ذكة الحكم واسعة على مقعدة
الملك الشاب الذى لا يستقر على حال.. الذين
يحيطون به ركبا رأسه وتسلموا أذنه يملأونه باللغو
والأسئلة الملغزة، يصورون له بأن ما يحدث من أمراء
المماليك الصالحة ما هو إلا نوع من الدعاية
والمبالغة.. فهم فى حربهم ضد الصليبيين صنعوا من
"الحنة قبة" مهونين مما حدث فى المنصورة من معارك
على أساس أن هذا ليس بأعظم أحداث التاريخ، ويجب
أن لا يعلو شئ على ما قام به جده المجاهد الأكبر
الذى تغلب على عدد من ملوك أوروبا. جاءوا متحالفين
وبصحبتهم جيوشهم الجرارة، بينما الملك لويس جاء
وحده!

وأى ملك هذا الذى يقع فى الأسر.. إلا أن يكون ملك يحارب بشرزمة من المتعصبين. وقالوا:
 "لقد تمادى أمراء المماليك ومعهم الجارية "شجر الدر" وتجاوزوا الحدود.. إذ يقرون برحيل الملك لويس بمهامته الحربية التى تملأ دمياط، وهذا كله كلن لا بد وأن يصير غنيمة للمسلمين.. و..
 "ووقع الشقاق بين الملك الشاب.. وأمراء والده من كبار المماليك، وهو منذ البداية كان يرى فى "شجر الدر" .. شيطانة استغلت جمالها لتفوز بقلب والده الشيخ وتطرده منه!!



والناس أمسهوا فى بلبلة، ومجالس العامة صارت تخوض فيما هو شرعى، وفيما هو غير شرعى.. يناقشون ما هو متوارث وما هو محدث، بسبب ظروف الحرب.. وذلك النصر الذى يرتب حقوقا جديدة لأمراء المماليك.. وأثير موضوع الفدية لأطلاق سراح ملك اجنبى. هذه الفدية الكبيرة تعنى أن الأمراء المماليك تواطأوا مع ملك الصليبيين ليعود الى بلاده مع سفنه وما تبقى من عساكره. وقد صحب توأبيت بها جثث قتلاه من النبلاء.. وهو الملك الصليبي الذى دنس البلاد، كان يجب إزالته هو وجيوشه من الوجود، وسفنه وعتاده غنيمة للسلطان.. وبات الناس يتناقلون- أحاديث مدسوسة- بأن الأمراء المماليك حصلوا على أموال الملك الصالح الذى سلم ذقنه

لزوجته الجميلة الشابة، فاستحوزت على أختامه،
واستصدرت القرارات السلطانية بأسمه..



لقد تم الخلط بين ما هو حقيقى وما هو مزيف
ولم يكن أمام الملك الشاب تورنشاه* وهو منذ البداية
أخذ موقف المعارص الذى يميل إلى التهورين من
انتصار المماليك فى معركة المنصورة إلا أن يتهمهم
بالعمل فى كل الأحوال - لصالح أنفسهم - والمستشارون
المرافقون له يحضونه على سرعة عزل هؤلاء الأمراء
القدامى* وأن يبدأ عهده ملكا مستقلا من كل شئ يتعلق
بقرارات والده الشيخ الذى لم يكن فى كامل طاقته،
وبالتالى فى أنه لم يكن "يعقل" أوضاع كثيرة من حوله.
حتى جعل "عبيده أمراء" واصحاب نفوذ واقطاعيات
وصاروا الآن هم المجاهدون فى سبيل الله. أن كل هذا
يقوى من مركزهم، فلا يأخذك بهم شفقة، ولا تتس أنهم
جزء من تركة..

فماذا انت فاعل يامولاى الملك المعظم بمن
جعلوا القرى والنجوع والبوادي مع المدن القريبة
والبعيدة تحكى وتحاكى بانتصارهم المزعوم؟!!



تمسك الملك المعظم تورنشاه بأن يأتى إليه
أمراء مماليك والده- وهم جزء من تركته- للامتنال
أمامه فى قصره بالقلعة.. فأرسل إليهم الرسل.. لكن
الرسل كانوا يعودون محملين بفروض الطاعة والولاء
والاعتذارات بأن ترك ميدان الحرب.. وقد تجمد كل

شئ حتى يحضر مولانا الملك المعظم.. قد يقرب
انتصار الملك الصالح الراحل إلى هزيمة، وسفن
الأعداء تملأ الميناء، وقد تأتي إليها سفن أخرى محملة
بالممدد والجيوش.. وعليهم اليقظة وعدم ترك الميدان
وعلى الملك المعظم أن يبادر ويأتى إلى "قصره" فى
فارسكور، "وقد أجلسنا إطلاق سراح الملك لويس إلا فى
حضورك يامولانا" ونحن مماليكك وليس لنا أن نبست
فى شئ إلا اذا أمرتنا.. ولعلنا أول من ناشدك سرعة
الحضور، عندما اختار الله "سيدنا" إلى جواره.

•••

لقد انعقد أمراء المماليك الصالحة فى اجتماع
دائم. يتبادلون المشورة، ويتمسكون جميعا بالعمل
كفريق.

قال إقطاى:

- الوقت هو عدونا الأول، وفى كل يوم يمر نهبط
درجة، والملك المعظم يرتفع درجة، فنحن لن نستطيع
أن نبقى على أطراف الدلتا طويلا عقب رحيل قوات
الملك لويس.. وعودة أجناد الحلقة إلى ديوانهم
بالقاهرة، وهم معظم أجنادنا.. اذا عادوا لا نستطيع
تحريرهم، كما اننا لن نستطيع صرف رواتبهم بانتظام.
ويقول أيبك:

- ضرورة طرق الحديد وهو ساخن. اذا تمسك
تورنشاہ بالقلعة. قد نضطر إلى الذهاب إليه طائعين!!
وعندما أدلى الأمراء بدلوهم بين متردد وثائر..
من يتسم بالجرأة ومن يخشى العاقبة.. جاء الدور على

بيبرس ليتكلم. كان قد أدار الحوار بداخله ساخنا
واقطف ما توصل إليه على طريقة إقطاي.. قال:
- لن تنتظر حتى يعود أجناد الحلقة.. فيضربنا بهم.
أرى أن يذهب الوشاة إلى الملك المعظم يبلغونه بأن
أمراء الصالحية منقسمون بين مؤيد لأن يأتوا إلى
قصره بالقلعة كما يريد- وهؤلاء على رأسهم عز الدين
أيك- وفارس الدين إقطاي وشجر الدر. وهناك
أميرين لا يوافقان ويطلبان حضوره إلى فارسكور،
ليقود بنفسه الحرب، ويضع في آخرها نقطه الختام..
أنهما الأميران الأضعف. وكما ترون كلا الفريقين
معه، وذلك سببعت في قلبه الطمأنينة بأن أقوى الأمراء
معه.. ولعل ذلك يجعله يتخلص من آراء مستشاريه
الذين ينصحونه بأن يبقى بالقاهرة.. ويرسل من يقوم
مقامه بتصفية آثار الحملة على دمياط.. وعلى "الوشاة"
أن ينصحونه بأن يخادع الأمراء حتى يمسك بأعنة
الموقف ثم يفعل ما يراه صائبا".

•••

ووجد اقتراح بيبرس موافقة. وتم تكليف الرسل
الذين سيلعبون دورا مزدوجا في اقناع الملك المعظم
بأن يسرع في إنهاء الحرب، وإطلاق سراح "الملك
لويس" واستلام الفدية الكبيرة بنفسه.

ولم يدر الملك المعظم أن الذي يقوم بتقديم
النصح له.. يقدم له الطعم الذي يمكن أن يصطاده به
أمراء المماليك الصالحة. إذ ابغوه بأن اجراءات
الصلح والتسليم ورحيل قوات الفرنجة توقفت. وبعض

الأراء تقترح الاتصال بالملك الناصر فى الشام اذا
تأخر حضورك حتى يتم الأتفاق مع ملك أيوبى . يكون
لوجوده أمام الفرنجه أثره فى عدم التفكير مرة أخرى
فى الهجوم على ديارنا..

•••

وخشى الملك الشاب من أطماع فى عرشه
... وقد اطمأن على طاعة الأميرين الكبيرين
له.. وما هو إلا يوم وليلة حتى شرع الملك المعظم
يعد العدة ليذهب بنفسه من القاهرة إلى المنصورة..
وذنه مشغول بالكيفية التى سينهى بها نفوذ أمراء
المماليك القدامى.. ومن سيولية من أمراء جدد يامن
لهم.. وينام فى حراستهم قرير العين..!!



(١٣)

الصفحة القديمة والجديدة!

□ من القاهرة إلى فارسكور، احتشد الأهالي يحيون ملكهم الشاب، ويترحمون على ملكهم الراحل بالهتافات والدعاء- وأحيانا بالطبل والزمر- إذ أن انتصار الملك الراحل على الفرنجة قد تم وجاء الملك الشاب ليبنى ثمرة جهود البيت الأيوبي. والناس تأمل في عهد جديد من السلم الطويل الممتد.. بعد معركة المنصورة المريرة.

لكن بداخل الهتافات كانت تذكر أسماء أمراء المماليك ومنهم بيبرس.. على أساس أنهم مماليك الملك الصالح الذين انتقلوا كإرث للملك الشاب. فهم الآن من جملة مماليك الملك المعظم تورنشاه.. وبهم ستمتد أيام السلم، ويحفظوا المحروسة من الأخطار والمحن.

•••

والذين يحيطون بالملك الشاب تركوا كل الهتافات، وكلمات الترحيب، التي كان ينظمها ويطلقها مشايخ وقاطنى القرى والنواحي التي يمر بها الموكب الملكى، وأخذوا يبينوا له تلك "الأسماء" التى تراحم اسمه الكريم، وبيّنوا له خطورة أن يكون لهؤلاء المماليك شهرة واسم معروف، كأسىاد لهذه البلاد، خاصة وأن من يذكرونهم بالخير، هم شيوخ أجلاء،

يحملون كلام الله، والعامّة تطيعهم، وما كان يجب أن يهتف الناس باسماء خدمك وعبيدك يامولانا الملك المعظم، وإن نم هذا عن شيء، فإنه ينم عن الحاح الممالك في أن تذهب إليهم في معسكرهم بالمنصورة لتسمع بأذنك كيف يردد الناس حكايات عن بطولاتهم في طول البلاد وعرضها، فيشلون ارادتك في أن تبدأ عهدك، جديدا في كل شيء.



•• كلما أقترّب الموكب الملكي من المنصورة أظهر المستشارون له تأثير أمراء الممالك على الناس، حتى بات الملك المعظم يشعر بأنه يزور "سلطنه" ليست له. أهلها دانوا لإقطاي ونيك وسنقر وبلبان وشجر الدر وذلك البيبرس الذين دبجوا فيه القصائد ومثلوا أمامه مشهدا من بطولته.. انشادا وعزفا على الربابة.. يصور بها الراوى كيف أجتز بيبرس رأس الشرير رايدا فرانس، وكيف أنقذ الملك الصالح وحرّيمه وأمواله وعتاده، وكل ما يحتويه قصر السلطنة في فارسكور. ولعل الملك الشاب بدا في الإعجاب بذلك الشجاع. عندما مال على أذنه من يهس له.

"كان الصواب حليفك يا مولاي - عندما غضبت لنقل "العرش" إلى فارسكور - ها هو الخطر الجسيم، كاد أن يطيح بالعرش الأيوبي. وهم اذا احتلوا القصر.. انفتح الطريق أمامهم إلى القاهرة، ومنها إلى دمشق وحلب، وأمكن لهم قطع شافة "البيت الأيوبي" من على وجه الأرض" .. فعاد الملك الشاب إلى أفكاره، وإلى ما

كان قد تناساه من شكوك، عاد إلى صفحته القديمة التي تتلائم وأهداف من يأملون في المناصب والقيادة كبداية لأمرء الملك الصالح.. أنهم أمرء "الملك المعظم" الذين يسطرون له تلك الصفحة الجديدة الخالية من أى أثر للماضى.. يحوذنها لأنفسهم لكتابة تاريخا بعيدا عن عباءة والده، وخلافاته مع أعمامه وأقاربه فى الشام يأمل أن يكونوا عضده وقوته هناك!.

•••

مع الاستقبال الحافل الذى أعد للملك المعظم فى المنصورة، وقد اصطف الممالك فى بذاتهم الرسمية، وفرشوا له الأرض بالسجاجيد حتى القاعة الكبرى بالقصر.. كان على تورنشاى أن يشعر بالزهو.. لكن الملك الشاب نظر إلى ما يحدث على أنه "نظام" يتم فى غيبته "وكانهم يقولون له بالمحسوس" يا مولاي، نحن لسنا فى حاجة إلى ملك نأتمر بأمره، وكل شئ معد ويسير سيره الطبيعى. وكان الأجدر بالملك أن يطلب من الهامسين فى أذنه أن يكفوا عنه، فقد قلبوا كل شئ يعجب به، ويقربه من المشهد الذى يعيشه، إلى حالة من الزعر. وهو يرى النصر بعينه فيضعه فى خانة الهزيمة، ويرى البطولة فيزيحها إلى حالة من الإدعاء.. ويشاهد الاحتفالات والبهجة والبشر بقدمه فلا يبتهج بها، يظن أن كل شئ أعد لخداعه، وتقوية مركز الأمراء الصالحة!

•••

بادرت شجر الدر وأمرت الكتاب بأن يقدموا لجلالته مالديهم من سجلات، كان المتوقع من أن لا ينشغل بشئ أكثر من عملية إنهاء الحرب والظهور أمام "الملك لويس" لبدء رحيل قواته واستلام الفدية لكن الملك الشاب أخطأ وأمر الكتاب المرافقين ومستشاريه باستلام ما يقدم له وفحصه.. ونظر إلى ما يقدم له باستهانه، فى اعتقاده أن ذلك أقل كثيرا مما يتصور أن مملكة كبيرة مثل مصر تقدمه لملكها الجديد، متناسيا نفقات الحرب الهائلة، التى وقع معظمها على عاتق خزينة والده.

والملك الشاب بهذه التصرفات أزال الحرج من نفوس أمراء المماليك الذين كانوا لا يرتاحون إلى عملية التخلص من الملك الأيوبي، ولا يطمانون بأن عملهم هذا قد يغفر لهم، ويمكن أن الته من نفوس المسلمين الشرفاء!..!



قام "عز الدين أيبك" ليبلغ الملك المعظم بأمر رسل الملك لويس وبأنهم على وشك الوصول بالفدية المقررة، وعليه أن يستقبلهم فى حشد من جنوده وبنظام متبع قد أعد، حتى يوقع فى قلوبهم الرهبة من "قوته" لكن الملك الشاب أثر أن ينشغل بمراجعة ما قدمته السجلات من حسابات لم يكن مقتنعا بها، وتحت إلحاح "الأمراء" بأن يفرغ مما أعدوه- إذ طال انتظار رسل الفرنجة- تلبس الملك بشئ من العظمة، وأخذ يتعامل مع أمراء مماليك والده على أساس أن الكلمة الأولى

والأخيرة تكون له، فلم يجد من الجميع إلا الطاعة والانصياع. ومع ذلك بادر وأعلن في كلمته، "بأنه طبقا للعادات في الدولة، فإن أجلايه من الممالك ستسند لهم الرئاسة في الفرقة المكلفة بحراسة القصر".

ثم أخذ ينظر في وجوه أمراء الممالك الصالحيه، وانفجر ضاحكا، وعاد وأعلن بأنه عندما لم يجد منهم إلا الطاعة. فقد رأى أن يكون الأمير عز الدين أيبك ومماليكه مكلفين ومعينين لفرقة "الحرس السلطاني"، وينضم اليهم جماعة من مماليكه الخاصكية.!

•••

تبادل أمراء الممالك النظرات. فقد ابتلع الملك الشاب الطعم. وهو يظن أن بينهم حزب له وحزب عليه.. ووعد بأنه في نظام دولته الجديد سيبقى الممالك الصالحيه بجانبه.. لكن عليهم افساح مكان لمماليكه، وأشار بأن في ذلك عادات جديدة حدثت نتيجة لما أبداه هؤلاء الممالك من جهاد وطاعة لواده حتى تم كسب معركة المنصورة.

وحياه الجميع على هذا الإعلان.. الذي أوقع أمراء الممالك القدامى في إشكالية.. هل ينفذون ما اتفقوا عليه؟ أن يتم الخلاص من الملك المعظم في أقرب وقت ممكن، وينصب مكانه أمير طفل؟ أم أن ما أعلنه الملك الشاب بالموافقة على كسر العادات، وعدم التخلص من ممالك والده وابعادهم واعتبارهم

قرانيص، قد أتى بجديد يجب أن يوضع على بساط البحث!؟

•••

قبل أن يقوم الملك المعظم بزيارته التفقدية للمعسكر والذهاب إلى دار ابن لقمان، واللقاء مع "الملك لويس"، كان قد قرر أن يعامل "الملك لويس" كملك كريم على وشك الرحيل من بلاده، حتى يزيل من نفسه أثر الأسر والعداوة. ويضرب له مثلاً من أمثال جده صلاح الدين. عندما كان يعامل أعدائه في رفق، وبطيب جراحهم، فيبدل الأفكار عن المسلمين، ويخزل الدعاية المقيتة التي كان يطلقها النبلاء والملوك الصليبيين بغرض حشد الحشود لتحقيق أغراضهم الشخصية. وقد وجد ذلك قبولاً لدى أمراء المماليك القدامى والجدد..

•••

•• لكن عندما قامت شجر الدر بتقديم القرارات المبسوطة بخاتم الملك الصالح، لتنفيذ ما ورد فيها، ما يخصها، وما يخص الأمراء المماليك.. كانت كمن تريد أن تستوثق من نوايا الملك الشاب النهائية، بعد مهادنته لأمراء المماليك القدامى. وقبل أن تفصح له بأسرار الملك الراحل التي في حوزتها، وتلك الودائع التي تعرف وحدها أين يكون مخابها، ومن هو الأمين عليها!..!

لكن الملك الشاب لم يكن حكيماً ويصبر ليشتري كل ما لدى أمراء المماليك الصالحة.. سارع

وشكك في صحة الأختام، وأشار بأن والده عندما مات استمر الأمراء وقتاً يخفون خبر موته، وأشار إلى أن في ذلك الوقت يمكن إصدار القرارات السلطانية، وذلك دون أن ينظر فيما تحويه تلك القرارات أو يؤجل النظر فيها بعد الإنتهاء مما هم فيه. وعودتهم جميعاً إلى قصره بالقلعة.. كان ذلك التسارع يمثل غياباً ظاهراً من الملك الشاب وقال:

- علمت أن الملك الوالد كان قد مات، والشاهد أنه وصل إلى المنصورة شديد الوهن والمرض.. وأختم الملك، كانت في حوزة من تحددت لهم المزايا التي في القرارات..

وقال: من يدرينى بأن جميع القرارات مبسوطة بخاتم الملك الصالح بناء على رغبته هو.. وفى حياته.. لماذا أنتم فى عجلة لإقرار هذه القرارات.. لقد كان ذلك ضمن الشروط التى أرسلت. إلى وأنا فى الشام.. بأن أحضر لأجلس على بساطكم وأحكم بما ترونه أنتم صالحاً..!؟

فبادر عز الدين أيبك ليوقف تدهور الموقف:

- عفوا يا مولاي. إن ما قامت به "السلطانة" شجر الدر، وما قام به أمراء المماليك.. كان جزءاً من انتصارنا على الفرنجة. و عليك يا سيدي الملك المعظم . أن لا تشكك فى أية قرارات مبسوطة بخاتم الملك الصالح، وقد شهد شيوخ أجلاء وكتبه القصر السلطاني صدورها فى حين كان الملك الصالح حياً..

وهو برغم مرضه كان يعقل كل شئ ويدير المعركة
من على سريره.

رد الملك المعظم على عز الدين أيبك
باستهانه. **تأمل :**

- يشهد الشيوخ والكتبة على ماذا؟. وهم شيوخكم
وكتبكم الذين يشيعون عن افعالكم التهويلات..

توتر الموقف.. وأدرك الملك الشاب بأنه
يخوض فى مسائل شائكة لم يحن أو انها بعد.. فانتقل
إلى ابداء الرغبة فى أن تترك هذه القرارات للدراسة
والبحث، وأنه سينظر فيها بعين العطف.. فى وقت
لاحق، كان قد تورط وافصح عن سريرته. قال:

- دعونا الآن ننتهى من آثار هذه الحملة المزعجة حتى
لا تصير أرض عن أرض مميزة.

فى إشارة إلى ما ابداه أمراء "ممالك والده" بأن
أرض الجهاد فى المنصورة لها الأسبقية فى الزيارة
الملكية عن "أرض القاهرة"..

وقال فى غمز:

- اعتقد أن بعد عقد الصلح.. تصير أرض المملكة
كلها أرض سلم..

وتضاحك الملك فى خفة، فتضاحك أتباعه
وأمرائه. وظل فارس الدين إقطاي واجما.. واذا ما
نظر نحو بيبيرس.. تأكد له بأنه لم يجد عما كلفه به.
كما أن الأمير بيبيرس كان قد شاهد بعينه اهمال
القرارات المبصومة بخاتم الملك الصالح.. وبينها
القرار الخاص بترقياته، وعتقه ووظائفه.. إذ دفع بها

الملك الشاب خلف ظهره، تحرك بيبرس ليوقف خلف عز الدين أيبك بجانب قطز، نظر إليه قطز بطرف عينه وابتسم. لكن بيبرس كان جامد الملامح متصلب الجسد.. ينظر في فراغ. وهو يرى بأنه بعد الصيـت والبطولة. يقبض الريح. أماله العظمى تتبخر.. وعشرات من الذين جاءوا فى حاشية الملك المعظم فى انتظار أن يتلقفوا- فرصته- ويقسروها، لتكون فرصتهم. وبها يهتبلون نصيبه الذى كان يجب أن يتضاعف مع النصر على الفرنجة، وما بذل من جهاد.

•••

انتقال بيبرس من خلف ظهر إقطاى ليوقف خلف ظهر أيبك. كان متفقاً عليه. أن يصير بيبرس تابعاً للفرقة التى مستقوم بحراسة الملك ويأمن لها.. ليتاح له الإندماج مع ممالك الملك الشاب.. وعز الدين أيبك الذى أبدى معارضة وتحذيراً من قتل الملك الشاب لم يحتفظ باعتراضاته على طول الخط.. وقد تحول الاعتراض الصريح إلى مخاوف على مراكز الأمراء الصالحة، وجد من يخفف تأثيرها على نفسه.. ويهدئ من روعه تجاهها.

والشئ الذى أفتعه بخطة إقطاى.. هو موقف الملك المعظم الذى يشاهده الآن بنفسه، يغور فى الأحشاء ويؤلم.

•••

بعد أن قام الملك المعظم بلقاء الملك لويس واهداه "خلعة" وطيب خاطره، متمنيا أن يكون الملك الفرنجي قد إتعت بنتائج هذه الحملة الفاشلة..

كان أحد مماليك تورثشاه.. يبلغ بيبرس بأن الملك المعظم استمع إلى تفاصيل معركة القصر، وكيف أبلت فيها، وكيف قمت وأحدك بقتل أكثر من "نبيل" من نبلاء الملك لويس، فإنه يطلب اللقاء بك فى جناحه..

ظل بيبرس لبعض الوقت يفكر فيما سيسفر عنه هذا اللقاء. اضطر أن يذهب إلى إقطاي ويبلغه،، تفكر إقطاي قليلا وقد فرك لحيته مع ذقنه ثم قال لبيبرس: - فى هذه المرحلة الفوارة بالأمال، ربما تكون قد ادهشته بطولتك يا بيبرس.. قتلك لملك صليبي بسيفك شئ ليس هينا.. قد يجعل "الملك المعظم" يستعين بذلك السيف.. لتخلصه من أشخاص يراهم أعداء له.. وهم فى مصاف الملوك أيضا.

وأخذ إقطاي يعيد فرك لحيته الحمراء القصيرة متفكرا...

لا يريد أن يفصح بشئ مما يفكر فيه..

(١٤)

السندان .. والمطرقة

□ بين سندان - الملك المعظم، ومطرقة أمراء المماليك العظام - كان بيبرس يغرس بذرة دولة المماليك الأولى. لحظة مصيرية فى مسيرة حياة بيبرس. سراط مستقيم رهيف يمشى عليه، تحته النار جمرات مشتعلة.. اذا مال يمينا أو يسارا.. انتهى أمره. كان عليه أن يحسم قراره ويحدد موقفه.. لا مجال لأن يتبع سياسته المعهودة بأن يتكتم ما فى صدره ولا يظهر حقيقة ميوله وينتظر ما تأتى به الأحداث، وما يحمله التيار إلى حيث تحط به الأقدار..

يأمل أمراء المماليك فى أن يخلصهم من الملك تورنشا، ولا يدري مصيره، اذا ما أتى بذلك الحدث الخطير.

هل سيضفون عليه الحماية، أم يقدمون رأسه
قربانا لآل البيت الأيوبي؟!

الملك المعظم تورنشا يدعو للقاء به، بعد أن سمع عن "موقعه القصر" وأبدى إعجابا بما أحدثه فيها من عنف، أنقذ عرش مصر من الإجتياح الصليبي.. أنه يستدعيه فى جناحه. وإقطاي يلمح له بأن السيف الذى قطع رأس الملك الصليبي قد يوجهه تورنشا ليقطع رؤوسا لها نفس المكانة.. أنه من الذكاء أن يفهم

التلميحات، بأن الملك الشاب قد يستخدمه ضد "خشداشيه" زملاء السيد الواحد. الواقع الذى خلفه الملك الصالح بعد وفاته، أن مماليكه الصالحيه مهديين بتحويلهم إلى قرانيص "أجناد حلقة" يؤمرون بالقتال، والموت مقابل راتب وحياة معسكرات وقلاع حتى ينتهى أمرهم..

هم أبطال الجهاد فى المنصورة قد يفكرون فى التخلص منهم قبيل وصول الملك لويس إلى بلاده وتضميد جراحه!



الأفكار المتضاربة فى ذهن بيبرس، تحولت إلى كابوس ثقيل، خاصة وأن إقطاعى يعقد على جسارته الأمل فى أن يستل سيفه ويجندل الملك المعظم تورنشاه..

يظنون أن ذلك الأمر سهلا..؟

"لكن اذا لم يكن هذا الأمر سهلا.. فإن ما هو أصعب أن يخالف ما اتفق عليه أمراء المماليك القدامى.

وكلما مر الوقت تواصل الطحن فى رأس بيبرس تفتتت عزمته، تشتت أفكاره، وصار يعصف به الاضطراب.

كان على بيبرس أن يبدو متماسكا أمام أمير من أمراء مماليك الملك الشاب. رآه يعامله فى شئ من الود والترحيب والإشادة، مما يدل على أن اللقاء المزمع عقده مع الملك المعظم سيكون وديا للغاية، وأن

"معركة القصر" الذي يهون من نتائجها أمراء المماليك الصالحة، لها صداها عند الملك المعظم. وهو إذا ما أبدى طاعة للملك الشاب، فإن ذلك اتفاقا بينه وبين إقطاعى، وبقية الأمراء، بأن يفعل ما يفعل دون أن يتلقى لوما.. أو يحاسب على ما يديه متخطيا الأمراء القدامى.. فمسعاه جزء من خطة أمراء المماليك التى باتت ترعجه.. ويفكر فى تسويقها والإنقلاب عليها!!



فى غرة المحرم من عام ٦٤٨ (ابريل ١٢٥٠م) صار بيبرس أميرا من جملة المماليك المعظمية [خاصكية الملك المعظم] فهو عندما ذهب للقاء الملك الشاب فوجئ بأن الملك يرحب به ويذكر أمامه بأنه أحيط ببطولته وشجاعته فى معركة القصر. وأمام مماليكه، راح يمتدحه، ويعلن ضمه إلى جملة حرسه ومماليكه فى القصر.. ويسمح له كأمير أن يقابله ويظهر أمامه فى أى وقت يشاء، كما يمنحه حقوق أمراء مماليكه التى سيعمل على أساسها عقب العودة إلى القاهرة!



كان بيبرس يود أن يشير إلى القرار السلطانى بترقياته، والذى بات ضمن القرارات التى القاها الملك وراء ظهره. لكنه أثر أن لا يعكر صفو العلاقة الطيبة التى بدأت تتصاعد بينه وبين الملك الشاب. وقد حصل على نفس المزايأ تقريبا، من باب يخصه وحده، ولا يكون لأحد من الأمراء القدامى فضل عليه!!

كانت هذه المرة الأولى التي يتكلم فيها مع الملك المعظم تورنشاه. ابن سيده الملك الصالح. فقد قربه ولمس جسمه وشم رائحة عطره، ومع أن الملك الشاب هو الذى أشار على بيبرس بأن يدنو منه، فقد شعر بيبرس بأن الملك يقوم بدور لا يميل إليه كثيرًا، دور رسمه له مستشار يخالف طبيعته.

ومع إبداء مظاهر الطاعة الواجبة من بيبرس، لم يفتح قلبه للملك الشاب الذى بدا له متعالياً يلعب لعبة مكشوفة. يقربه إلى حاشيته بينما هناك الأمراء الكبار من أمثال أيبك وإقطاي وسنقر ولبان وهم الأبطال الحقيقيون لمعركة المنصورة الذين ألحقوا بالغزاة الخسائر الفادحة. كما تكبدوا الكثير من الخسائر فى العتاد وأرواح ممالिकهم الذين اشتروهم من اعطياتهم وأموالهم. وذلك قد يثير حفيظة هؤلاء الأمراء ضده، وظن أن الملك يختبر قدرته على تقنين صفهم الذى قد يراه موحدًا.

بيبرس كان يرى أن الملك الشاب ينتزع كلمات الإطراء به من نفسه انتزاعًا، وبعضها يصدر من أنفه. لعل بيبرس وهو ينحنى ثم يشمخ. كان قد أعاد التفكير فيما خلط له أمراء المماليك الصالحة بقيادة "شجر الدر"!



لما صار بيبرس قريبًا من كرسي العرش للملك الشاب. اعتاد أن يواجهه ويتلقى منه الأوامر. فينحنى ثم يشمخ، وفى ذلك اللقاء بالأمراء فى أحتفالهم برحيل

آخر السفن الأفرنجية. كان بيبرس لا يلتقى بأمراء المماليك الصالحة. إلا أثناء حضورهم ذلك الإجتماع الذى يشمل الإعداد لترك المنصورة و العودة للقاهرة..
كان بيبرس يرى فى عيون الأمراء القدامى كثيرا من الاسئلة فهو - وهم أيضا- يكاد يعلمون بأن الملك الشاب يهادنهم حتى يعود بهم إلى قلعة الجبل.. وأنه سيعمل أولا على تفريقهم.. ثم يتعامل مع كل حالة على حدة.



الأسئلة المثارة التى تكاد تصرخ فى وجه بيبرس "ماذا أنت فاعل يا بيبرس؟. ها نحن نجتمع معا وربما لأخر مرة فى حياتنا" وقد تعمد إقطاى بأن لا يلتفت نحو بيبرس.. وبدا أن أليك الذى تم تربيته من الملك الشاب صار من جملة مستشاريه، ووزرائه. كما بدا كأن إقطاى قد أحل بيبرس من التكليف الثقيل. وأن الأمور التى لم تتصادم بين الأمراء المعظمية والصالحية قد تستتت على ذلك الحال إلى فترة طويلة..!



عندما التفت الملك المعظم تورنشاى نحو بيبرس أو نحو المكان الذى يقف فيه بيبرس مع جملة من أمراء مماليكه الجميع يحملون سيوفهم ويتمنطقون بخناجرهم.. بيبرس وجد نفسه يندفع ويواجه الملك المعظم، وكأنه ناداه فاستجاب له سريعا، انحنى أمامه.. كانت إنحناءة بيبرس ركوعا تحت أقدام الملك. مما

لغت نظر أمراء المماليك الصالحية بأن المغالاة فى تقديم فروض الطاعة هكذا ليست من شيمة بيبرس. اهتم إقطاى بما يحدث. ثمة علاقة طويلة بينه وبين بيبرس جعلت الحوار بينهما قد يكون غير منطوقا. يجرى بالعيون، والحركات، والتصرفات!

انعكس إهتمام إقطاى المفاجئ على بقية الأمراء فتهيأوا.

كان الأمراء الصالحية يقفون فى مقدمة الصف الأيمن وخلفهم عددا من قواد فرقتهم. وعلى يسار "الملك" كان هناك صف من الشيوخ والعلماء والأعوان، أما المماليك المعظمية فـ يقفون حوله فى نصف دائرة.. وقد انسلخ عنهم بيبرس، وظل منحنيا حتى سمع الملك الشاب يأمره.. بأنه لا يريد منه شيئا، وأن ما بدر منه إبتغاته ليس غير.. القوة التى أتى بها الملك الشاب كانت فى حدود الثلاثة آلاف. لكن القوة التى حاربت الفرنجة كانت تزيد عن الأربعين ألفا من المماليك الصالحية.. لا يدري بيبرس لماذا فكر فى هذا العدد.. قارن بين القوتين.. وهو لا يزال منحنيا، التفت إلى موقع إقطاى.. تشابكت نظراتهما فى حوار صامت.. و إذا برأس إقطاى يهتز عدة هزات ويده تقبض على سيفه، يرافق ذلك، تلك الأبتسامة التى لا تعبر عما فى عينيه من اصرار وتصميم.. سرى بين الأمراء الصالحية ذلك التيار الذى ينم عن توالد خطب قد يؤدى إلى حدث كبير وخطير. كان ذلك عند عز الدين أيبك عسبيا، وعند سنقر وبلبان متهاالكا.. ولكن

إقطاى كان يواصل إرسال رسائله فى تلك اللحظات
القليلة التى ظل فيها بيبرس منحنيا.. وما كان يقلق
بيبرس أن لا يكون الأمراء قد أعدوا للأمر عدته..
ووضعوا أمام كل سيف من سيوف الملك المعظم..
عدة سيوف.. هنا كان لابد وأن تصدر من إقطاى أو
أيك إشارة ما.. فى اللحظة الفاصلة التى كانت- كاملة
بيد بيبرس- كان يمكن أن يتخطاها ويجعل من المشهد
برمته، تدريبا عمليا. وفيما بعد يقول للأمراء.. أنه لم
يتلق من أحد إشارة واضحة بأن يفعلها.. كان بيبرس
فى الواقع قد انتصب شامخا أمام الملك الشاب بعد
الانحناء الطويلة. كان يتسم فى وجهه ويركز بصره
فى عينيه.. رأى أن الأمراء الكبار الأربعة يقبضون
على مقابض سيوفهم. لعله لو رأى خلاف ذلك لآثر أن
يمضى ويقف فى مكانه، فى لمح البصر قفز البير من
الأرض، وقد استل سيفه وصرخ صرخة الحرب
المغولية المفزعة، وهبط بالسيف على رأس الملك
الشاب الذى تراجع فى خفة القط. وتلقى سيف بيبرس
على كتفه الأيسر، قطع جزءا من بذته مختلطة بلحم
كتفه.. ابنىقت الدماء.. وجه الملك تورنشاى كان
فزعاً.. اختفى وعاد يملأ المشهد، تجمد المشهد،
لحظات.. المفاجأة ألجمت الجميع فى أماكنهم لبعض
الوقت.. وإذا بأمرأ وممالك الملك المعظم يلقون
بانفسهم أمام بيبرس وعددا من السيوف تتلقى سيفه فى
ضربته التالية.. ربما كانت الرابعة أو الخامسة. راح
يبحث عن الملك الذى اختفى خلف مشهد الوجه

المفزوع الذى ملأ عينى ببيرس.. لحظ أن سيوف الممالك الصالحة كانت قد أحاطت به.. وعند ظهورهم اشتبكوا مع الممالك المعظمية الذين فوجؤا بالهجوم، فسقط منهم البعض، وفجأة ظهر الملك الشاب أمام ببيرس وببدة سيفه، هو الذى يهجم.. اذن فالجرح جاء فى أعلى الذراع الأيسر- عندما مال وتلقى بكتفه الضربة التى كان يجب أن تكون الحاسمة.. واذا بسيف سريع يطيح بالسيف الذى بيد الملك الشاب. إنه سيف إقطاى الذى يقدم له المعونه فى الوقت المناسب. أنه يشاركه الحدث الجلل. والمسافة بين ببيرس والملك الشاب كانت أطول من الذراع مع السيف الذى بيده فمال ببيرس وطعن الملك فى الصدر على اليسار قليلا. كان يمكن أن يصل سيفه الى قلب الملك فيسقط أمام الجميع وتهدأ الزوبعة التى أثيرت فجأة. لكن الملك الشاب كان يميل إلى الخلف وقدماه يتحركان فى حركة لولبيه، فيتفادى الطعنات ويتمكن من أن ويهرب من الباب الذى يقع خلف الستائر الثقيلة فى ظهر كرس العرش، هنا يندفع ممالك تورنشاه يملأون المسافة بين الستائر وببيرس، فينقض عليهم ممالك إقطاى.. يتعاملون معهم ضربا وطعنا ومبارزة بغرض شغلهم فيسقط أكثر من قتيل.. واذا ما تلفت ببيرس حوله رأى "أبيك" يصرخ فى الجميع بأن يكفوا عن القتال.. ويلوح بسيفه نحو أحد الابواب فيتهقر "بيرس" يحمى ظهره إقطاى وعدد من فرسان الممالك.. واذا ما اندفع خارجا من نفس الباب.. سي شاهد الملك الشاب قد أحاط

به ممالك سنقر في حلقه، والدماء تصبغ ذراعه
وصدره.. انهم يحتجزونه لبيرس حتى يلحق به.. ما
يكاد الملك الشاب يشاهد بيبرس قادمًا حتى يكسر
الحلقة ويفر نحو احدى آلات تسلق الأسوار بما بها من
درج وحبال وسلالم مرتفعة.. لعل الملك في تلك
اللحظة رأى "الأميرة واضحة" وأن ممالك سنقر
حاصروا ممالكه خارج القاعة. وداخل القاعة كان
أيك قد اوقف قتالهم.. والصراع انحصر في شخصين
"هو. وبيبرس" الذي لم يتوقع منه الغدر، وقد قربه منه
بغرض أن يستخدمه ضد كبار الأمراء الصالحة.

آلة تسلق اسوار القلاع كانت بجوار سور
المعسكر.. والملك اذا ما تسلق أدراج هذه الآلة قد يلقي
بنفسه خارج المعسكر ويفلت بروحه.. وهو لا يدري
كيف عزلوا خاصته عن الدفاع عنه، وكيف لم يتحرك
ممالكه الحركة الواجبة ضد الممالك الصالحة!

يلحق بيبرس بأله تسلق أسوار القلاع. ويشاهد
الملك يجرى كالقط على سلالها برغم جراحه، يصعد
إلى أعلى.. في محاولة للحصول على النجاة. وبيبرس
كان هائجا. ففي نجاة الملك من الموت المحقق نهايته
هو.. والضربة الطائشة ما كانت تطيش إلا لخفة وتوقع
من هذا الملك الشاب الذي عاش في قلعة كيف عيشة
الفرسان الخشنة.

الملك تورنشاو وهو يرى الموت يطارده في
شخص بيبرس. شعر بدنو النهاية، إذ وجد الصراع قد
انحصر بينه وبين صاحب الضربة الطائشة. والدماء

كانت تنزف منه غزيرة. وحارة، البداية النشطة بدأت تخفت اذا ما واصل الصعود على درجات آلة الحصار.. وقد تركه بيبرس يصعد سلاحه آلة الحصار ووقف له تحتها. سيفه بيده يضوى. ولا أحد يتقدم لمعاونته. يكاد يرى الجميع قد تحولوا إلى مشاهدين. وراح بيبرس يفكر في الخطوة التالية. سوء حظ الملك أنه راح يتسلق هذه الآلة المرتفعة. الملك يود أن يهرب، كان يجب أن يهرب في أحد النواحي على الأرض.. وليس إلى السماء.. والمفاجأة التي وقعت جعلته لا يحسن التصرف.. لكن وهو في طريقه إلى فوق، كان يعثر على الحراب وكور النار المعلقة.. اسلحة آلة التسلق.. وهو يصعد كان يلقي بالحراب، يرسل بالحراب إلى حيث يقف بيبرس، يتطلع إليه الملك ولا يدري هل سيصعد إليه أم ينتظر.. وبيبرس متحيرا لعله يسأل نفسه؛ ماذا سيفعل الملك المصاب في خطواته التالية. واحدى هذه الحراب كادت أن تقضى على بيبرس وتتغرس في ظهره، وقد تنحى في آخر لحظة. الوقت اذا ما كسبه الملك قد يتحول الموقف لصالحه..

افاق المماليك الصالحيه وقدروا المسألة من زاوية أخرى، قد يهجمون جميعا. ليقتلوه وينتهى الأمر.

ولم يدر بيبرس أنه بعد الاشتباكات الأولى ومقتل عدد من أمراء ممالك الملك تورنشاه.. كان المماليك الصالحيه قد سيطروا على الموقف..جمدوه

فى انتظار أن ينتهى بيبرس من مهمته الثقيلة..
والمك الذى ارتفع عاليا شعر بالهواء البارد يلفحه،
يجب أن يتخلص من بيبرس ويقفز خارج السور، واذ
به يشاهد من ارتفاعه أن سور القلعة يجاوره النهر
العميق. فألقى بعدد من الكرات المعدة للاشتعال
لتعطيل صعود بيبرس خلفه. ذلك أوحى لبيبرس بفكرة
اشعالها. بل أن بيبرس رأى أن يشعل النار فى آله
تسلق أسوار القلاع وهى من الخشب والحبال.. جرى
وتناول مشعلا.. وبالكرات التى تشتعل سريعا اذا ما
لمست النار.. راحت أسنة الذهب تتصاعد عاليا..
والدخان يخفى الملك تورنشاه أعلى الآلة.. ابتعد
بيبرس ليشارك الملك تورنشاه يلقى بنفسه فى النهر. لقد
طار الملك مسافة هائلة حتى يسقط فى المياه العميقة.
شاهده أيضا من تحلقوا بالمعسكر وحول آله تسلق
الأسوار، تحركوا نحو النهر، وظلوا ينتظرون صعود
تورنشاه إلى سطح الماء فلم يظهر فى مكانة.. حتى
ظن البعض أنه ألقى بشئ ليفلت هو بعد أن يصرف
انظارهم.. بدا بيبرس وبقية أمراء المماليك فى حالة
توتر.. واذ بصياح يأتى من طرف المعسكر البعيد
[جثة الملك الغريق تطفو] سحبوها ناحية البر.. وتأكد
لمن يهمه الأمر- أن تورنشاه ابن الملك الصالح قد
مات غريقا وجريحا ومحروقا.

اختفى بيبرس من الساحة التى تعج بالأحداث.
بعد أن أيقن بأن الملك المعظم انتهى أمره..

وانعقد مجلس الأمراء الصالحية بدون بيبرس.
كان الأمراء الصالحية قد قرروا أن يتم التخلص من
أمراء المماليك المعظمية- وكانت أولى قرارات
المجلس إعطاء الحرية للمماليك المعظمية فى الانضمام
لمن يشاءون من الأمراء الصالحية إقطاى.. ايبك..
سنقر.. بلبان- أو العودة للشام لمن كان فى مهمة، ولم
يكن من ممالك تورنشا، فأختار معظمهم الانضمام
إلى ممالك عز الدين ايبك.. وتوزع بعضهم على بقية
الأمراء..

وبدا إقطاى راضيا عما حدث... كان يشغله
أمر مهم. فقد كلف أحد ممالিকে الشجعان بأن يقتل
بيبرس اذا التقى به. تحت دعوى الإنتقام لمقتل سيدهم،
بن سيدهم، ملك البلاد والعباد!
مقتل بيبرس يحل العقدة التى انعقدت بين
المماليك وملوك وأمراء البيت الأيوبى الذين لن يسلموا
للمماليك.. وقد يتوحدوا بمساعدات خارجية لقتالهم فى
مصر لإسترداد عرش الأيوبيين من العبيد!
لكن التاريخ كان يسجل فى هذه اللحظة..
مولد دولة المماليك الأولى
بعملية قيصرية.

(١٥)

دولة المماليك وثبات العادة!

□ إذا ما فرغ المماليك من قتل "تورنشاه" وارثهم، وخليفة والده الملك الصالح على عرش مصر. بدا أن ليس هناك بين أمراء المماليك الصالحة من هو أقوى وأوسع نفوذاً من "فارس الدين إقطاي" - وإليه يرجع التخطيط في التخلص من تورنشاه بالقتل ويعتبر بيبرس "المنفذ".

وفي خطة الأمير إقطاي أن يحكم كوصي من خلف "قاصر" أيوبى، ويبادر ويستعيد الشام "دمشق" وحلب بالذات. مستغلاً المد الذى أحدثه انتصار المماليك فى معركة المنصورة، وبذلك يقضى على أهم قوى البيت الأيوبى خارج مصر، ثم يقوم بنقل العرش إلى نفسه خالصاً دون منازع.

ذلك ما لم يفصح عنه من خطته، وقد عمل على أن يورط جميع أمراء المماليك فى قتل "الملك المعظم تورنشاه"، ولكنه وقد بادر وشرع سيفه أمام كثير من الشهود، فى وجه تورنشاه، عندما استعاد توازنه أمام بيبرس على أثر ضربة سيفه التى طاشت، عقب تفادىها بخفه ورشاقه مكتسبة للملك الشاب الذى عاش أيامه الأخيرة فى قلعة كيفا، عيشة الفرسان التى يكتنفها النشاط الدائم.

إقطاعى كعادته يظهر التقليل من نواياه. ويخفى الكثير
فإن عز الدين أيبك كان مذهولاً وقلقاً من كم الإنحراف
عن السائد، والخروج عن قانون الواجبات المنوط بها
المماليك، فما الحال إذا علم بأن "إقطاعى" يقوم بتنفيذ
الجريمة المركبة. يحرض على قتل الملك الشاب.. ثم
يحرض على قتل من قتل الملك الشاب. ويبدو أنه
زاهدٌ فى الحكم، وهو يعمل بكل قواه بأن تطيب الثمرة
وتحط فى حجره..!

أيبك برغم ما وصل إليه المماليك من توفيق، يدرك
ردود الأفعال عند "المسلمين الأشرف" الذين لن
ينظروا إلى تمرد المماليك إلا بأن هذا خروج عنيف
عن العادات والتقاليد، وتحد سافر لما استتبت عليه
الأوضاع منذ مئات السنين.

يرى أنه كان لا بد وأن يتمسك بإعلان رفضه لقتل
الملك الشاب مهما حدث. فإن بشاعة ما حدث، والمهام
الصعبة التى أقيمت على كاهل الأمراء المماليك.
والطريق بات ممهداً لقيام عاصفة من الأطماع بين
المماليك أنفسهم من ناحية، وبين المماليك وملوك
وأمراء البيت الأيوبي من ناحية أخرى، ففى ظنه أن
الدمار لهم جميعاً بدأ.. وحالة الهدوء والتتعم التى اعتاد
"المملوك" أن يعيشها عقب الحروب صارت مفتقدة.

فى كل الأحوال كان "عز الدين أيبك" يرى أن المهام
التى خلق لها المملوك.. لن تكون بأية حال هى أن
يحكم "الأحرار" فإن أفقر فلاح فى مصر.. لن يوافق
على أن يكون محكوماً مباشرة من مملوك، وما يتوقعه

"أيك" هو حدوث كثير من الهبات والثورات بداخل "المحروسة". في تخيله أن "البلد" ابتلعت طعاما مسموما لن تهدأ أمعائها إلا إذا أرجعته ولفظته.

وقد بدا أيك مهموما.. خشى إقطاي أن يكون هذا الأمير المنافس له، يفكر في استدراج سيف الدين سنقر، وشمس الدين بلبان الرشيدى لمعاضدته فيشكلون حزبا كبيرا ضده، يوجه له الاتهام بالخروج عن القانون السائد.. ويفوزون هم بالغنيمة كمدافعين عن حقوق الذى قتل؟!!

إقطاي وقد حصر تفكيره فى ذاته، ومنافسه عز الدين أيك.. غفل تماما عن "شجر الدر" التى كانت ولازالت زوجة "سيد" المماليك، رفعت بالزواج السلطانى إلى مرتبة عالية، غسلت ما سبق لها من عبودية، فتألفت بما اشاعه حزبها من دورها البطولى فى التغلب على ضعفها كسيدة.. وأحزانها كزوجة ترملت. وكيف أخذت تدير المعركة مع الأمراء المماليك حتى كتب الله النصر للمسلمين على الصليبيين.. شجر الدر - فى موقعها الجديد - تمسك بيدها ما يفتقده أمراء المماليك بالنسبة للقبول من أهل مصر.. وفى نفس الوقت فهى زميلة للمماليك، يمكن أن تحكم بنفسها.. وما يذكره إقطاي القوى.. أن "شجر الدر" بكل ما لديها من أسرار العرش الأيوبي، إنها امرأة، وإذا كان لا يجوز أن يحكم عرش مصر مملوك رجل.. فإن حكم عرش مصر بمملوكة امرأة فمن رابع المستحيلات.. فإذا كان إقطاي يرى أن الوصول إلى عرش مصر سوف يلقى

بالأتاكية "الوصاية" فما الذى يمكن أن تفعله "شجر الدر" إلا الطاعة للوصى على العرش؟ يكفيها أن تعيش بقية عمرها أرملة لملك مصر.. سلطنة سابقة تستمتع بما كان يتمتع به "الملك الصالح" من إزاز وتقدير. وما لا يدريه فارس الدين إقطاي.. أن لكل شخص مواهبه الخاصة، التى تستغل ذاتيا بالحركة فى ساحة الأطماع وخاصة عندما تتعرض أمانيه للخطر!!

كان المملوك الذى كلف بالبحث عن بيبرس وقتله لاينى يتقصى أثر بيبرس، حتى اكتشف أنه لم يغادر معسكر فارسكور، وأنه يختبئ فى القصر السلطاني بالجناح الخاص بالسلطنة شجر الدر، راح يراقبه ونسى نفسه واقترب من ذلك الجناح حتى ضبط من حراسه، وسيق إلى كبير الحراس الذى ظن أنه من المتأمرين على "شجر الدر" يتريص بها لقتلها. اضطر المملوك أن يصارح كبير الحراس بأنه ما جاء إلى جناح الحريم، والذى يضبط به من الغرباء يقتل على الفور.. إلا من أجل الأمير بيبرس، وسأله: كيف علمت أن الأمير بيبرس فى هذا الجناح من القصر؟ اضطر المملوك أن يدعى بأن هناك مؤامرة على حياة بيبرس، وقد جاء إليه ليبلغه بها.. فصحبه الحراس إلى شجر الدر التى قامت باستجوابه، ومنه، علمت بأنه مكلف من فارس الدين إقطاي بقتل "الأمير بيبرس" بسبب قتله للملك المعظم تورنشاہ!

ذهلت شجر الدر لسماعها تفاصيل تلك المؤامرة التى يخطط لها إقطاي وفسارعت واستدعت "عز الدين أيبك".

وفور سماعه الأخبار من "المملوك" أصيب هو الآخر بالذهول.. وتدرجيا.. تكشفت للأمراء وشجر الدر، مساعى إقطاي لينفرد بالحكم وحده!

بيبرس كان كل ما يشغله فى مخبأه. كيف يتقبل المماليك- والأهالى- حالة الانحراف القصى.. هو بطلها، نعم..- أما أن يكون بطلا لهم. أوضحيتم، التى يشتررون بها رقابهم، وكل ما كان يعزىه أن الأمير "فارس الدين إقطاي" هو عضده ونصيره.. وهو أقوى أمراء المماليك. لكن أن يكتشف بأنه يسعى لقتله؟! لعله فكر أن ذلك قد يحدث، لكنه إذا ما حدث سيشعل أعماقه بالثورة والغضب ضد هذا الأمير المخاتل.. وها هو يرى حلفا بين شجر الدر وأبيك، فلماذا لا ينضم إليه.. لينتقم لنفسه من ذلك الأمير الذى يسعى لقتله..؟! لقد بات بيبرس يرى بأنه لن تستقيم الأحوال إلا اذا تم التخلص من "إقطاي".. حاصرته شجر الدر من ناحية، وعز الدين أبيك من ناحية، حتى تفاقم غضبه على استأذه، ثار وأخذ يدق المنضدة بقبضته.. وكأنه يهشم له رأسه.. فتبادلا الحليفان النظرات المريحة.. ولأن اساليبها فى الدفاع والهجوم ناعمة. لم يفتاحاه فى أسلوب الانتقام من إقطاي، الذى يجب أن يرد له اللطمة.. سهما مسموما يرشق فى ظهره..!

وبدا **انهما** اكتفيا بأن بيبرس ابتعد عن إقطاي، ليس مهما أن يعلن موقفه صريحا معهما.. "فمن يكون ليس مع إقطاي.. فهو معنا بكل تأكيد" هكذا غمغم "أبيك" فى اذن شجر الدر، فوجدت نفسها تمسك بيده وتتشبث بها..

فبيادر هو باليد الأخرى يربت على اليد البضة فى رفق وتحنان مما جعلها تستعيد انوثتها وتميل بكتفها إلى صدره، ثم تفيق سريعاً، بأن لا الوقت ولا الموقف يناسب الحالة العاطفية!

عقب ظهور جثة "الملك المعظم" طافية على سطح النهر كان بيبرس قد توجه مباشرة إلى جناح الحريم بالقصر السلطاني.. طلب مقابلة شجر الدر فأدخلته حراسها إلى قاعة العرش والتي كان يحلو لها لقاء ضيوفها بها.. تجلس على كرسي "الملك الصالح" وحولها أبهة العرش من الستائر والزخارف.. جئى بيبرس عند أقدامها ووضع أنجازه بين يديها.. هو الذى كان يتخوف من غضبها إذا ما أتى بالحادث الجلل. كان قد استشارها قبل أن يسعى إلى التنفيذ فسمع منها شكوى طويلة من تصرفات الملك المعظم وغروره وباحت له بأنه ضرب بعرض الحائط بكل الاتفاقيات التى عرضت عليه عند استدعائه من قلعة كيفا بديار بكر، وأنه ينفذ ما يمليه عليه أعمامه فى الشام، ويقتل من انتصار "الملك الصالح" فى معركة المنصورة!

وفهم بيبرس بأن "الشكوى" التى تقدم من تصرفات الملك الشاب.. تحمل فى طياتها موافقة ضمنية على أن يسلك ما يراه مناسباً.. هو أو أميره إقطاي، أما وقد ذهب إليها بعد التنفيذ.. فقد وجدها غير متأثرة بما حدث إلا بقدر ما يضيفه الموت حوله من رهبة.

شجر الدر اطنبت في وصف شجاعته. وابلغته بأنها ستكلف الرواة بأن يذكروا بأن "الملك المعظم" دبر مؤامرة لقتل أمراء مماليك الملك الصالح، وهم أبطال معركة المنصورة، لينصب أمراء جدد أتى بهم معه من الشام. لتصير مصر تابعة للشام.. وأن ما حدث جاء عرضاً، فإن الدفاع الشرعى عن النفس تطلب الكر، والفر، إذ أن البداية ستكون عندما زار الملك المعظم الملك لويس، وخلع عليه خلعة، وهدايا مأمراً مع الصليبيين ليعطل رحيلهم عن الديار الاسلامية. مما أثار الأمراء.. وأنت يا بيبرس كنت في حالة دفاع.. هو الذى بدأ بالتخلص من بطل معركة القصر. استدعاك إلى جناحه وأمر مماليكه بقتلك، لكنك يا بيبرس أفلت من الموت باعجوبة، وعندما طاردوك قبل أن تكشف سر تأمرهم. المماليك دافعوا عنك.. فغرق الجانى فى النهر..

" وذلك من ارادة الله العلى القدير! "

بدا بيبرس مندهشاً من تراكيب الحكايات. جزء حقيقى وجزء غير حقيقى، لتبدو "الحكاية" قابلة للصدق وخاضعة للمنطق.

وقد اخفته شجر الدر فى مكان آمن لا يؤمه إلا حرسها الخاص والأمناء على اسرارها، وكانت من حين لآخر تزوره وتدير معه الأحاديث.

بينت له أن "القوى" التى بيد أمراء المماليك أصبحت متوازنة بصورة حساسة، ولم يعد إقطاعى هو أقوى أمراء المماليك، كما أن "أبيك" لن يتفوق على إقطاعى

"وقد سيطرت على سنقر وبلبان، لا يأتیان شيئاً إلا بعد أن يستشيراني، أنهما معي حتى وأنتى إذا ملست إلى احدى القوى، أمكن لتلك القوة أن تنفوق على الجميع". كان كل ما يهـم ببيرس أن لا يخرج من المولد خالى الوفاض. والدولة الفاطمية كانت قد أكثرت من الموالد.. بات يأمل فى "خُرْج" من الحلوى، طمأنته شجر الدر بأنها تعتبره منذ لجأ لها. "أميرا" له كافة حقوق الأمراء القدامى، وسوف تعضده لو أنه استمر فى الولاء لها.

الرأى الذى ساد أن يتم تنصيب طفل من أطفال الأسرة الأيوبية، يكون إقطاعى اتابكا له، ذلك الرأى أعيد النظر فيه. بدأت مناقشته من جديد. ووجد أن ذلك يفتح الطريق لملوك بنى أيوب فى زيارة القلعة والمكوث بها. وحجز عدد من الوظائف فى بر مصر لهم. والأمر برمته سيبدو خداعا، إن لم ينكشف فى الأيام الأولى.. سينكشف فى الأيام التالية.. ثم كان هناك تساؤلا خطيرا.

- لماذا فارس الدين إقطاعى.. اتابكا..، لماذا لا يكون ببيرس هو الاتابك!؟

والغرض من إلقاء هذا السؤال بتلك الصيغة، أن يتم التمهيد ليحل أيبك "العاقل الرزين" بدلا من قاتل الملك، ومدير المؤامرة ضد الملك! لقد بدأ حزب شجر الدر.. يحرك الأمور فى رفق لتنتهى إلى صالحه..!

(١٦)

ولادة قيصرية لسلطنة المماليك

□ إقطاي يعزل "الملك المعز أيبك" قبل أن يثبت
أقدامه في عرش مصر، وشجر الدر تستخدم حنكتها
السياسية لتبعد إقطاي عن هدفه!
وحتى يخرج أمراء المماليك - بالسريعة
الواجبة - من أزمة المنافسة التي اشتدت بينهم. ارتلوا،
ولو بصفة مؤقتة.. ضرورة الاتفاق على أن تتبوا
"شجر الدر" عرش مصر كسلطنة نصف أيوبية
بصفتها أرملة الملك الراحل "الصالح نجم الدين أيوب"
وهي أيضا نصف مملوكية، فلن تغدر بهم، إذا ما كانوا
عضدها وقوتها.

وإذا ما تجمع الأيوبيين ضدها، أمكن لأمراء
المماليك ردع الأيوبيين ونزع الممالك والأمارات التي
بيدهم في الشام. ويتولاها أمراء المماليك هناك بصفتهم
وكلاء لعرش مصر.

ولأن ثمة حلف قائم بين شجر الدر والأمير عز
الدين أيبك، فقد اختارته "مقدما للعسكر" وفاز بموافقة
سيف الدين سنقر، وشمس الدين بلبان الرشيدى.. لكن
فارس الدين إقطاي عارض هذا الاختيار بحجة أن هذه

المرحلة المحاطة بالأخطار تحتاج لأمير قوى، ورأى أنه الأحق بمنصب "أمير الأمراء" مقدم العسكر.. وأخذ يلمح بأنه صاحب الفضل فى تخليصهم من تورنشااه.. ولهذا السبب الأخير، أفتعته شجر الدر بأن اختياره كمقدم للعسكر قد يفسر بعكس ما تم ترووجه بين العامة، بأن الملك المعظم هو الذى بدأ بالخيانة.. عندما رأى إقطاعى أن الجميع يستفيدون من وجود أيبك فى منصب مقدم العسكر لاذ بالصمت حتى لا يشق وحدة الصف. لكنه كان لا يترك مناسبة حتى يثبت فيها بأنه الأمير الأقوى ومماليكه- مع حزبه بين العامة- صاروا يلقبونه بالملك الجواد.. وهو اللقب الذى سارع واختاره لنفسه، وفى ظنه أن شجر الدر ستقوى به. ولم يدر أنهم وزعوا قوتهم على أربعة دوائر حتى يفوقونه. وهى دوائر تتماس مصالحها معا. وتخشى اطماعه، فتقاربت بفعل قوته. وقد تتباعد اذا اطمأنت بأنه لا يسعى ليكون "الملك الجواد" لعرش مصر..

وشجر الدر وبين يديها "الأموال" والأمراء الثلاثة. كل منهم يخشى بأسه، فيتقوى بالآخرين- معا - يأمنون انقلابه عليهم ويفوقونه قوة.

خطب المشايخ والأئمة والعلماء على منابر مصر لشجر الدر سلطنة البلاد وملكة العباد.. ونقش اسمها على السكة، كانت الأمور فى السلطنة موكوله لها، وذلك لمدة ثمانين يوما. وقد احبها الناس. وهى التى أبدت عطفها على الأهالى والفقراء وأنفقت المال الكثير لتكسب تأييدهم.. واحبها المماليك، فقد حافظت

على مزاياهم وضاعتها. وهم الذين كانوا سيتعرضون
لفقد مزاياهم بموت سيدهم. صار البقاء على شجر الدر
من أهم أهدافهم. إذ أنه في هذا البقاء عمر جديد يمتد
لهم في المناصب والاستمتاع بالمزايا. يؤجل نزولهم
إلى أن يكونوا قرانيص وأجناد حلقة!

لكن موقف الأمير فارس الدين إقطاي
المعارض.. وعدم قبول أمراء البيت الأيوبي في السلم
ومصر لانتقال الحكم إلى المماليك باسم "قنطرتهم"
شجر الدر، وهي الجارية التركية التي نشأت على
مثالهم. ضاعف من عبء الأحوال، خاصة موقف
الملك الناصر صاحب الشام- وهو ابن حفيد صلاح
الدين الأيوبي- المجاهد الكبير- ولم يزل للأيوبيين
منزلة عظيمة في نفوس الناس، وقد هبت ريح المغول
بجوارهم، أطاحت بدولة الخوارزميين، فانكسر حاجز
السد ليفرغ جحافل من المغول والتتار نحو بغداد.. وقد
أعد الملك الناصر عدته لغزو مصر واستعادتها من
المماليك البحرية، أرسل الرسل لاستمالة الأمراء
والأعيان والمشايخ والقبائل في مصر. ولا بد وأن قطاعا
وافق على حضوره.

•••

•• كان موقف الخليفة العباسي في بغداد يتسم
بالاستياء والسخرية لتولى أمر المسلمين في مصر
جارية تركية. فقد أرسل إلى أمراء مصر وشيوخها
يقول متهكما:

"إذا كانت الرجال قد عدت عندكم فاعلمونا حتى نسير
إليكم رجلا من عندنا.."

والعادة أن يحكم المسلمين الرجال الأصحاء،
فلم يتقبل الأعيان والشيوخ حكم "أمرأة" وإن لم يعلنوا
ذلك. والتحالف قائم بين أمراء المماليك وشجر الدر
دون إقطاعى. فى ذلك الوقت طمع مقدم العسكر أيبك
فى أن يأول إليه عرش مصر. لكن عندما ناقش العلماء
مع الأمراء هذه المسألة. اقترح بعضهم حلا يرضى
شجر الدر المحبوبة. ويتفق مع القواعد المعتادة فى
الحكم. بأن تتزوج السلطانة شجر الدر من أمير كبير
وتتنازل له عن العرش. وهى بذلك ستشاركه الحكم
كزوجة.

منحت شجر الدر فرصة الاختيار لو احد من
الأمراء الأربعة الكبار.. ومرة أخرى لاحت الفرصة
لإقطاعى. لكنه كان يعرف بأنه لن يوافق مزاج شجر
الدر.. فلم يعرض نفسه للإهانة. عندما طلبت منه أن
يحضر إليها، أرسل لها بأنها تعرفه حق المعرفة،
وتعرف أعماله العظيمة التى قدمها فى معركة
المنصورة، وما قام به عقب تحقيق النصر وأنه هو
الذى أعاد للماليك الروح، عندما خطط الخطة المجنونة
وقام بتنفيذها.. وأن لولا سيفه ورجاله ما كان سيصل
إليها العرش..

و عندما أصرت شجر الدر على اللقاء به، ذهب
وهو يصحب كبريائه أمامه، لم ينحن، الآخرون
عاملوها كملكة وإقطاعى عاملها كزميلة من المفروض

أن تقدر له أعماله وانجازاته، ولما سألته لماذا لم تتحن؟ قال:

- يا سيدتي أنا الرجل الذي جاء ليتزوج بك. اذا انحنيت لك فان ذلك يخالف الشرع. والمرأة المسلمة هي التي تتحنى لزوجها.

ثم أخذ يذكرها بما جاء في القرآن الكريم من أن الرجال قوامون على النساء..
وعندما قالت له:

- أتيت لتفسد فرصتك يا إقطاي..
قال لها:

- فرصتي فسدت منذ اجتمعت أنت وبقية الأمراء ضدى. خوفا من قوتي. فى وقت، البلد كانت تحتاج لهذه القوة. بينما أنت تفضلين لنفسك زوجا مطيعا يحصل منك على الأمر باللقاء معك فى الفراش.

كظمت غيظها لم يبد الغضب على شجر الدر. كانت فى الواقع معجبة بقوة إقطاي. لكن الصعود إلى عرش الأيوبيين كان يحتاج منها إلى توضيحات جسيمة فقالت:

- يا فارس الدين إقطاي. لو لم تكن قويا جدا. ومتكبرا جدا لصررت زوجتك التى تهدهدك.. ولصعدت إلى هذا العرش..

نظر إقطاي فى عينيها وابتم وهو يغمغم:
- أنه "المسال" أليك.. اليس كذلك؟ أكاد أتبين اختيارك.
ثم صاح فيها وهو يشير إليها بأصبعه.

- احذرك. أنه ذئب يخفى مخالبه. ثعلب ماطر، أنه لا
يختلف عني إلا في أنه غير صريح. انا واضح كما
ترين ياسيدتي.. ما أرغب فيه أعلنه.

فقال شجر الدر وهي توليه ظهرها:

- كان يجب أن تتنازل عن كبريائك يا إقطاي. تتنازل
قليلاً أمام سلطنة البلاد..

دب إقطاي بيده على صدره وقال:

- انا الذي جعلتك تصعدين إلى هذا العرش، رديّة
إلي.. وستفخرين بأنك زوجة "الملك الجواد"

•••

مالت شجر الدر إلى المسالم أيبك، وأبدت
رغبتها في الزواج منه.. وهنا جاهر إقطاي وأعلن
معارضته. وصار يتصرف في البلاد على أساس أنه
"الملك" يتحرش بعز الدين أيبك لكي ينازله بقواته.
لاحق نزر الحرب بين المماليك، فعقدت الاجتماعات،
وتحركت الوساطات نحو حل آخر يرضى الحزبيين
المتنازعين.

لكن عز الدين أيبك بدا غاضباً وثائراً ضد
تصرفات إقطاي وجميعه للضرائب دون وجه حق
واستيلاء ممالিকে على القلاع ونواصي الطرق.

كان لابد وأن يتصدى أيبك بالقوة لإقطاي، لكن
الأمراء المتحالفين معه نصحوه بأن ذلك هو ميدان
إقطاي ومسعاه لندخل معه في معركة. قد تكون وبالاً
على المماليك الصالحة جميعاً.

ومع ذلك فقد أعلن أيبك نفسه حاكماً للبلاد باسم
"الملك المعز" عز الدين أيبك بن عبد الله الصالحى
النجمى. فازدادت تصرفات إقطاى تحدياً.
شجر الدر رأت أن يحزم "الملك المعز" أمره
فى عمل يخلص البلاد من الفوضى.. وخاصة وأن
قوات "الملك الناصر" قد تجمعت وبدأ زحفها نحو
مصر..

•••

لم يوافق "الملك المعز" على ما تقترحه شجر
الدر تلميحا وليس تصيرحاً، بأن يرسل من يقتل
إقطاى. شجر الدر كانت تميل إلى فعل خطير يوقف
الفوضى فى البلاد. ضرورة التخلص من إقطاى.
ولكن قوة مماليكه كانت البلاد فى أشد الحاجة إليها.
والأخبار تأتى بأن حشوداً كبيرة حشدها الأيوبيون الذين
توحدوا أمام فقدهم لعرش مصر.

•••

كانت سلطنة الملك المعز فى ربيع الآخر عام
٦٤٨هـ اغسطس ١٢٥٠م ولم تمض على سلطنته
"خمسة أيام" حتى بدأت الاجتماعات الكبرى ووسلطات
العلماء تعقد، بأن يتقابل الأمراء المتنازعين فى
منتصف الطريق ليلتئم الخلاف وتصفو الأجواء بينهما،
وإلا انكسرت جرة اللبن، وضاع جهدهم وجهادهم فى
المنصورة!

و الملك الناصر كان يقود ملوك وأمراء بنى
أيوب فى موقف.. لم يحدث من قبل.. ولم تنزل لسه

مكانتهم فى "المحروسة" ولهم منزلتهم فى قلوب
الأهالى من كافة الطوائف، هؤلاء الذين لا يقتنعون بأن
يحكموا بواسطة "العبيد" دون وجود لسيد يوجههم.
وقد شاعت الإشاعات وتحركت القوى ضد ما
جاء به المماليك الصالحة من تجاوزات لا يقرها
الشرع، فقد يتحمل الناس الكثير من العنت والفقير وأن
يستمتع المماليك بمحاصيل حقولهم ونواتج صناعاتهم
و ثرواتهم. لكن لن يتحمل الناس أن تخترق عقيدتهم
وتداس معتقداتهم!

وفوجئ أمراء المماليك بإقطاى يطلب تنفيذ
الاتفاق المعقود بين المماليك، بأن يكون المالك من بنى
أيوب، والأتابك له من المماليك.. وبذلك تسحب من
ملوك بنى أيوب الثائرين فى الشام.. تلك الحجة، التى
تجد صدى عند جمهور المسلمين.

وأيد هذا الاتجاه شمس الدين بلبان الرشيدى.
وسيف الدين سنقر الرومى، وهما أمراء لهما
مماليكهما. وفى هذا الاجتماع أمكن لإقطاى أن يعزل
شجر الدر والملك المعز فى ناحية. وتمنى لو أن شجر
الدر تمسكت بمعارضتها. أو تمسك عز الدين أيبك
بلقبه ومنصبه الجديد.. فى هذه الحالة، القوة العظمى
فى يد إقطاى ومماليك عز الدين أيبك ليس لها حليف،
ولن تستطيع التغلب على قوة الأمراء الثلاثة فسوف
يكسبها لنفسه، وقد أدركت شجر الدر لعبة إقطاى
الجديدة، تدخلت بحنكتها وسألت:

- يعنى أنكم.. تريدون الأمير عز الدين أيبك "أتابكا"
وليس سلطاناً؟

فوافق سنقر وبلبان على ذلك.. على أساس أنه
نفس الرأى القديم الذى لن يثير الجمهور ضد المماليك.
وضغطت شجر الدر على يد عز الدين أيبك أن يهدأ
فقد حصلت له على منصب الأتابك بعد أن لاح لإقطاى
أنه سيفوز به، وبانتقال بلبان وسنقر إلى صفه مرة
أخرى. وأمام علماء البلاد تمت موافقة الملك المعز
على أن يكون أتابكا.. بما فى ذلك من تنازل وتضحية
منه، طلباً للحلول الوسطى. وكسبت شجر الدر معركتها
بحنكتها. والأمر لن يعدو إلا تبديلات طفيفة فى
الأسماء. لكن المال والنفوذ والسلطة ستكون فى يد
زوجها، ويعنى ذلك أنها الشريكة القوية التى تحسم
المواضيع وتعقلها.

وبذلك التصرف سيهدأ اعيان البلاد وخليفة
المسلمين فى بغداد، وقد يحبط الملك الناصر.. كما
سجد ذلك صدى طيبافى نفوس الناس بمصر، فثمة
"سيد أيوبى" سوف، يوجه المماليك ويتسيدهم.. وعليهم
تذكر بطولاتهم فى "المنصورة" دون شائبة تشوبها.



وقع الاختبار على الطفل "موسى" بن الملك
الناصر يوسف بن الملك مسعود بن الملك الكامل ابن
الملك العادل، شقيق الملك الناصر صلاح الدين
الأيوبي" وسلطنوه باسم "الملك الأشرف موسى" وهو
طفل صغير السن" خطب الخطباء باسمه من فوق

المنابر. على أن يأتي أسم "عز الدين أيبك" بعده
كأتابك "وصى" .. فهذأت الأوضاع الملتهبة إلى حين.
لكن المشاكل عادت تثار أمام الأتابك عز الدين عندما
كان الخطباء من على منابرهم. يكيلون الدعاء له. لكي
يقوم بصد المعتدين المرافقين للملك الناصر، صاحب
الشام، حتى يبطل الله مقصده في غزو مصر
المحروسة..

أما وقد عبرت قوات الملك الناصر أرض
فلسطين، وبدأت تحتشد على حدود مصر الشرقية،
وتتجمع في غزة . فقد بات على الأتابك عز الدين
أيبك، أن يجهز مماليكه. ويخرج لملاقاة هذا الملك
الغاضب الذي يتوعد المماليك الصالحية بالعقاب
الشديد، ويذكرهم على انهم "عبيد" دنسوا الشرع
والعادات.

وتفاحس إقطاي عن معاونة عز الدين أيبك
كما تراخي الأمراء الآخرون . فأسقط في يد أيبك..
وبات أي قرار يتخذه.. هو قرار خطير. قد يدفع ثمنه
غاليا.. إذ كيف سيخرج بقواته لملاقاة الملك الناصر
خارج العاصمة، ويترك إقطاي بكامل قواته بداخلها؟!!

(١٧)

سيف ينتمى لصاحبه

□ تحرك جيش الملك الناصر صاحب الشام نحو مصر، جمع عددا كبيرا من الطامعين فى المناصب والنفوذ، فالمشهور عن مصر انها "البقرة الحلوب".
مهما شربوا من لبناتها فهي معطاءة.. والملك الناصر فى حربة، معضد بالشرعية يقوم المعوج، الذى أتاة المماليك الصالحية بغرورهم وكسرهم للعوائد.

ومازال لآل البيت الأيوبى فى نفوس جمهور المسلمين مكانة واعزاز، ولم يكن للمماليك قاعدتهم التى أسسوها، إلا ما استمالته شجر الدر فى سلطنتها التى لم تتعد الثلاثة شهور قمرية. ثم حدث الضغط عليها حتى تنازلت..

وإذا ما صعد عز الدين أيبك إلى عرش مصر بأسم "الملك المعز" لم يجد ذلك قبولا من جمهور العلماء والأعيان والأهالى. وحتى من أمراء المماليك أنفسهم، فأنزلوه إلى درجة الوصى "أتابك" لذلك الأشرف موسى الطفل. والخطر يحدق بالمماليك الصالحية عموما، فقد تقاعس الأمير فارس الدين إقطاي عن المساهمة فى صد قوات الملك الناصر. ورأت شجر الدر أن خروج أيبك بمماليكه من "مصر" لملاقاة قوات الملك الناصر دون حسم لتصرفات الأمير

إقطاى. كمن يسلم مصر - بل العرش - إلى إقطاى
ويذهب هو للموت. اذا لم ينهزم هزيمة كاملة، فسيأتى
فى قوات ضعيفة منهوكة يمكن القضاء عليها فى جولة
واحدة..

لذا فإن شجر الدر أصرت بأن يتفرغ عز الدين
أبيك قليلا وهو المشغول بأعداد مماليكه، ويجتمع بها
لأمر له أهميته القصوى!



عندما استمع عز الدين أبيك لمقترحات شجر
الدر - ومع تغليفها للمقترحات فى الحرير السندسى - فقد
رأى بأنها مقترحات بشعة. هاله أن شجر الدر تدبر
مؤامرة لقتل إقطاى والأستلاء على مماليكه فى ذلك
الوقت العصيب، والبلاد يحيق بها الخطر. اعترض
أبيك بداية على مبدأ قتل أمراء المماليك. وحجته أن
ذلك يفتح الباب الخطير، فالموت اذا دخل بين جماعة
كحل سهل. قد يستسهله الجميع، فيأتى على الأخضر
واليابس. البطل والنافع.. حاول أن يدفعها بأن تفكر
فيما يمكن أن يوفق ويقرب بينه وبين إقطاى. وأوضح
لها بأن الناس تخشى بأس المماليك الصالحة لو حدثهم،
فاذا تقاتلوا فيما بينهم.. ماذا يتبقى لهم؟!
وقالت له شجر الدر متأسية:

- ياعزيزى أبيك، انت رجل مثالى تمتلئ بالمبادئ
السامية. ولكن ذلك لا يصلح فى غاية تمتلئ بالوحوش
الكاكرة.. طيبة قلبك وترددك قد يأتيان بكارثته. أدفع انا
ثمنها. انا التى كنت سلطانة هذه البلاد لمدة قصيرة.

وأنت كنت "ملك" هذه البلاد لمدة قصيرة. نحن سويا
تذوقنا هذا العرش.. والعروش لها حلولها الحاسمة
للمشاكل التي تصادفها!



كان عز الدين أيبك قد أصم أذنيه. هو يعرف
بأن حديث شجر الدر الشيق قد يقوده إلى غرضها
النهائي الذي لم يوافق عليه بداية.
وعندما وجدت انه لا طائل من لفها ودورانها
هدأت وابتسمت في وجهة ولمست جبهته.. وجعلته
برهة في أحضانها.. ثم أطلقته لتقول:
- عزيزى أيبك.. دعنى أصرف لك هذا الأمر.. وأحل
لك هذه العقدة التي قد تعقد المسألة كلها.. وثق فى
مواهب شجر الدر.. فقط.. ارسل لى قائد مماليكك..
قطز.. يأتى بقوة مناسبة لحراسة القلعة والقصر..
والمداخل والمخارج..



ومع أن هذا الطلب الذى تطلبه منه يعنى بأن
شجر الدر ستأتى عملا خطيرا، كان عز الدين أيبك
عصبيا وقد حصره إقطاعى فى ركن وضغط عليه.
يأمل فى أى منفذ يؤدي إلى نجاح يتحقق، حتى يفلت
من المازق الذى وجد نفسه فيه مضغوطة. وكان أمامه
الكثير من الأعمال فى تجهيز مماليكه، اعداد أجناد
الحلقة، جمع المال اللازم، شحذ الأسلحة، توضيب
الدواب للزحف وملافاة لملك الغازى.. الذى باتت قواته

تتحرك داخل الأراضي المصرية بعد أن عسكرت أياما
في "غزة" ..

"قليدع زوجته شجر الدر تحل له هذه المسألة
المعقدة مع إقطاي .. هو على كل حال أبدى إعراضه،
ويعتبر أنه سحب يديه بعيدا عن دماء زميله .. ومع
احساسه بالقلق، كان ينبه على "قطز" بأن يحرص على
تنفيذ أوامر شجر الدر كما يجب. وأن يصحب معه
القوة اللازمة من المماليك، التي يتطلبها الموقف،
وعندما سأل قطز، ليحصل على تفسير يمهد له ما هو
مقدم عليه؟ أحاله الى شجر الدر ..

وقطز رأى أن الأمر مشترك بينهما. ما ستراه
شجر الدر، وافق عليه زوجها مقدما!



قامت شجر الدر باستدعاء الأمير بيبرس في
نفس الوقت الذي تلقى أمرا من إقطاي بأن يتقاعس عن
مصاحبة الأتابك عز الدين أيك لصد جيش الملك
الناصر .. وظن بيبرس أن استدعاء شجر الدر له سوف
يدور حول استمالته لكي يستجيب لمعاونة "أيك" في
حربه، لقوات الملك الناصر، صاحب الشام. أو
ستوسطه لإقناع استاذة إقطاي حتى يتحول عن موقفه
المتعنت وتبين له الأخطار التي تحيق بالمماليك
الصالحية جميعا دون تفرقة. بيبرس اذا ما لمح لإقطاي
بهذه الأفكار .. نظر اليه إقطاي طويلا، ثم هز رأسه بما
يعنى أنه يدرك هذه "الأخطار" جيدا .. ويعمل لها
حساباتها الخاصة!

شجر الدر استقبلت الأمير بيبرس فى ترحاب.
وبيبرس يذكر تماما بأنها اخفته وكشفت له مؤامرة
إقطاى ضده لقتله. هذه المؤامرة التى نفاها إقطاى
تماما. وقد بدل المملوك أقواله بأنه جاء إلى الحریم
لأجل اللقاء بجارية يعشقها، واضطر أن يؤلف حكاية
تتقد رأسه، لم يكن بيبرس مقتنعا بتلك الأكاذيب،
و الأحوال تبدلت سريعا بسلطنة شجر الدر التى طلبت
منه ان يستمر مع إقطاى على اعتبار أنه رجلها الذى
يقود ممالیکه. كان بيبرس قد ارتاح بإبعاد إقطاى عن
العرش. بيبرس أمن على نفسه، مع ما يمثله ذلك من
خسائر.

كان بيبرس- فى الواقع- ينتظر استقرار
الأحوال وتنفيذ القرار السلطانى بإقطاعياته ووظائفه..
وللحظة.. ظن أن الوقت قد حان، فهم يستميلونه
ليعاون الأتايك فى حربة. لكنه لا يملك القوة المؤثرة.
والممالیک الذى يترأسهم هم ممالیک إقطاى، يدينون له..
ولا يزال حتى ساعته مجرد زميل لهم، لا يملك إلا
الشهرة والمبالغة فى بطولاته، من باب رفع شأن
إقطاى نفسه على بقية الأمراء الكبار. كان بيبرس فى
هذا اللقاء مثلها أن يعرف سبب الاستدعاء على
عجل..

•••

أبلغت شجر الدر بيبرس بما لديها من أخبار
حول حملة الأيوبيين على مصر "اعتبر بيبرس ذلك
مقدمه" ثم انعطفت لتبلغ بيبرس بأن من ضمن أهداف

الملك الناصر الذى سيغزو البلاد الثار من قاتل الملك المعظم تورنشاو. وممن يضىف عليه حمايته "هنا جديد مشكوك فى صحته" وعندما لم بيد بيبرس انزعاجا، أشارت إلى سيفه وقالت:

- سيفك يا أمير بيبرس علق به دم الملك فرانس الصليبي، وعلق به دم الملك المعظم تورنشاو المسلم.. دعنى أسألك "إلى أى ملة ينتمى هذا السيف!؟"

كسر الأمير بيبرس بعينه المنقوطة ونظر إليها بالعين السليمة وابتسم فى هدوء وقال:

- أنه ينتمى للمماليك الصالحة ياسيدتى.. وقد صارت لهم ملتهم وخصوصياتهم!

ابتهجت شجر الدر. وكانت منذ أن صعدت إلى عرش السلطنة تتصرف كسلطنة.. ولا تقابل زوارها إلا فى قاعة العرش، قد تقف أو تتمشى.. ولكنها اذا جلست، جلست على ذلك المقعد العالى المحاط بالاستائر والزخارف. جعلته يقترب من العرش وسألته:

- واذا كان الأمر سيذهب من بين أيدينا يا "أمير بيبرس" هل يدافع سيفك عن مصالح الأمراء الصالحة حقا؟

تملى بيبرس كرسى العرش برهة ثم راح يتملى أناقته كأمرأة جميلة وقال:

- وهل تشكين فى ذلك ياسيدتى. سيبقى سيفى دائما فى خدمتك. ولكن إذا ما تم تنفيذ القرار السلطاني وصار لى جماعة من مماليكى، فان سيفى سيكون أقوى وأشد، أنه الآن سيف لشخص واحد مع من أقودهم ولا أملكهم..

مهما طلع أو نزل فهو سيف واحد. اذا تكاثرت على شجاعته مجموعة من السيوف الجبانة ارهقته وخذلته. ببيرس لاينى يذكرها بالوعود والقرارات المقطوعة له.

قالت شجر الدر فى شئ من الاسف:

- الأحداث التى توالى شغلنا عنك يا أمير ببيرس، سوف تتل حقا فى الأقطاعات والوظائف كما تأمل تماما.

كان ببيرس يرى أن السلطنة شجر الدر لم تطلبه من أجل ذلك فقط.. فقد بدأ يشكرها ويقدم لها آيات العرفان، فقالت:

- ليس بالكلام يا أمير ببيرس. إذا وددت أن ترد جميلى لك لابد وأن يكون ذلك عمليا.. أريدك أن تثبت لى بأننى ادخرت لنفسى شيئا نافعا. عندما استدعيه لا يخذلنى.

توقع ببيرس بأنها ستدفع به لمعونة زوجها عز الدين أيبك فقال:

- لقد طلب منى الأمير إقطاى بأن ألتزم حدودى. وانا قائد مماليكه لا يحق لى بأن أحمى عما يراه. ومع ذلك فقد بينت له بأن انتصار الملك الناصر صاحب الشام على عز الدين أيبك سيسقطنا جميعا فى حباله.

- وماذا كان رد إقطاى؟

- أبلغنى بأن نترك الأثنان حتى يضعفان ومن يفوز منهما يسهل ازاحته بقليل من الجهد.. فيكون الطريق أمام "الملك الجواد" مفتوحا..

- إلا ترى أن فى ذلك مؤامرة محفوفة بالأخطار؟
- كل ما أستطيع تقديمه يمولاتى هو جهادى مع
"الأتابك" عز الدين أيبك، ولعلى أصل إلى رأس الملك
الناصر فأقطع رأس الحية.

اقتربت شجر الدر من بيبرس حتى بدت وكأنها
فى احضانه، وهمست فى اذنه:

- رأس الحية هنا يا أمير بيبرس.. فى أمكانك أن ترث
كل ما تتقوى به وتأمل فيه.

عندما أخذته الدهشة وراح يفكر فيما تقوله..

أخذت تفح فى اذنه:

- اقتل إقطاعى يا بيبرس.. أنه البادئ بالتأمر عليك،
والآن يتأمر علينا جميعا.. اطماعه ليس لها حدود،
عندما تسلطنا كماليك صالحية أفسد علينا الأمر وأصر
بأن يأتى بواحد من بنى أيوب.. والأمر كان يمكن أن
يستتب لنا. هنا خير كثير، يكفيننا جميعا.. يريد أن
يستحوز عليه وحده.. اذا ملك الفرصة.. لن يتردد فى
قطع رؤوسنا جميعا..

هلع بيبرس قليلا.. ثم تماسك.. وقال:

- إذا طلب الأتابك عز الدين ذلك.. سأقوم بالعمل.

نظرت إليه شجر الدر مليا ثم قالت:

- تعلم أن عز الدين أيبك لن يطلب منك هذا الطلب
مطلقا، انا الذى اطالبك بهذا العمل.

وبعد قليل من الوجود.. قال بيبرس:

- أتدرين يا سيدتى بأن دم الملك المعظم أفسد بطولتى
فى المنصورة، وانا الذى قطعت رأس الملك الصليبي.

ماذا سيكون موقفي وأنا قاتل أميري إقطاي.. الا اننى
أألب الجميع على قتل بيبرس نفسه.. ويصير قاتلي
كاسبا للدنيا والدين.

- أنت بذلك ترفض طلبى يا بيبرس؟

- قتل إقطاي ليس مشكلة، قد يقوم به خادم قليل
الشأن، لكن إذا ما قمت انا به، لن أرت مسن تركته
شيئا، هناك أخطاء لا تغتفر يا سيدتى.. لماذا أنا
بالذات؟!

- حسنا، يمكنك أن تنس ما دار بيننا وتتصرف.

واستدار بيبرس على الفور وانصرف. ووقفت
شجر الدر تلاحقه بنظراتها حتى خرج من الباب البعيد
رفت على شفيتها ابتسامة وقد ارتاحت اساريرها، فقد
حصلت على موافقة بيبرس الضمنية على قتل إقطاي.
ضمنت عدم هياج مماليكه.. وأن يقوم بيبرس بالامساك
بزمam الأمور بعد قتلة، وهو ما كانت تسعى اليه فى
الأساس!..



عندما كان بيبرس يغادر الجناح السلطانى شاهد
قطز يدخل.. اندهش كل منهما لرؤية الآخر. وكل
منهما كان يخفى علاقته بزميله لتنازع الكبار.. كما
كانا يخفيان ارتباطهما بشجر الدر.. فى هذه اللحظة
أيقن بيبرس بأن شجر الدر - داهية- ولن تعدم وسيلة
لكى تتخلص من "إقطاي" الذى تمادى واطهر نفسه بأنه
"الملك الجواد" الذى ينتظره عرش مصر. بادر قطز..
بيبرس بالسؤال:

- أراك قادما من داخل القصر يا أمير بيبرس؟

قال بيبرس:

- لقد أفنعتنى السلطانة شجر الدر بأن انضم
للاتابك بقواتى المتواضعة.. يبدو أن الملك الناصر قد
افترب من ديارنا بشدة.

هلل قطز.. وقال:

- هذا يسعدنا كثيرا يا بيبرس. لكن ذلك يتعارض
ورغبة الملك الجواد!

ضحك بيبرس من انفه وقال:

- إن ذلك لن يستمر طويلا يا صاحبى. وبين يوم وليلة
يغير الله من حال إلى حال

•••

وقف قطز يعتصر ذقنه بأصابع يديه متفكرا
فيما وراء كلام بيبرس. وكل منهما ذهب فى اتجاه
مضاد. وكل منهما كان يصحب الآخر معه فى نفس
الاتجاه!

(١٨)

بين السياسة والقوة يفوز الأكثر مثابرة

□ حوصر عز الدين أبيك بالإحباط. الأخطار
الجسيمة باتت تحديق به، تهدل وهو يقول:
- كل ما أملكه أنى أثق فى الأمير قطز، سأتركه مع
جملة من المماليك يحرسون القلعة ويغلقون المسالك
إليها.. مع أنى سأكون فى أشد الحاجة له ولمن معه
من المماليك.

ضحكت شجر الدر من أنفها وقالت:
- هذا كله رائع يا زوجى العزيز.. هذا كله ينم عن
روحك المسالمة.. هذه الروح التى جعلتتى زوجة لك..
أنك تقدر الأمور وتحللها ولا تحيد عن الأصول
المتبعة:

"ثم قالت فى مرارة"

لكن أنا وأنت لا يمكن أن نصل إلى ما يفكر فيه
إقطاى.. أطماع هذا الرجل لن تتوقف عند الحصول
لنفسه على عرش مصر، أنه يسعى لإزلائنا وإجبارنا
على الركوع.. ها هو يعيش بيننا بصفته الملك
الجواد.. لكن ما يسعى إليه حقا هو أن لا يكون فى
مصر سلطان غيره.. هل تدرك ما يفكر فيه إقطاى

ياعزيزى؟ أم أن إنشغالك بالمسائل العامة التى أغرقت
نفسك فيها، صرفتك عن أهداف إقطاى الخفية؟!



حس عز الدين أيبك أن شجر الدر تتقرب إليه
كزوجة وتحنه للفعل كسلطانة، فقال بعد قليل من
التفكير:

- سبق وابلغتك بانى لا استطيع فى هذا الوقت الحرج
أن أعتقل إقطاى. سوف يسبب لنا مماليكه ارتباكا فى
الداخل، ولا بد وأنه أعد للأمر عدته واستعد.. فمن يأتى
بتلك التصرفات لا بد وأنه هيا قواته للنزال.. وأخشى
أن يبادر وينضم للملك الناصر.. وموقف باقى الأمراء
غامض، وفى النهاية، نظهر أمام الجميع أنا وأنت.
المتمردان على الشرع والدين والعادات المتبعة، فيحق
للملك الناصر فى حالة انتصاره أن يوقع علينا العقاب
الذى يراه..

ظلت شجر الدر تتأمل عز الدين أيبك وهو غير
منتبه لها.. ثم قالت:

- لحسن الحظ يا زوجى العزيز أن الذى كلفه إقطاى
بقتلك واحد من ابطال معركة المنصورة الأوفياء لى..
اندهش عز الدين أيبك إذ سأل:
- قتلى أنا؟

وانتبه إلى أن شجر الدر انتقلت إلى موضوع
آخر، بدا أنه لم يستوعبه.. وعندما أدرك تفاصيله
أصيب بالانزعاج.. لكنه وقد علم بزيارة بيبرس لشجر

الدر .. وقد استدعت قطن أيضاً، ذلك جعله يربط بين
زيارة بيبرس لها وأهداف إقطاي وانقلابه، أخذ يغمغم:
- بيبرس؟! لا بد أنه بيبرس!؟

وقال في نفسه "لعلها شجر الدر التي دبرت لقاء
الداخل والخارج من القصر السلطاني.. أن يشاهد قطن
بيبرس".

قالت شجر الدر وكأنها تعتذر بأنها حاولت
علاج المشكلة المستعصية دون إزعاجه:

- لقد أتى إلى بيبرس واخبرني بأن إقطاي سيظهر بأنه
غير موافق على اشتراك بيبرس في محاربة الملك
الناصر، لكنه في الواقع سينترکه يحدد موقفه بنفسه وإن
شاء يذهب، ولكن بناء على خطة يلتزم بها، ينتهز
بيبرس الفرصة ويقتلك أثناء المعركة.. وإذا ما كانت
قوتك وقوة الملك الناصر قد أرهقتا يقوم هو بحسم
الأمر لصالحه على وعد بأن يجعل من بيبرس "أمير
الأمراء" ومقدم لعساكره.

عندما كانت شجر الدر تحكى ما عندها كان
عز الدين ينظر في اتجاه قطن فيراه يهز رأسه
بالموافقة وكأنه على علم بما حدث ويحدث.. وإذا ما
انتهت شجر الدر من اقوالها.. بادر قطن وقال:
- بالفعل شاهدت بيبرس خارجاً من مقابلة السلطانة،
وقال لي "بين يوم وليلة يبذل الله من حال إلى حال".

•••

جلس عز الدين أيبك مذهولاً مما يدبر له في
الخفاء. ابتسمت شجر الدر راضية عما دبرته لتخرج

أبيك من تلك السلامة النفسية، عندما يميل دائما إلى
"المثالية" والتعقل. ولا يحاول اجتياز المغامرة - في
نظرها - تكون المغامرة مطلوبة أحيانا. وقد رأت أن
التخلص من إقطاي سيعبد نصف الطريق إلى هزيمة
الملك الناصر صاحب الشام. ويخلص عرش مصر من
اثنين أقوىاء بنافسونهما. وواصلت شجر الدر دق
الحديد وهو ساخن:

- يا زوجي العزيز، إقطاي لن يحاربك وجها لوجه،
هو ليس نبيلاً مثلك. إقطاي يرى أنك سلبته عرش
مصر. لن يكف عن التآمر ضدك حتى يتخلص منك
ومنى. يقتلنا جميعاً.. فنحن شركاء... وهو لا يحترم
حق الشركاء مطلقاً.

وبدا عز الدين أيبك مسلماً لما تراه شجر الدر
على أساس أنها وجهة نظرها والتي تتحمل نتائجها.
وقد مال إلى طريقته في حل المعضلات والمشكلات
العاجلة.

•••

كُتبت شجر الدر رسالة إلى الأمير فارس الدين
إقطاي وارسلتها له مع مخصوص..
"إذا كنت لا تزال ترى نفسك سيداً لقلعة الجبل
وأنت الملك الجواد، قابلني هذا المساء للأهمية. احضر
إلى القصر السلطاني. على أساس أنك ستقابل "الأتابك"
فهو يستعد للزحف بقواته إلى الشرق لملاقاة الملك
الناصر، وقد لا يعود من حربه الخاصة به!!"
وختمت الرسالة بخاتمة السلطاني القديم.

فرض إقطاعى الرسالة وقرأها فى حضور بيبرس قائد مماليكه. ابتسم فى غرور. لعله اعتقد أن الدنيا تبسّمت له أخيراً. ففى الرسالة كثير من الإجابات على الاسئلة التى يثيرها الموقف المعقد.. ويمكن أن تقرأ الرسالة على أكثر من وجه. حدس أن الشقاق قد دب بين أيبك وشجر الدر.. ولا بد وأنه يطلب منها الأموال لتجهيز الجيش، وشجر الدر لا يمكن أن تفرط فيما تراه لب قوتها الرئيسة. بينما يرى إقطاعى نفسه الآن سيد الموقف بقواته الأقوى وأمواله الأكثر وأنه ليس فى حاجة لما بين يديها. رأى بأن شجر الدر، أخيراً قد لانّت وأعترفت بأنه "الأفضل".



الرسالة المختومة بخاتم الملك القديم تفصح بأنها بدلت موقعها، فليذهب فى رهط من حرسه، ويصعد القلعة وليصحب معه بيبرس. لعل الفرصة تسنح له وينفذ ما طلبه منه. وفكر بأن ممالكك أيبك يملأون القلعة.. لأول مرة يفكر فى صوت مسموع، على غير العادة. وبيبرس يستمع إليه ويتصنع عدم المبالاة، فأقطاعى لا يحاور إلا إقطاعى. ولا يستمع إلا لما يقوله لنفسه.

قام بيبرس مع ثلّة من الممالك بصحبته حتى العتبة السلطانية.. دخل إقطاعى.. وانتظر بيبرس هناك يتلفت حوله بين الحشود والتجمعات عن شخص يعرفه ثم جلس وقد أسند ظهره إلى الجدران الحجرية الغليظة، لعله فى هذه اللحظات بالذات كان يشاهد بعين

الخيال ما ستأتى به الدقائق القادمة من أحداث. لم يعد الموقف العاجل، يتحمل التأخير والتأجيل أكثر من ذلك والملك الناصر يواصل جهوده ورسائله وزحفه.

رسالة شجر الدر بطلب أقطاي، أكدت لبيبرس بأن لقاءه بالسلطانة تم بدون أن يفشى، وإذا ما اختلطت الأمور وتشابكت فقد يخنق بين الطيبت أول وآخر الخيط- يكون على طالب الطرف أن يتحلى بالصبر- لكن الصبر فى هذه الحالة سيكون محملا بحمل من الكوابيس والضغوط. عموما بعد قليل سوف يرى إن كان سيصعد نجمه ليكون ثالث الاثنين بلا منازع، أما إذا عاد "إقطاي" ليمارس عليه نفوذه. قد يفكر فى أن يفقز إلى الكفة التى تقول كل الشواهد بأنها الكفة الشرعية، الراجعة، أنه "الملك الناصر". الذى يمكن أن يجعل منه طوق النجاة، ينضم إليه ضمن المماليك الصالحة، لعله يرفعه إلى السماء ليجعل منه قمرا.. يكيد به من لم يفكروا فى الاتضمام إليه.. الذين لا يستجيبون لرسائله.

كان ببيبرس وهو مستغرق فى أفكاره يقطع بها الانتظار المتوتر وهو جالس بالقرب من عتبة القصر.. يبدو كمن يتسلى بمشاهدة جنود الحلقة يشهلون للسفر. وبينهم أعداد من ممالك الأتابك عز الدين أيبك. راح يبحث حوله عن "قطز" وكل من يساله عن قطز يرد بقوله: كان هنا.. وسيظهر حالا!..

•••

استقبلت شجر الدر. الأمير فارس الدين إقطاي
وهي في أبهى زينتها، عندما تقدم نحوها، كان برفقة
أربعة من مماليك شجر الدر العظام، يسرون خلفه
خطوة بخطوة كتشريفة لكبار الزوار. أوصلوه إلى باب
القاعة الكبرى. ادخلوه وأغلقوا الباب..

وقفت له شجر الدر عندما ظهر في أول
القاعة.. إقطاي إذا ما دخل القاعة تمهل، وقد أغلق
الباب العريض في ظهره. اخذ يتلفت حوله.. ثم رنا
إلى المقعد السلطاني.. مرتفع ومهيب.. نزلت شجر
الدر من أجله درجة من درجات السلم العريض..
العرش خلفها مذهبا ومحاطا بالستائر المخملية، يعلوه
شعار السلطنة القديم.. النسر الأيوبي الذي لم يتبدل..
نسر صلاح الدين فاردا جناحيه.

راح إقطاي يقترب في خطوات بطيئة واثقة من
المكان الذي تقف فيه شجر الدر، حتى توقف على
مسافة أربعة أقدام من الدرج واستمر يتأمل كرسي
العرش من فوق كتفها الذي انعقدت عليه عباءة تتسدل
خلفها لتكون غلافا للثوب المبيوك على جسمها
الأنثوي الناضج. وبدا له أن شجر الدر تزينت بصفة
خاصة. ارتدت من أجله الملابس ذات الألوان المبهجة،
في وقت تحاط فيه السلطنة بالأخطار. وأن ذلك يتم
على شرفه، كان إقطاي يبتسم لكرسي العرش، وشجر
الدر كانت ترحب به وتبادلته حالة الترحيب.. ولما
كانت شجر الدر قد نزلت درجة من السلالم الخمس فقد

نزلت درجة أخرى اكراما له.. فسارع وصعد درجة وتوقف، ثم صعد أخرى حتى دخل في مجال عطرها الأخاذ ودائرة ففتنتها الأسرة.

هو أيضا كان يرتدى أبهى خلله، تلك الحلل التي لا يظهر بها المماليك الكبار ألافى المناسبات المهمة، فهم دائما في لباس الحرب والعمامة معقودة على نصف بيضة صلبة وتحت العباءة زرد مضمفون من جلود ونحاس يعطل ولوج السيوف إلى اجسامهم. قال لها وهو يضحك متفكها ومحذرا:

- يا سيدتى، لن أركع.

قالت له ضاحكة ومتأسية:

- أنك لم تركع لى وأنا سلطانة، أنا الآن زوجة أتابك.. مجرد زوجة وزميلة يههما مصلحة أمراء المماليك الكبار.

مدت له ذراعها، فصعد الدرجة الأخيرة، جعل ساعده تحت كفها لتتحامل عليه قليلا. ثم تركته واستدارت لتصعد الدرجات التي نزلتها وهو يتبعها.. صار واقفا بالقرب منها. عطرها لم يشغله، قالت له دون أن تنتظر إليه وقد أراحت يدها على ساعد كرسى العرش، بينما هو كان لا يزال يتملى ذلك المقعد الذى يملأ عليه جوانحه. قالت شجر الدر:

- هل اناديك بالامير إقطاى.. أم الملك الجواد؟

ملأ إقطاى صدره بالهواء. تلفت حوله فى كبرياء اعتاد عليه، وبيده المرصعة أصابعها بالخواتم ذات

الأحجار الكريمة راح يربت على الساعد الآخر للعرش، فإذا بتيار من البهجة يَمور في نفسه، يسرى مسرى الخدر، ينتقل من كرسى العرش إلى عروقة. ظل يربت على مسند كرسى العرش وينتظر ما ستقوله شجر الدر، وعندما لم تتكلم قال:

- لقد صرنا وحدنا يا سيدتى، هل يمكننى أن أسأل سؤالا؟

استدارت شجر الدر نحوه بصدرها.. كانت تميل برأسها نحوه فى دلال انثوى، وكأنها تمنحه اذنها ليتكلم.. قال:

- علمت بأن أتاك السلطان، خرج اليوم غاضبا ثائرا. تتهدت شجر الدر وقالت:

- لا يخفى عليك خافية يا أمير إقطاي. فمن أجل ذلك أرسلت إليك.. لعلك قد خمنت هذا.

قال إقطاي فى شئ من الغرور:

- افهم من ذلك يا سيدتى أنى ملاذك الأخير؟ قالت شجر الدر وهى تتهدد مسلمة:

- لا أحد ينكر قوتك وبأسك أيها الملك الجواد. أنت الذى تتكر علينا قوتنا، وتستكثر علينا مناصبنا.. لذلك كان تجمعنا ضدك.. ونحن فى الواقع نقدرك ولا نبخس من شأنك، نحن بدونك..

وابتعدت شجر الدر تجر ذيل ثوبها الطويل المحبوك على صدرها. ابتعدت عدة خطوات، ثم توقفت لتتأمله وهو يقف بجانب كرسى العرش ويده تقبض على مسنده. أشارت إلى المقعد وقالت:

- انظر يا أمير إقطاي، من أجل هذا المقعد يحدث ما لا يرضى عنه الإنسان في الظروف العادية.. أنا لا أخفى عليك. جربت الجلوس عليه، ورأيت كيف يملى على الأشياء لا أرضاها وأنا إنسانة عادية.. وجدت نفسى غريبة عن نفسى. ستجلس على هذا المقعد.. وستجد أنك لست أنت بأية حال.

طنت عبارة ستجلس على هذا المقعد" في رأسه فأنشئ إقطاي وقال:

- هذا العرش يحتاج لمن هو أقوى منه حتى يتغلب عليه.

عادت شجر الدر وأشارت إلى العرش وقالت:

- فى المرة السابقة طلبت منك الركوع لسلطانة البلاد. فأبيت. لكن فى هذه المرة سأطلب منك طلبا لن ترفضه، بل تتمناه أيها الملك الجواد..

اكتفى إقطاي بأن نقل بصره من تأمل جسمها وانفعالها إلى أن يتأمل كرسى العرش السلطانى.. أنها ابرزت مفاتها، ولكن فتنة ذلك الكرسي أروع.. ولا مانع لديه أن يجمع بين الفتنتين فى أول الطريق "وكمما توقعت شجر الدر" كان قد التصق بكرسى العرش عندما سمع شجر الدر تقول له:

- يا أمير إقطاي. تفضل واجلس على كرسى العرش.. هل توافق؟

استدار إقطاي وأخذ يتملى وجه شجر الدر.. انها ترضخ له فى النهاية. كاد أن يلقي على مسامعها بعباب غير مهذب "ألم أقل لك ذلك من قبل، لو أنك

اطعنتى ما وصلت الأمور للتأزم" وتوقع أنها ستطلب منه فى الخطوة التالية.. أن يقتل أيبك.. وولاكيف سيخلو الطريق له إلى ذلك المقعد الرهيب. ضرب إقطاى طرفى شاربه بسبابته واستدار، وجلس على كرسى العرش. تثبت بالمسندين وأراح ظهره على مسند المقعد العالى. وللحظات شاهد الأمراء والأعيان والشيوخ والكتبة ورسل الملوك والشعراء والخدم والحشم يملأون الردهة التى تمتد أمامه.. حتى وهو جالس سيكون رأسه أعلى من كل الرؤوس.. الجميع يحنون له رؤوسهم، تركته شجر الدر يستمتع بتلك الأحاسيس التى جربت تيارها يدغدغ الأفتدة، تلك الأحاسيس التى تجتاح من يجلس على كرسى العرش لأول مرة قبل أن تستغرقه المشاكل والأزمات.. وعندما استعاد إقطاى نفسه قال:

- والثنم يا سيدتى، لابد وأن هناك ثمنا، أرجو أن لا يكون باهظا، ويكون فى إمكانى دفعه.. لكن حذار أن يكون ذلك على حساب كرامتى كأمر قوى ورجل..

حاول أن يقوم من فوق المقعد العالى. لكن شجر الدر اقتربت لكى تثبته على العرش. تستبقه على المقعد. وابتعدت تتأمله ثم قالت:

- أن هذا العرش يليق بك ايها الملك الجواد، وإذا ما خبرت بين أن أعود جارية فى معية الملك الناصر الأيوبى.. أو أكون زوجة لملك قوى، فأنت تعرف ماذا سأختار.

وإذا بالملك الجواد يشرب برأسه فى لحظة
زهو وقد ملأ صدره بالهواء فصار منتفشا فاردا
ذراعيه على المسندين وقد اغمض عينيه وأراح رأسه
على ظهر المقعد فى تهيدة مسكرة.

هنا ستصدر شجر الدر إشارة سريعة لعبد أسود
رهيب بشع الوجه، لتفرج عنه الستائر ويتقدم فى خفة
البير الأسود ويثبت رأس إقطاي بظهر المقعد، وباليدي
الأخرى القابضة على الخنجر المسلول، يقطع رقبة
إقطاي، يذبحه ذبح الشاة.. وإذا بالدماء تنبثق فواراة فى
إتجاهات مختلفة، يصل رشاشها إلى ثوب شجر الدر
تنتثر الدماء قانية على صدرها وساعديها، طالتها
رشاشات الدم والعبد الأسود سيبقى مثبتاً إقطاي على
المقعد يشل حركته ويكبت انتفاضاته وهو مذبوح حتى
يهدم جسده..

شجر الدر لم تتحمل المشهد، فقد فرت هاربة
خلف الستائر وتبعها العبد الاسود بعد أن تأكد من موت
الأمير.. وتخلو قاعة العرش إلا من الأمير قطاي
المذبوح.. جالسا على عرش مصر، وكأنه فى غفوة...
وإذا بالمقتول يقوم ويقف.. يترنح وهو ينزل
الدرجات الخمس العريضة، يمشى إلى منتصف الردهة
السلطانية ثم يتعثر وينكفى على وجهه مبعثرا على
أرضها، فتتدحرج عمامته حتى ترتطم ببياب القاعة
العريضة. الباب الذى يفتحه الحرس، ومن ينتظرون
خارج القاعة. فيشاهدون الأمير إقطاي غارقا فى

الدماء.. يذهب أحدهم ويأتي بالأمير بيبرس فيتناول
عمامة سيده من فوق البسط.. ثم يقترب من جثته
ويميل ويغلق له عينيه، وهو يتمثل الغضب والثورة..
يسأل المماليك الحراس ومن تواجد معهم من الخدم:

- هل شاهد أحدكم قطز؟

فيجيب المماليك:

-لا.. لم نشاهد قطز.. الأمير إقطاي كان بالداخل وحده
مع السلطانة شجر الدر.

ويقول لهم بيبرس:

- أنتم شهود على ما حدث.. ابحثوا عن قطز، أريد أن
اعرف أين كان عندما قتل استاذي إقطاي!؟





(١٩)

القتل يأتى بالقتل

□ تحققت نبوءة عز الدين أيبك.. فالقتل لا يُلْتَمَى إلا بالقتل، ففي هدوء ينزل ببيرس مع مماليكه من قلعه الجبل وفي صحبته جنه سيده الأمير إقطاي. لكن خبير مقتل الأمير إقطاي سينتشر سريعا. وسوف يقوم الأتابك عز الدين ايبك بإلقاء خطبة في عسكر الحلقة ومماليكه، ومن صعد إلى القلعة من الشيوخ والأعيان.. ومن خلال عرضه للخطر الخارجى والأحداث الداخلية التى قد تكون مرسومة فى "حلب" ومنفذة فى القاهرة. فقد عرض على ممالك إقطاي أن يطيعوا ببيرس بطل معركة المنصورة. وأنهى كلمته بأن قال:

"دعونا نوقف الملك الناصر ونرده خائبا إلى الشام، ثم نرى من الذى قتل الأمير أقطاي".

وأعقب ذلك بأن سمح بصعود حملة الأخبار الواردة من الشرق إلى المنصة، يصرحون بما لديهم من أخبار ويعلنون بأن جيش الملك الناصر تحرك من العريش واقترب بشدة من ديارنا..

أخذ "الرواة" يصفون قوات الملك الناصر وأعدادها وأغراضها. ومع أخبار جيش الناصر وما ينتويه للممالك، تخفتت انفعالات كثيرة كانت متوقعه

عقب مقتل إقطاي" ومعظم الحضور كانوا على علم بموقف إقطاي من تلك الحرب التي تهدد الجميع..



انضم معظم ممالك إقطاي لمرافقة ممالك الأتابك أيبك حتى يكون لهم نصيب في الغنائم، ولم يرحل الأتابك بجيشه من القاهرة حتى رافقه الأمير سنقر الرومي بمماليكه والأمير بلبان الرشيدي بمماليكه. وقد سرت إشاعة بأنهما أرسلتا من جهتهما رسلا إلى الملك الناصر، ليكون لهما قدم هنا وقدم هناك. وبقي بيبرس ليشراف على دفن جثمان استاذة ويأخذ فيه العزاء.. على أن يلحق بما تبقى معه من ممالك إذا ما تأزمت الأمور. وكان "الأتابك أيبك" قد أوصاه بأن لا يغادر القلعة، ولا يترك شجر الدر بحراستها القليلة.. عرضة لأي مؤامرة تأتي من الداخل.. ولكل أمير حزبه. وحتى للأيوبيين حزبهم من الأهالي!



.. وسريعا ما وصلت الأخبار بتغلب الأتابك عز الدين أيبك على قوات الملك الناصر الذي لم يتوقع أن يخرج له الممالك بتلك القوى الموحدة- وهو الذي يعلم مدى التنازع بينهم. وفي ظنه بأن كل الذين اتصلوا به، سيقومون بما كلفهم من مهام..!

وقيل أن الأميرين سنقر وبلبان حاولا الانقلاب على أيبك اثناء المعركة، فكشفت خيانتها واجبرهما على الفرار بقلعة قليلة من اتباعهما مع المنهزم، نحو

الشام، وبذلك صادر املكهما لصالح الأمراء من مماليكه. وقيل أن من دفع بهما إلى تلك الأفعال، ليس هو الملك الناصر، ولكنها السلطنة شجر الدر والهدف قتل "أيك" في المعركة ليخلو لها الطريق ليتبوأ بيبرس مكانته المأمولة، ومع أن تلك الأقاويل لم يثبت صحتها. وبعضها أو معظمها اثيرت للوقيعه واضعاف وحدة أمراء المماليك، إلا أن أيك كان صدره قد امتلاً بالغضب من بيبرس، وشجر الدر، ورأى فيهما قاتلان. وفي ظنه أن من قتل إقطاي هو - بيبرس - حتى يرث مماليكه ووظائفه وحريمه وكل ما يمت له، بتحريض من شجر الدر.



الواقع أن أيك - الذي شارك في التخلص من إقطاي بالصمت.. وذهنه مشغول بحملة الملك الناصر على مصر، فهو اذا ما حقق النصر حاول أن يستعيد "أيك" المسالم، طاهر الذيل.. وأن يبرئ ساحته من قتل إقطاي، فقد توعد بعقاب ينزل على قتلته، على أثر عودته إلى مصر - وشبهاته جميعها - حامت حول بيبرس * ليس غيره * قاتل الملوك. الملك رايدا فرانس و الملك تورنشاه. والملك الجواد..



أيقن بيبرس أن أيك لن يسمح له بأرث ضخم من مماليك سيده، بجانب ما عنده، وهو بذلك سيصير خطراً على [أيك]. وشجر الدر "المنتهة معه" قد تستخدمه كخنجر يندب في صدر أيك.. أو ان أيك

سيسارع ويتخلص منهما.. لذا أثر أن يصحب مماليكه
وما بقى له من ممالك سيده، وما أمكن جمعه من
أموال وثقائس ويغادر مصر.. إلى الشام.. للانضمام
إلى الأيوبيين هناك!

•••

عندما عاد عز الدين أيبك منتصرا.. كان قد
تخلص من الشركاء جميعا. إقطاعى بالقتل- والملك
الناصر بالهزيمة- وشجر الدر بوضع الاتهامات فوق
رأسها، إن تحركت ضده حاكمها كقاتلة.. ويبرس
بالهروب من أمامه.

لذا والظروف تساعده تماما، فقد أعلن خلع
الملك الطفل "الأشرف موسى" وترقية نفسه من أتايك
إلى "الملك المعز" وأخذ يستعد ويزيد من قوته لمقابلة
خصومة من الأيوبيين أو من تسول له نفسه التمرد من
المماليك الصالحة والبرجية!

•••

لما استقرت الأحوال في مصر للملك المعز
طلب من صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ أن يزوجه
من ابنته الجميلة، فلما علمت زوجة شجر الدر بذلك،
ثارت تائرتها كأمرأة وسلطانة.. وقد قررت الخلاص
منه قبل أن يتم زواجه من أميرة موصلية- لكن الملك
المعز- وقد خبر الخيانة والقتل. كان يحتمى بعدد كبير
من حرسه وخاصته. ودائما كان بين مماليكه.. المكان
الوحيد الذى يوجد به وحده هو "الحمام" المعطر،
ومغطسه المتسع.. هنا لا يوجد إلا عبيد أحباش- كما

اشترت واحد. منهم ليذبح لها إقطاي، فلن تعدم وسيلة
بأن تشتري أكثر من واحد.. ليخلصونها من الملك
المعز.. الذى مافتأ يهتم بنفسه ويتمرّد عليها ويركنها
على الرف!

"يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول
عام ٦٥٥ - الموافق ابريل عام ١٢٥٧ م ضرب الخدم
الملك المعز.. على أم رأسه بالقباييب السنت الطويلة
التي يستخدمها العبيد فى اقدمهم الكبيرة، وتم أغرقه
فى مغطس الحمام، ليصعد إلى عرش مصر أبنه الغلام
الأخرق باسم "الملك المنصور نور الدين على" ويكون
أتابكه-" الأمير قطز.."

وقد ظن بيبرس وهو بالشام بأن صاحبه قطز
يلعبها خرساء بكماء.. حتى دانت له، فقطعها لنفسه!

• • •

لعل بيبرس وهو فى منفاه قارن حظه بحظ
قطز فامتلاً صدره بالسخط. والشام تهب عليه ريح
التار والدمار ومصر بعيدة فى مأمن.
ولما علم بيبرس بأن الأتابك قطز أعطى
الفرصة كاملة لتنتقم أم الملك المنصور لمقتل زوجها -
قامت الأرملة الحزينة بقتل شجر الدر فى نفس
مغطس الحمام.. وبنفس قباييب العبيد الثقيلة. بعدها
جمع "قطز" الأمراء والعلماء وأعيان البلاد، وأظهر لهم
خطورة الأخطار المحدقة بمصر، بسبب العاصفة التي
تدمر كل ما تطوله ولا تخلف خلفها إلا الخراب
والموت. أنهم المغول الذين يحرقون الأخضر واليابس.

كما أنه راح يظهر لهم الخطر الصليبي الذى عاد يحرق بهم..

وصل بيبرس إلى القاهرة فى نفس اليوم الذى اجتمع فيه كبار القوم يناقشون تلك الأخطار. وقد استقبل بيبرس استقبال الأبطال، يأمل الأهالى فى مساعدتهم الصادقة وتحقيق نصر آخر على الأعداء الذين يهددونهم. اكرم قطز وفادة الصديق القديم، وقام بيبرس بتحريض كبار البلد بأن يضعوا الأمر بيد الأتابك قطز ويتقوا فيه.. اذ ضرورة وجود سلطان قوى على البلاد ليخاطب المغول باللغة التى يفهمونها ولأن بيبرس كان قريبا من الأحداث فى الشام فقد راح يصف للناس بشاعة ما يحدث هناك على يد جحافل التتار..

وكان بيبرس أول من رفع يده مؤيدا.. سلطنة قطز وعزل الملك المنصور الأبله المريض. حصل بيبرس لقطز على موافقة الأعيان والكبار. لينصب ملكا، ولم يكن أمام بيبرس إلا أن يفعل ذلك حتى يحصل لنفسه على مكانة "الوزير" الأول وقائد جيش السلطنة الجديدة. إذا ما تم خلع "الملك المنصور". وتولية السلطنة لقطز، باسم "الملك المظفر".

(٢٠)

الخطر المغولى يدهم الشام

□ قبل أن ينصرم عام (٦٥٧هـ / ١٢٥٩م) قام هولاکو - عقب توجيه انذار للملك الناصر صاحب حلب- بدفع جيشه من بغداد فى اتجاه الشام. وفى مقصده النهائى، عدم التوقف إلا فى كروان سراى. "محط الرجال" مصر" واسقاط حكم المماليك. وقد كشف له جواسيسه تنازع المماليك بعد قتل الملك المعظم تورنشاه. وأخبره جواسيسه أيضا بأن الحملة الصليبية على دمياط انهكت جيش مصر، وأفرغت أيدى قادتها من الأموال" فلن يتمكنوا من التصدى له وتنازع الأمراء قائم فسيسلموا للمغول. وحكم الشرع، أنهم أرقاء وعبيد لا يجوز لهم حكم البلاد الإسلامية..

تطلع هولاکو لاحتلال الشام ومصر وبأن يستخدم "الملك الناصر" صاحب حلب والذى بادر وارسل إليه باشارات الطاعة والولاء، كواجهة يبرر بها الزحف على الشام، ومنها إلى "كروان سراى". وإن كان المغول ليسوا فى حاجة للتبرير" لكنهم يعملون لتفريق القوى واضعاف المواجهة.

وقد انضمت إلى قوات هولاکو.. قوات صليبية من جيش "هيثوم ملك أرمينيا الصغرى" وبوهيموند السادس أمير أنطاكية. كان ذلك طبيعيا أن يتعاون

الصليبيون مع التتار ضد "الأمراء المماليك" وهم القوة
الإسلامية الفتية الجديدة، المعادية للمغول، والصليبيين،
وبنى أيوب فى الشام!.

•••

سار هولالكو بقواته إلى حلب. وأمر بإقامة
ثلاثة جسور على نهر الفرات، أحدهم عند "ملطية"
مدينة بشمال حلب من ناحية الشرق. وهى قاعدة بلاد
الثغور. والثانى عند "البيرة" قلعة بشرق نهر الفرات-
والثالث عند "قلعة الروم" قلعة حصينة غربى شط
الفرات، مقابل البيرة، وتعرف بقلعة المسلمين.

عبرت القوات المغولية نهر الفرات بواسطة
هذه الجسور، وفى الطريق قصد هولالكو ديار بكر،
ونزل على "أمد" وهى مدينة فى ديار بكر واقعة على
نهر دجلة، وأرسل إلى الملك السعيد نجم الدين أيلغازى
صاحب مردين "وهى قلعة ديار بكر" واقعة بين
الجزيرة الفراتية وأرمينية". أرسل إليه يستدعيه. لكن
"الملك السعيد" أثار أن يرسل ولده ومعه الملك المظهر
قرا أرسلان، وقاضى القضاة مهذب الدين محمد بن
مجلى والأمير بلبان. ومعهم هدية ورسالة منه تتضمن
الإعتذار عن الحضور لمرضه الشديد، فلم يقبل
هولالكو ذلك العذر، وعلل تأخره بتخوفه من مهاجمة
الملك الناصر صاحب الشام لبلاد.

ومن ثم حجز هولالكو الرسل عنده، وفيهم ابن
"الملك السعيد"، وأعاد القاضى بمفرده ليخبر "الملك
السعيد" بما قاله هولالكو، فندم "الملك السعيد" على

إرسال ولده. وأخذ في الإستعداد لقتال جيش هولاكو، فأرسل إلى الملك الناصر يحثه على أن يضم جيشه إلى جيش حلب لمواجهة العدو المشترك، حاصر التتار ماردين فلم ينالو منها كثيرا، فتركوها محاصرة، وساروا إلى ميفارقين "وهي قاعدة ديار بكر" وحاصروا أهلها حتى أكلوا- مع عدم وجود الأقوات- جلود النعال، وتولى حصار المدينة القائد "شموط بن هولاكو" وكان صاحبها هو "الملك الكامل محمد بن الملك المظفر شهاب الدين غازي بن العادل الأيوبي".

وقد قاوم أهالي ميفارقين الحصار، وصابروا التتار، واستمروا على المقاومة سنتين، حتى نفذت الأقوات وانتشر بين أهل ميفارقين الوباء، والمرض، مع الجوع وقلة الأقوات مما يسر على التتار الإستيلاء على المدينة وقتل الملك الكامل واستباحتها، وتبع ذلك استيلاء التتار على حران، وبلاد الجزيرة، ثم أمر هولاكو ولده "شموط" بالزحف بمقدمة الجيش المغولي، وعبوز الفرات، والاستيلاء على "بلاد الشام جميعها"، وقد زودة بجيش كثير العدد.

جفل الناس في حلب واصابهم الرعب والفرع، فتركوها إلى دمشق.

وقد استعدت حلب بأسوارها المحكمة البناء.

وأمام الإنذار المغولي، اجتمع جيش المسلمين في "حلب" وتشاوروا في الأمر، فأشار الملك المعظم ابن الملك الناصر صاحب الشام بالأخراج لقتال العدو لكثرة عدده وعظم قوته، ولعجز المسلمين عن لقائهم،

فلم يوافقهم على ذلك جماعة من العسكر، واصدروا على الخروج لملاقاة العدو حتى لا يطمع فيهم، أو حتى يكون لهم مخرج للهروب في أى اتجاه قبل ضرب الحصار على المدينة، لكن الذين لاقوا العدو على جبل بانقوسا ارتدوا فى فوضى إلى مدينة حلب، وعسكر المغول يتابعونهم بالقتل، والأسر، والتكيل، ومن تمكن من دخول المدينة كتب له النجاة، ومن كان خارجها، أما وقع فى الأسر، أو أصابه القتل.

•••

بعدها رحل التتار من حول اسوار حلب إلى بلدة "عزاز" شمال حلب، بينها وبين حلب مسيرة يوم، فتسلموها بالأمان، وعاد التتار إلى حلب، وأحكموا حولها الحصار، حتى استولوا عليها، كان ذلك فى التاسع من صفر ٦٥٨هـ/يناير ١٢٦٠م- وكعادتهم بعد أن ملكوها، غدروا بأهلها، وقتلوا، ونهبوا، وسبوا، وأسروا النساء والذرية، وقد استباحوا المدينة خمسة أيام، حتى امتلأت الطرق، والمسالك بجثث القتلى.

والذين سبواهم من حلب، يزيد عددهم عن المائة الف من النساء والصبيان، وكان الملك المعظم، بن الملك الناصر، قد مات أثناء الحصار لمدينة حلب، وقد أدى ذلك إلى تسليم المدينة، مات يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول سنة ٦٥٨/ فبراير ١٢٦٠م.

كان الملك الناصر فى دمشق عندما تلقى نبأ سقوط حلب واستباحتها، وموت أبنه الملك المعظم، وتبع ذلك وصول رسل المغول يهددون ويتوعدون.

وقد وصل رسل المغول إلى قرية حرستا، وهي قرية كبيرة عامرة في وسط بساتين دمشق على طريق حمص، بينها وبين دمشق مسافة قليلة.

دخل المغول دمشق ليلة الاثنين السابع عشر من صفر ٦٥٨ / فبراير ١٢٦٠م وهم يحملون فرمانا من هولاكو بتأمين المدينة وأهلها وما حولها، ويضمنون الملك الناصر بأن له عند هولاكو تقديرا خاصا، وتعهد هولاكو بسبغ الحماية عليه، وعلى أهله وولده. وفي الفرمان يذكره بما تم التراسل بشأن "كروان سراي" مصر.

•••

وقد اضطربت أحوال الملك الناصر وكذلك أعيان دمشق وقادتها، أمام كثافة هجوم التتار، وأخبار القتل والتدمير فسلموا مرغمين، إلى صدق الوعود المغولية، وقد تأخر الملك الناصر في التحالف مع أمراء المماليك في مصر، ورأى بأن يذهب وقد من أعيان دمشق للقاء التتار ومعهم الفرمان المتضمن الأمان، مال الملك الناصر إلى وعود التتار للاتفاق على تسليم دمشق، وفي ٢٦ ربيع الأول ٦٥٨ / مارس ١٢٦٠م وصل منشور من هولاكو متضمنا تولية القاضي "كمال الدين بن عمر بن بندار التفليسي قاضيا للقضاة ببلاد الشام والموصل وميافارقين وماردين والأكراد والأوقاف، وقد قاومت قلعة دمشق. وكان بها جماعة من "المماليك الصالحة"، فنصب التتار عليهم المجانيق، فارتدوا إلى خارجها، وتسلم التتار القلعة

بالامان فى ابريل ١٢٦٠م ونهبوا ما فيها، خربوا
سورها وآلاتها، وفريق من التتار هاجموا بعلبك
واخذوها، وهدموا قلعتها، ولما علم أهل حماة بما
حدث، خرج أعيانها وسلموا مفاتيح المدينة إلى
المغول. وطلبوا الأمان. وولى المغول على حماة رجلا
أعجميا يدعى "خسرو شاه" وقد أكثر الملك الناصر من
التردد، بين التسليم والقائمة، فبدد الوقت الذى كان من
ذهب، حتى تحول إلى معدن عديم القيمة، عندما جمع
حواله مماليكه ومن انضم إليه ووجد أنه فى مائة الف
رجل، هنا قرر التحالف مع ممالك مصر، وأرسل إلى
الملك المظفر قطز صاحب مصر، وإلى المغيـث
صاحب الكرك بأن يرسلوا إليه بقواتهم لمواجهة التتار.
وصد هجومهم!

•••

هذا القرار الجرى أتى متأخرا، إذ أنه لم
يستجب إلى ما أبداه له امراء الممالك فى حينه، هو
الذى عجل بفتح شهية هولاءكو، عندما حرضه على
ممالك مصر، ولم يكن يدري بأن التتار لن يعطوه
الوقت حتى تصل جيوش مصر والكرك، فقد سارع
المغول بمحاربتة واضعفوا قوته وأنهار جيشه سريعا،
ولم يعد أمامه إلا الموت أو التسليم. وقد أدرك زوال
ملكه فاشتد اضطرابه وتردده.

وكان ببيرس فى جماعة من ممالكه قد انضم
إلى جيش الملك الناصر، بعد مقتل فارس الدين إقطلى
بمصر، وقد شاهد بعينه حال ما جرى فى الشام،

وتخازل بنى أيوب وتنازعهم، ولما أشار الأمير زين الدين الحافظى على الملك الناصر بمدراة التتار والدخول فى طاعتهم، انتفض بيبرس وهجم عليه يسبه ويضربه بيديه قائلاً:

"أنتم سبب هلاك المسلمين".



وقد رأى المماليك كيف يتخازل الملك الناصر. هنا اقترح بيبرس على من حوله، قتل الملك الناصر وتوليه آخر يستطيع القيام بالجهاد الأكبر، حتى يعطل زحف التتار على مصر، وأنه كفيل بأن يقنع "قطز" بدفع كل قوته للتحالف مع جيش الشام. لكن ذلك لم يتم، والملك الناصر، حتى آخر لحظة يرى أن "المماليك المسلمين" أخطر عليه من المغول!



وقد حاول المماليك الصالحية قتل الملك الناصر فى الشام إلا أن المحاولة تفشل ويهرب الملك الناصر بخاصته إلى قلعة دمشق، فيسعى إليه الأكابر والأمراء لتنفيذ التسليم بالأمان، واستغلال الفرمان الذى أرسله له هولالكو، الأمر الذى يجعل بيبرس يعجل ويسارع مع عدد من المماليك، ومن انضم إليه، بالرحيل إلى "غزة" ومن ثم إلى مصر.

دخل بمن معه فى طاعة الأتابك قطز، وقد رحب بهم قطز وكرمهم. وأمام الخطر الأكبر الذى يدهم الجميع تناسى بيبرس ما بينه وبين قطز. وعمل على رفعه لمنصب السلطان، باسم الملك المظفر قطز.

والمملك الناصر، الذى كان لا يزال غير مستقر على حال، بعد أن وافق على رأى المتخاذلين وفكر فى التسليم، عاد وعبأ قواته، وسار نحو الديار المصرية ونزل العريش، وصل إلى قرية القطيا، بين القنطرة والعريش فى صحراء سيناء. وقد سبقته جماعات من جنده قصدت مصر، إذ رأوا بأن ما كان ينادى به بيبرس هو الأفضل لهم، إلا أن الملك الناصر، خشى أن وصل إلى مصر طالبا الحماية والعون، بذلك يعطى للمملوك قطر الشرعية فى حكم بلاد الأيوبيين. عاد بمن معه إلى فلسطين، ونزل بوادى موسى، ثم نزل فى مكان يسمى "بركة ويزاء" وقد أدركه التتار هناك، كان فى نفر قليل من اتباعه ومماليكه مما اضطره إلى الاستسلام، وقد زالت قوته، احتفظ به المغول حتى ينفذ هو لاكو خطته، المطالبة باسمه بعرش "كروان سراى" "مصر"، المستهدفة أصلا منذ حرك هو لاكو جيشه منى بغداد. عندما عبر المعابر التى أقيمت على نهر الفرات.

•••

ظل الملك الناصر معلقا بفرمان هو لاكو، لا يعامل كملك، كما لا يعامل كاسير، فى قصر قليل الشأن، بعد أن استقبله هو لاكو، ووعدته برده إلى مملكة تضم مصر والشام واملاكهما فى الشرق والغرب، هو لاكو عباه بالأمانى وتركه منفوخا ليتحرك مع أقل نسمة هواء!

(٢١)

الظروف تخدم كروان سراى

□ هولاكوخان، حفيد جنكيزخان وابن تولوى وأخو "منكوخان" الخاقان الأعم للمغول، شهرته وهيبته وقسوته فاقت كل تصور، منذ انطلق بجيوشه الجرارة من "توران" واستولى على إيران، وهبط على بغداد كالعاصفة، قتل خليفة المسلمين العباسى، وعبر نهر الفرات بعد أن حولها، إلى نهر من الدماء مغطى بالجنث، واستولى على الشام، دمر قلاعها وضرب مدنها وسبى أهلها، تهباً فى جيش لا طاقة لأحد فى صده، أو رده، للزحف على مصر، والهدف الأعظم الذى تحرك من أجله هولاكو أن يعبر من مصر إلى المغرب، ويطرق أبواب أوربا من الأندلس، ويزحف على الفرنجة هناك ويمضى إلى وسط أوربا لتلتقى جيوش المغول فى آسيا، ويتم إخضاع العالم لخلفاء جنكيزخان..!

•••

شاعت الأقدار، وهولاكو يقود المعارك باقتدار، من تخوم الصين إلى باب مصر الشرقى، أن يتخلى عن قيادة جيوشه "لكبتو بوفانوبان" الذى يوصف عندهم بالأسد الهصور، والتنين القوى، وتلك لظروف تتعلق بعرش الخاقان الأعظم، إذ علم هولاكو بوفساء أخيه

منكوخان، "الخان الأعظم" على جميع التتار، واضطر
أن يعود إلى الشرق طامعا فى أن يختاره مجلس
الكورتولاى، خاقانا أعظم، مكان أخيه منكوخان.



لكن، كان هناك أخ ثالث اسمه قوبيلاي، كان
واليا على بلاد الصين من قبل أخيه، وقد خلف
منكوخان على جميع بلاد التتار. وفى هذه المسائل لا بد
وأن تتصادم قوى التتار، ويفوز من يتغلب على الآخر،
فدارت الحرب بين الأخوين، قوبيلاي وهولاكو، وهما
من بيت جنكيزخان.

كان ذلك عام ٦٥٩ - ١٢٦٠م "أنها الأقدار التى تتدخل
فى الوقت المناسب لإنقاذ مصر".

بينما رسل المغول يدخلون القاهرة، ويقدمون
إنذارهم المرعب إلى الملك المظفر قطز، يتلونه عليه
فى الديوان السلطانى أمام الأمراء والشيوخ وأعيان
البلاد، وقد جلس قطز على عرش الأيوبيين وعلى
يمينه مقدم عساكره، الأمير ركن الدين بيبرس، وقد
تناسى الجميع أمام الخطر الأعظم ما بينهم من
خصومات وعداوات وتنافسات.

"إنذار هولاكوخان.. إلى أمراء ومماليك
المرحوم الملك الصالح نجم الدين أيوب"

وكان عدد رسل المغول خمسة رجال، يتسمون
بالشجاعة والوقاحة، تقدم كبيرهم، وقبل أن يتلوا الإنذار
قال:

"علمنا أن السلطان المعز أيبك التركمانى رميلكم قد قتل، و علمنا أن السلطانة شجر الدر قد قتلت، و علمنا أنكم أرحتم الملك المنصور من حكم مصر، و علمنا أن أحوالكم الداخلية مضطربة وسيئة، خاصة وأن الفلارين من الشام جاءوا لكم بدون أموالهم، و علمنا أن نظمكم فى استغلال البلاد سيئة، مما جعل الزراع فى أسوأ حال. و علمنا أن من يملك المال يهرب إلى المغرب والصحراء العربية واليمن، و علمنا أن الشقاق دب بين الأمراء الكبار بعد مقتل كبيركم إقطاى.

وصاح فيه بيبرس؛ ما على الرسول إلا البلاغ بما يحمله من رسائل، لا نريد أن نسمع ما تعلم به، فنحن أيضا نعلم الكثير.

"وتحرك بيبرس خطوة إلى الأمام فى عصبية وقال: - نحن علمنا أن منكوخان، الخان الأعظم مات، وأن هولاكو عاد إلى الشرق، و علمنا بأحوال كثيرة تدور بين خان الصين، و خان ايران فلا تزعجنا بما حمله لكم جواسيسكم.

وأشار قطز إلى بيبرس أن يهدأ، وأشار إلى كبير رسل المغول بأن يقرأ رسالة هولاكو، ويكف عن اللقاء ما علم به. وقال قطز:

"ربما يكون كثير مما تعلمه غير حقيقى، أنت الآن تخاطب أهل مصر، وعلى ضوء رسالة هولاكوخان، سيكون ردنا.

سريعا ما اندمج كبير رسل المغول فى تلاوة رسالة هولوكو، وهو إنذار المغول المعتاد الذى قد يتلونه، بينما قواتهم تتحرك ولا تنتظر ردا، وقد حددوا هدفهم منذ البداية، أما تمسكهم بإرسال الإنذارات فذلك لإحداث الإنقسامات بين المدافعين، وشغلهم عن الخطر الحقيقى الذى، عادة، ما يبدأ بالزحف نحوهم وهم فى كل الأحوال يبيغون "كروان سراى" أم الدنيا، زميلة الصين سلما أو حربا، ولن يثنىهم شئ عن ذلك وخاصة وأن حكامها أجانب، فلماذا لا يكونوا هم حكامها مادام شعب مصر يقبل ذلك، فمئها ستزحف جحافل المغول إلى المغرب وتعبير المضيق إلى أوربا.



"من ملك الملوك شرقا وغربا القان الأعظم، باسم اللهم باسط الأرض ورافع السماء، يعلم المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك العبيد الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتعمون بإنعامه، ويقتلون من كان سلطنة المرحوم تورنشاه الملك المعظم سليل حلفاءنا الأيوبيين"

ويعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال، إننا نحن جند الله فى أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، ولكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر، فاتعظوا بغيركم، وأسلموا لنا أمركم، قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا، ويعود عليكم الخطأ، فنحن ما نرحم من بكى، ولا نرق لمن شكى.

حتى ولو كان فى مقام الخليفة العباسى وأركان حكمه،
وقد سمعتم أننا فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من
الفساد، وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا
بالطلب، فأى أرض تأويكم وأى طريق تتجيكم وأى
بلاد تحميكم؟

فما من سيوفنا خلاص، ولا من مهاينا مناص، فخيولنا
سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا
كالجبال، وعددنا كالرمال، فالحصون عندكم لا تمنع،
والعساكر لقتالنا لا تتفع، ودعائكم علينا لا يسمع، فإني
أكلتم الحرام، ولا تقفون عند كلام، وخنتم اليهود
والإيمان، ونشأ فيكم العقوق والعصيان، فأبشروا
بالمذلة، والهوان، فالיום تجزون عذاب الهون بما كنتم
تستكبرون فى الأرض بغير الحق، وما كنتم تقسقون،
وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون، فمن طلب
حربنا ندم، ومن قصد أمننا سلم، فإن أنتم ولأمرنا
أطعتم، فلکم مالنا وعليكم ما علينا، وإن خالفتم هلكتم،
فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم فقد حذر من اندر، وإن ثبت
عندكم أن نحن الكفرة، قد ثبت عندنا أنكم الفجرة، وقد
سلطنا عليكم من له الأمور المتعددة والأحكام المدبوة،
فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير
الإهانة ما لملوكم عندنا سبيل، فلا تطلبوا الخطأ،
وأسرعوا برد الجواب قبل أن تتدلع الحرب بناها
وترمى نحوكم شرارها، فلا تجدون منا جاهاً، ولا
عزاً، ولا كافياً، ولا حوزاً، وتدهون منا بأعظم داهية.
وتصبح بلادكم منكم خالية، فقد أنصفناكم إذ أرسلناكم،

وأيقظناكم إذ حذرناكم، فما بقي لنا مقصد سواكم،
والسلام عليكم، وعلى من أطاع الهدى، وخشى عواقب
الردى وأطاع الملك الأعلى، القان الأعظم.
"إذ قل لمصر ها هلاوون قد أتى * بحد سيوف تنتضى
وبواتر * يصير أعز القوم منها أدلة * ويلحق أطفالا لهم
بالأكابر"

•••

كان بيبرس-وهو يسمع- كثير العصبية، وكساد لعدة
مرات أن يقاطع رسول المغول، لكن قطز كان يشير
إليه بالهدوء في تعقل حتى فرغ الرسول من تلاوة
رسالته، وتسلمها منه، وأمر لهم بالاستضافة في مكان
أمين عقد عليه الحرس، وعقد اجتماعا سريعا بلأمراء
وأخذ يدلى برأيه ويستمع لبقية الأراء، وقد شارك في
هذا الاجتماع جميع من حضروا الإنذار من الشيوخ
والأعيان في مصر، وتحدث الجميع عن كافة البلاد
التي داسها المغول من ديار بكر وربيعة والشام
الممتلئة بالمناحات والفجائع، وسقوط الملك الناصر بين
أيدي المغول يحبسونه عندهم وبه يعلنون تحالف البيت
الأيوبي، أو ما بقي منه معهم، وقال قطز:

- هنا ينبغي أن نختار الصلح، أم القتال، أو الجلاء
عن الوطن، أما الجلاء عن الوطن فأمر متعذر.

وتدخل الأمير ناصر الدين القيصرى قال:

- وليس هناك مصلحة أيضا في مصالحتهم إذ أنه
لا ثقة بعهودهم، كما أن لا طاقة لنا ولا قدرة على
مقاومتهم وقتالهم.

وقال بيبرس الذى كان معبأ بالثورة والغضب:
- ليس هكذا نناقش الأمور مع المغول، ليس أمامنا إلا
حشد الحشود والقتال، الموت لنا أو لهم، وعلينا الآن أن
يكون ردنا حاسماً، دعنى يا سلطان قطز أقتل رسل
المغول، حتى أرفع من الروح المعنوية للأهالى
والأمراء، وعلينا أن لا نستحکم فى مصر حتى لا
يأتون ألينا ويخربونها، هم إذا أتوا إلينا سيحاصروننا
فى قلاعنا ويفوزون بأرضنا وزرعنا وضرعنا، علينا
أن نحشد الحشود ونقصد "كبتوفونوبان" فإن انتصرنا
عليه كانت لنا. وإن هزمنا، نكون قد كسبنا الشهادة فى
ميدان القتال، وما نحن إلا أهل موت، طالت أو قصرت
حياتنا سنموت. "على أقل تقدير" لا نموت بدون جهاد،
وذكرى طيبة ستبقى لنا طويلاً.

وافق قطز على رأى بيبرس، وأتجه إلى مكان
بعيد ووقف وقال:

- لقد اخترنا الجهاد فى سبيل الله، من كان معنا يتقدم
إلينا. ومن كان علينا فليذهب الآن ويرحل عنا، لن نسأله
إلى أين سيذهب، إلى "المغول" أو "المغرب" لن ينجو
أحد من المغول إلا إذا أوقفناهم بعيداً عن مصر.
وبدأ الأمراء والشيوخ والأعيان فى الانتقال من
صف التخاذل إلى صف الجهاد والحرب.

•••

جهز قطز جيشه من المماليك فى مصر،
وعساكر الشام والعرب والتركمان وغيرهم، وطلب من
أعيان ومشايخ مصر الأموال والمساهمات. كما شكل

مجلسه دائما لکی يعتمد عليه في تدبير الأحوال الداخلية، وفي جمع الأموال والعتاد للجهاد. كان بين الشيوخ، الشيخ عز الدين عبد السلام، والقاضي بدر الدين السنجاري قاضي الديار المصرية، وغيرهما من العلماء والفقهاء، تشاورا في موضوع الجهاد وجمع المال، وأبتدأ الشيخ عز الدين بن عبد السلام الكلام في حضور أمراء المماليك قائلا:

- إذا ما طرق العدو بلاد الإسلام وجب القتال وجزا لكم يا حضرات الأمراء أن تأخذوا من الرعية ما تستعينون به على جهادكم، بشرط ألا يبقى في بيت المال شيء، وأن تبيعوا ما لكم من الحوائص المذهبة، والآلات النفيسة، ويقتصر كل الجند على مركوبه وسلاحه. هنا يكون على العامة تقديم كل ما يلزم، فلا يكون الإرهاق على جماعة المسلمين من تجار ووزراع وحرفيين، بينما الأمراء يحتفظون بالثمين من النفائس والآلات الفاخرة.

أعلن ببيرس أنه مع رأي الشيخ عز الدين بن عبد السلام ودعى أن يتخلى الأمراء عما يملكون، كما يتخلى المشايخ عما يملكون، ويدفع الأهالي باقي ما يلزم ويشرهم بأن ما يعطى الآن إذا ما كتب الله النصر لنا والعودة، فقد يتضاعف، أما لو قتلنا فإن الاحتفاظ به بعيدا عن الجهاد لن يكون له معنى إلا الضعف والهزيمة.

"سارع قطز بالانضمام لهذا الرأي وأرغم جميع الأمراء على أن يتبعوه"

أما من رأى المغادرة من "المماليك" والرحيل
عن مصر غربا فقد رأى بيبرس استدعائهم إلى قلعة
الجبيل وقتلهم، لكن قطز أوقف تهوره، وأجل بحث
رأيه إلى لقاء خاص له معهم، يقنعهم فيه بالحسنى، فإذا
لم يرتدعوا ترك له شأنهم، وحتى يغلق عليهم الطريق،
كما رفض بيبرس رأيا قدمه الأمراء المماليك بأن
يتحصنوا في مصر وينتظروا قدوم المغول الذين قد
تشغلهم الشواغل فلا يأتون، في هذه الظروف صمم
قطز مع بيبرس على الخروج إلى القتال والزحف
بالجيش إلى الشرق، وطالب الولاة "بازعاج الأجناد في
الخروج للسفر" "ومن وجد منهم قد تخاذل، يضرب
بالمقارع، وإذا تمادى.. يقتل!!"

•••
خطب الخطباء على المنابر أن سبى حريم
المسلمين في رقاب المتأخرين، ولما تأكد الملك المظفر
قطز من إجماع الأراء على قتال التتار طلبا للنصر أو
الشهادة، حثه بيبرس وهو الذي كان مغناظا من وقاحة
الرسل، على قتلهم، فأمره أن يفعل، فقام بيبرس في
شيء من التجمهر وأمام أكبر جمع من الناس بتوسط
"قتل" واحدا منهم "بسوق الخيل" تحنت أسوار قلعة
الجبيل، ووسط آخر بظاهر زويلة، ووسط الثالث بظاهر
باب النصر، ووسط الرابع بالريدانية، وأرسل الصبي
الأمرد الذي كان مع الرسل إلى قطز لجعله من جملة
مماليكه، وعلقت رؤوسهم جميعا على باب زويلة بين

التهليل والتكبير والحماس الشديد من الأهالي، فقد بدأ أمراء المماليك القتال بحصد رؤوس أربعة من التتار، وبذلك لا عودة فيما تم الأخذ به، من تعهدات بالقتال، "النصر أو الشهادة".

.. وفى الليل، ضربت الكوسات وهى صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر فى إيقاع مخصوص بالحرب، كما دقت الطبول وبدأ تشهيل الفرق فى نظام وترتيب وكان فى مقدمة الجيش "قطز" و"بيبرس" وحولهما مماليكهما، وكان قطز وبيبرس لا يكفان عن إشاعة الحماسة لدى أمراء الفرق فانصاع الجميع لهما، وساروا للقتال بالعدة والعتاد، وعند الصالحية، سبق بيبرس بمقدمة الجيش للاستطلاع، وكشف أخبار العدو حتى وصل إلى غزة، وكانت مقدمة الجيش المغولى قد وصلت إلى "غزة" بقيادة القائد "بيدار"، فلما رأى طليعة جيش المسلمين أرسل إلى "كتبغا" فى بعلبك، يخبره بما رأى، ويطلب النجدة، إذ أن بيبرس يتقدم فى قوة كبيرة تبغى الحرب وليس الاستكشاف والعودة.

فأرسل إليه كتبغا قائلاً:

قف مكانك وانتظر أنهم لا يجرعون.

•••

إلا أن بيبرس لم يمهل حتى تصل إليه النجدة، وفى ظن "بيدار" أن بيبرس لا بد وأن يستريح ويبنى معسكرا، وهو الذى قطع مسافة طويلة من الطريق، إلا أن بيبرس كان يفعل عكس المطلوب والمعتاد، هاجم

قوات بيدار، فانكسر التتار أمامه، طاردهم حتى نهر العاصى، وهو يعمل فيهم القتل ولا يحتفظ بأسرى، كان يحاربهم بوحشيتهم، قتل منهم المئات، مما أشاع الروح العالية عند المسلمين، وقد زين لهم الطريق برؤوس المغول المعلقة على أعواد الأشجار، وعلى الأسوار، وفوق المباني التى خربوها، وكان المسلمون بتصايحون، "الله اكبر، الله اكبر"، كلما تقدموا وشاهدوا، رؤوسا للمغول مقطوعة تزين لهم الطرق!

وصل الجيش مع قطز إلى "غزة" وهو آمن، وحط الرحال فيها، وقد بدد بيبرس الخوف من قلوب جنود الحلقة، والماليك، ومن صاحبهم من الأهالى، وأظهر لهم عكس ما يتخيلون، فقد شاع بأن المغول لا يهزمون ولا يقتلون، وأن جعجعة رسولهم التى كانت تطن فى الأذهان وهو يلقي بإنذاره الرهيب، تحولت عند المصريين إلى سخرية ونكات، كما أن الرواة صوروا ما فعله بيبرس تصويرا أبداعيا، يعلو بالهمم ويظيل الرقاب، ولعل ذلك كان هو المطلوب من تعبئة ومغالاة مقصودة، أدت إلى ترك الأثر فى نفوس أمراء المماليك، وخاصة أمراء قطز، وقطز نفسه، الذى صار ما فعله بيبرس، يحيطه من كل جانب، لكن قطز كان متقلا، والظروف التى تحيط به، لا تجعله إلا فى صف "بيبرس" مهما لزم اللامزون من حوله، ومهما لمح اللامحون بأن ذلك ليس فى صالحه!

لم يطل مقام قطز فى غزة إلا يوما واحدا وشهلا بجيشه وعتاده وسار بحذاء الساحل حيث توجد إمارات

الصلبيين، فلما سمعوا طبوله وكوساته وشاهدوا أعلامه
وجحافلهم خرجوا وقدموا له الهدايا وعرضوا عليه
المسير معه ومساعدته كشركاء، لكنه اكتفى بأن أخذ
عليهم العهود والمواثيق، أن يكونوا لاه ولا عليه، وقد
بين لهم خطأ بعض الأمراء الصليبيين في معاونة
التتار لحرب المسلمين بالشام، وقد خرجوا من تحالف
المغول بدون مغنم، وأقسم لهم بأغلظ الأيمان، إذا تبعه
منهم فارس، أو راجل يريد أذى بعسكر المسلمين
لرجع وقاتلهم قبل أن يلتقى بالتتار!

•••

لما علم بيبرس بتلك العهود بين قطز وأمراء
الصلبيين قال:

- لو كنت مكان الصليبيين لقدموا لله الشكر أنهم لم
يقابلوني على رأس الجيش، لكن لكل ثمرة أو ان تتضح
فيه وتوكل!

•••

كان صاحب "حماة"، الملك المنصور، وأخوه
"الفضل" قد حلا بفلسطين عندما علما بتحرك جيش
المماليك، وضم ما معهما إلى جيش قطز طائعين.
وكان مقدم جيش التتار "كتبغا" في النجاف، وعلم
بأن بيبرس لا يحتفظ بأسرى من المغول ويقتلهم
جميعاً، وأن قطز يسير إليه بجيش كبير، استدعى
"كتبغا" إلى مجلسه الملك الإشراف صاحب حمص،
وقاضى القضاة محى الدين محمد بن يحيى المعروف
بابن الزاكي، والملك السعيد صاحب الصييت ابن
العزیز بن العادل، وآخرين من أعيان وشيوخ الشام،

واستشارهم في الأمر، كان كتبغا يعلم بأن لا نجدة ستصل إليه من هولاكوه، الذي صار مشغولا بالوصول إلى عرش الخاقاناه الأعظم، في الوقت القريب على الأقل، وأراد كتبغا أن يكسب الزمن الذي عجل هو به، فأشار بعضهم عليه بالانتظار حتى تصله إمدادات هولاكوه ليتقوى بها على لقاء المماليك الذين عزموا على القتال حتى الموت أو النصر.



كان كتبغا قد ذهل مما يسمعه من طرق القتال التي يمارسها المماليك منقولة مما يتقنه المغول، أنهم يحاربون بنفس الجسارة والخداع، وقد أشار إليه بعضهم بأن لا يركن للانتظار، وأن يبادر ويتحرك في اتجاههم.

وقد فقد كتبغا أهم أسلحته، الرعب في القلوب، والاضطراب في النفوس، • كان يضايقه أنهم يبدؤون بقتل رسل المغول مع ما في ذلك من استهانه واحتقار، وأحنقته. أكثر، أخبار قتلى غزة، وفرار من بقى من التتار أمام بيبرس والذين أشاروا إلى كتبغا بالقتال من ملوك الشام، كانوا يتمنون إضعاف الجانبين لتقوم قائمتهم من جديد، وكتبغا كان مضطرا بأن يلين من الجانب العاصي في نفسه، ويبدى شيئا من الاحترام لما بقى من بيت بنى أيوب، وهو الذي لم يتساور مع الملك الناصر الذي كان حبيسا عندهم، على أساس أنه حاول يوما قتالهم، وهو شئ لا يغفره المغولي، ومع ذلك أرسل إليه من يستطلع رأيه، وقد ارتهن مصيره

بانتصار المغول، لكنه مصير العبيد الذين لن يكون لهم شان، وكم عض الملك الناصر بنان الندم، وهو يسمع إلى ما يتناقل من أخبار جيش المماليك المصريين، وذات يوم عرضوا عليه قيادتهم، وضم قوة الشام على قوة مصر، لكنه لم ينظر أبعد من قدميه، وراح يتمنى في قرارة نفسه هزيمة المغول، - لكنه كان يعيش حلما كسيحا لا يمكن أن يحلق في السماء، أنه لم يتصور بل أن هناك قوة تهزم التتار، وهم بعدد رمال الصحراء، وجميعهم جنود يستجيبون للقتال.



انتهى "كتبغا" إلى جمع التتار الذين كانوا قد تفرقوا في بلاد الشام وزاد عددهم عن ثلاثين ألف مقاتل، وجعل لكل مقاتل اثنين من الشوام يمنونهما بالغنائم والوظائف ونوع من الاستقلال تحت الشعار المغولي، وفي ظن كتبغا أن المغولي يعادل عشرة من المماليك، فإن حرب الأحرار تختلف عن حرب العبيد، وقد استهل بذلك خطابه لجنوده، وقصد به التقليل من شأن المماليك وكان بصحبته الملك السعيد حسن بن الملك العزيز عثمان وعرض "كتبغا" على الصليبيين في أمارة عكا أن يحالفوه على قتال المسلمين، لكن قطز كان قد قطع عليه الطريق، وهددهم، فضمن المماليك حياذ عكا وبات متوقعا صدام الفريقين.. المدوى!
ومن كثرة ترديد اسم بيبرس أمام كتبغا.. تمنى لو أن يقتله بيده..!

(٢٢)

عين جالوت معركة عامة.. ومعركة خاصة

□ إستمر قطز فى التقدم بجيشه حتى وصل إلى "الغور" الذى به "عين جالوت" تلك البلدة الصغيرة الواقعة بين بيسان ونابلس فى أرض فلسطين. كان التتار قد وصلوا بأعداد كثيفة إلى نفس المكان وهناك تجمع جيش المماليك. كان ذلك فى رمضان وقد أصر معظم المحاربين على الصوم مع المجاهدة، والسير وحمل الأحمال والحركة الدائمة. ذلك كان فى اليوم الخامس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨هـ — أوائل سبتمبر ١٢٦٠م.

اجتمع الملك المظفر قطز بجميع الأمراء وقادة الجيش وخطب فيهم، يحضهم على القتال، ويرغبهم فيه، وذكر لهم ما لحق بالأقاليم الإسلامية التى خدعت بالسلام التتارى.. وخوفهم من عقاب الله إن هم ولوا الأذبار أمام عدوهم، فضجوا بالصياح وتحالفوا على الجهاد والاجتهاد فى قتال التتار ودفعهم عن البلاد"

• • •

ثم اجتمع قطز مع بيبرس وبقية الأمراء الكبار لوضع خطة الحرب. كانت الخطة التي قدمها بيبرس بسيطة للغاية، تتلخص في إيهاام العدو بقلعة عدد المسلمين، أن يقود ثلث الجيش وبعد مناوشات قليلة ينسحب الجيش وينكسر أمام المغول، فيستدرجهم إلى "المضيق" وهنا يظهر جيش المسلمين من الخلف ويستدير الجيش المنسحب من الأمام، وان يعمل الذين رافقوا الجيش من الأهالي في دفع الحجارة من فوق الجبل، ذلك يحبط عمل الجناحين في جيش المغول، كما أنه يمكن المماليك من "القلب" على أن تكلف فرقة خاصة بشق طريقها إلى قلب جيشهم والوصول إلى قيادته، وقتل كبيرهم ومن يحيطون به.

وإذا ما تم تقليب الخطة ومراحل الخداع، وإلقاء من يوصل لهم تنازع الأمراء وعودة بعضهم بقطاع كبير من الجيش، رأى بيبرس أن يتحمل المفاجآت التي قد تتمخض وترد أثناء سير المعركة.



وافق قطز على خطة مقدم عسكريه، وذهل قطز إذ يختار بيبرس أصعب المهام وأخطرها، وهو إن فكر في الخلاص منه، لن يجد وسيلة لتقنعه بأن يكون في مقدمة الفرقة القليلة التي سيطبق عليها المغول وتتقهقر بخسائر تقنعهم على أن ... يتبعوهم ويطاردوهم.



وهكذا اصطدمت طليعة جيش المسلمين مع جيش التتار، وأبتلع كتبغا الطعم بأن هناك انقساماً، وأن

ما يلتقى بهم، ما هم إلا شرزمة من المماليك ييغون
الانتحار، فلم يسبق أن فاز عليهم أحد، فما حال هذا
الجيش الذى لا يزيد عن عشرة آلاف، وهم يقاتلون
بضراوة، ثم ينكسرون، أمام الجناحين فيتقدم خلفهم قلب
الجيش إذ أن "المضيق" أبطل عمل انقضااص الأجنحة
بعد فردها، وكان جيش بيبرس يصمد قليلا ثم يتقهقر،
ويتقاتلا قتالا شديدا لم يرى كتبغا مثله، وكان السلطان
قطز يصيح فى جنوده يحمسهم للقتال والصمود ويشجع
أصحابه ويحسن لهم الموت وقد القى بخوزته
صائحا وأسلماه" فاشتدت عزائم الجيش القليل أمام ضغط
المغول. وتقدم فرسانهم إلى المضيق، فكان المسلمون
يتقهقرون، وهم يتابعونهم مضحين بكثير من القتلى
والجرحى، ذلك جعل المغول يتمادون، إذ أن جيش
المامليك لا يصمد أمامهم، وكأنه يبحث عن منفذ له
ليهرب من المضيق عائدا أدراجه من حيث أتى.

وإذا نجح بيبرس فى تنفيذ المرحلة الأولى من
الخطة المحكمة، انقضت القوات الأخرى الهائلة من
ثلاث جهات. من الأمام. والخلف. ومن فوق المرتفعات،
تقذف بالحجارة والأمتعة والعجلات ومقلات الحصار
الذى أشعلوا فيها النيران، كما أن عددا من المماليك
كانوا يلقون بالنفط وكور القش المشتعلة، وأمكن عزل
المترجلين التتار عن فرسانهم، وحصر الفرسان، وهم
قلب الجيش المغولى، وبينهم كتبغا وأركان حربه،
قاتلوهم قتالا مستميتا طوال اليوم، وحتى فجر اليوم
التالى.

وقد تعذرت المقاومة على جيش المغول، ولحقت بهم الهزيمة آخر الأمر. وولى بعضهم الأديار إلى الشام، وأمكن لبيرس أن يشق الطريق إلى حيث كان كتبغا وأركان حربيه، مستعينا بمماليكه. وأمكن له قتل كتبغا بيد (جمال الدين أقوش الشمسى)، وقبض على الملك السعيد حسن بن العزيز عماد الدين ابن الملك العادل، ومثل بين يدي الملك المظفر قطز، وكان الغتار قد أعطوه، إحدى القلاع، وكان قد قاتل المسلمين قتالا شديدا يوم "المصاف" في عين جالوت، فأمر قطز بضرب عنقه.

أنسحب الغتار بعد هزيمتهم الأولى إلى الجبل المجاور، وهنا حاول الصبي المغولى قتل الملك المظفر قطز الذى كان يصيح فى الجنود،
"وأسلماه.. بالله انصر عبدك قطز على الغتار"
واكتشف أحد مماليك قطز محاولة الصبي المغولى الذى جعله فى خدمته ليستعين بلسانه المغولى، فأراده قتيلا. وتجمع جيش المسلمين على الغنائم، وما صحبه المغول من عتاد وأموال وذخائر. لكن بيبرس كان يشجع مماليكه وبقية الأمراء ليلتبع فلول الغتار حتى حدود الفرات.

فعمدما وصلت لمدن الشام وقلاعها ما جل بالغتار من هزيمة فى عين جالوت، وكيف يطاردهم بيبرس، ويقتل كل من يقع فى يده، هرب نواب الغتار من دمشق، وكان نائبها "أيل سيان" يتبعهم أصحابهم وكانت مدة استيلاء الغتار على دمشق سبعة أشهر

وعشرة أيام، وراح ينضم للجيش المنتصر من أهالي الشام الكثيرين، يطاردون المغول ويثأرون منهم في كل مكان. معركة عين جالوت استمر القتال فيها يومان طويلان ثقيلان، وعندما طلع صباح يوم الثامن والعشرين من رمضان، كان العيد الحقيقي على الأبواب، أنه عيد الفطر والنصر لعام ٦٥٨هـ، نهاية عام ١٢٦٠م مما حدى بركن الدين بيبرس، عندما آلت إليه السلطنة، إقامة نصب تذكاري تخليداً لذكرى انتصار المسلمين على التتار. أطلق عليه "مشهد النصر" كان المسلمون يحجون إليه، تبركاً، بذلك اليوم المشهود الذي كان الحد الفاصل بين عهد الطغيان والجور التتاري، وبين عهد جديد، فتح المجال لانتصارات أخرى متلاحقة.



أرسل راس كتبغا إلى القاهرة، لتقام زينات النصر، بينما استمر جيش قطز في تطهير الشام من التتار واستعادته، فإن عصور القوة، لا تكتمل لمصر إلا إذا كان الشام معها، وحتى ينكر التتار على العزب وأهالي مصر والشام، حققهم في هزيمتهم، أشاعوا بأن المغول لم يغلبهم غير جنسهم، وفي ذلك قال الشعراء:

غلب التتار على البلاد فجاءهم.
من مصر تركي وجود بنفسه.
بالشام أهلكهم وبدد شملهم.
ولكل شيء أفة من جنسه!



وإذا ما لاح النصر تاما للمماليك أثر بيبرس أن
يأسر عددا من أمراء المغول ويجعلهم فى عهده، حتى
إذا ما فكر هولاء أن يأتى على مصر بالثلاث فرق
الكبيرة (كوكات) كل كوكة ثلاثمائة ألف محارب
وفارس، يبدأ فى قتل الأمراء.

وكان وصول جيش المماليك إلى ربوع الشام
يجعل الأهالى يتطوعون للإرشاد عن أماكن وجود
المغول، والأماكن التى يختبئون فيها، فيسهل أسرهم
وترحيلهم إلى معسكر المماليك مكبلين بداخل أقفاص
يتلقون سخط الأهالى ومحاولة الثأر منهم..

المغول إذا ما تأكد لهم هزيمتهم، قاموا بقتل
الملك الناصر وشقيقه، وأبقوا على ولده "العزیز"،
وانعكست آثار هذه الهزيمة على النصارى، وأهل
الزمره فى الشام، إذ كان بعض النصارى قد استطالوا
على المسلمين بدمشق. واستصدروا فرمانات من
هولاءكو بمنحهم كثيرا من الامتيازات، وهى خطة
العدو، عندما يفرق شمل الأمة التى يستعبدوها، بأن
يمنح بعضها مزايا يحرم منها الآخر، حتى لا يتحدا
ضده، وكانت قبيلة كنبغا "مقدم جيش المغول" فى الشام
قد اعتنقت الدين المسيحى، مما أثر على الموقف إذ
اعتز النصارى على المسلمين، وقد تعاون المغول مع
الصليبيين فى بعض الأحيان بينما رفض قطز أن يقبل
تعاونهم ضد المغول، والمغول دفعوا النصارى إلى بيع
الخمور فى دكاكينهم فى جميع الأوقات، والضرب
بثوابت المسلمين!

وقد طهر قطز بلاد الشام من المغول
و الأيوبيين ، ذلك من الفرات إلى مصر، ماعدا "الكرك"
الذى كان بيد "الملك المغيـث" ثم اخذ يرتب أمور الشام
ويضع على أقاليمها النواب والحكام، فأقطع الأمراء
الأقطاعيات، واستتاب الأمير "علاء الدين سنجر"
الحلبى فى دمشق، ومعه الأمير "مـجبر الدين أبو الهجاء
بن عيسى أبو خـشتر الكردى" وأمن الملك الأشرف
موس صاحب حمص، والذى كان نائب هولاكو لبلاد
الشام، وأقر الملك المنصور على حماة وبادين والمعرة
وأعطى "سلمية" للأمير شرف الدين عيسى بن مهنا بن
مانع أمير العرب. وجعل الأمير شمس الدين أقوش
البرلى العزيزى أميرا على بلاد الساحل، وغزة.
"وكان الأمير ركن الدين بيبرس يطمع بأن
يعطيه "حلب" وأن يكون نائبه فى الشام. فى البداية
وافق قطز على طلبه، فهو بطل عين جالوت بلا
منازع.

لكن بعض أمراء المماليك المحيطين بالملك
بينوا له أن من مصلحته الإبقاء على بيبرس معه فى
مصر، وأن يجعله فى دائرة محدودة حتى يحد من
أطماعه!

•••

•• فوجئ بيبرس وقد هدأت المعارك وسلم نفسه
للراحة قليلا، بصدور قرار سلطانى من قطز بإعطاء
"حلب" إلى "علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ" صاحب

"سنجار" وجعله نائبا للسلطان على حلب، مع ما كانت
تمثله حلب من كونها عاصمة الشام، وكانت مقر "الملك
الناصر" الذي قتله المغول وهو معهم متحالفا.



شعر ببيرس بفداحة الظلم الذى حاق به، أنه
جزاء سنمار، وللمرة الثانية فى حياته يثبت شجاعته
وجراته وذكائه ويكون قاب قوسين أو دنى من تحقيق
أحلامه فلا تتحقق، المرة الأولى كان بطلا لمعركة
قصر المنصورة، ومات الملك الصالح فأجهض مع
رحيله أحلامه فى الإمارة والنفوذ.. وهو اليوم بطل
وفارس معركة عين جالوت، والهازم الحقيقى للمغول،
حتى أن الشعراء أشاروا بخصاله المغولية، وقيل لا
يهزم المغول إلا تركى منهم، ولم يطمع فى شئ أكثر
من أن تكون له إمارة مثل أى أمير.

وإذا بزميله قطز الذى اختبأ خلف ظهر "أبيك"
حتى قفز على كرس السلطنة، وقد تناسى أى خلافات
بينهما، تناسى اغتيال أميره القوى فارس الدين إقطاي،
وتناسى أشياء كثيرة ليقف معه ضد الخطر الأعظم،
ينحيه بعيدا عن مطلبه، ينحيه بعد أن وافق مبدئيا،
وكانه استمع وصدق الوشاة الذين لا يملكون إلا السعى
والنميمة!



شرع الجيش المملوكى فى العودة إلى الديار
المصرية، غادر دمشق يوم الثلاثاء [السادس والعشرين
من شوال ٦٥٨هـ أكتوبر ١٢٦٠م] وفى الطريق إلى

مصر، كان قطز قد عزم زيارة حلب، لكنه عدل عن ذلك لما بلغه من تغير وضيق الأمير بيبرس لعدم حصوله على حلب، وعيون بيبرس أبلغوه بأن قطز قد أضمر له سوء، لذلك فضل الملك أن يسير إلى مصر بدلا من أن يقصد حلب، وأخذ كل منهما حذره من الآخر، وقد بات كلاهما يفكر في هلاك الآخر!

ولما وصل الملك المظفر إلى القصير ولم يتبق بينه وبين الصالحية إلا مسافة قليلة، تقدمت العساكر السلطانية إلى الصالحية، وبقي الملك المظفر قطز في جماعة قليلة من خواصه وأمرائه، ثم خرج لصيد أنارب الصحراء، فتيّعه بيبرس مع جماعة من أصحابه، كان يريد أن ينهي ما بينه وبين قطز من خلاف، لكن قطز حاول أن يفلت هاربا عائدا ومصورا الأمر بأنه أفلت من مؤامرة. لكن بيبرس مع عدد من مماليكه لحق به. وقد تمكن بيبرس أن يقبض على يد السلطان وأن يثبتته مكانه، وأن يعاتبه، وأن يجعله يشعر بما في نفسه من مرارة، لكن قطز أرجأ الحديث بينهما حتى يوصلا إلى قلعة الجبل. ثم سارع قطز وركب حصانه.

وعدد من مماليك بيبرس كانوا يحسبونها، إذا مل نكل بأمرهم ستذهب ريحهم، ويفقدون كل شيء، فعاجلوا واسقطوا قطز عن حصانه، اندفع قطز نحو بيبرس، فغيب خنجره في أحشائه، وقام المماليك وضربوه بسيوفهم دون أن يتدخل بيبرس، وإذا ما كلن لا يزال بقطز رمق حياة، رموه بالسهم حتى قتلوه،

وتركوه في العراء، فتقدم منه بيبرس بيكيه ويعاتبه
وهو ميت!

•••

كان ذلك في السابع عشر من ذى القعدة عام
٦٥٨ هـ/١٢٦٠م وقد عاد بيبرس وأصحابه إلى
معسكر "السلطان" وهم شاهرون سيوفهم، وكان الأتابك
"إقطاي المستعرب" الذي ترك في مصر واقفا على
باب الدهليز، فأخبروه بما كان من أمر السلطان قطز
وقتله فقال:

- من قتله منكم؟

أحجم ممالك بيبرس عن الرد فأجاب بيبرس:

- كان يدبر قتلى فقتلته.

الأتابك إقطاي المستعرب لم يندش . فقد كان
على علم بما يدبر لبيبرس وهو بطل عين جالوت
وكثيرون لم يكن يوافقون قطز على ما اتخذه، قال:
-إذن اجلس على مرتبة السلطان أيها الملك "الظاهر".

•••

وقد تم دفن قطز في القصير، ثم نقل إلى
القاهرة. وقيل فيه أن اسمه الحقيقي "محمود بن ممدود"،
وان أمه كانت أخت السلطان جلال الدين الخوارزمي،
وقيل أنه "عمه"، وقيل على لسان أصحاب الحكايات
الكثير، فأصحاب الحكايات كانوا يتحزبون لابطال
قصصهم. فإذا ما ذكروا شيئا عن الهلالية والزناينة.
كان لكل فريق رواة يميلون إلى جانب منهما، كذلك
عندما انتهى الصراع بين قطز وبيبرس بقتل الأول

وصعود الثانى إلى عرش مصر، كان هناك رواة،
يتخذ بعضهم جانب أحدهما ضد الآخر فى يوم.. وفى
اليوم التالى يبدل موقعه طبقا لمزاج الناس!



وقد ثبت أن بيبرس لم يركن للهدوء عندما بدأ
تباشير النصر فى عين جالوت، واستمر يجاهد ويطارد
المغول ويؤلب عليهم أهل الشام حتى استعاد حلب
منهم، وهو الذى انتصر على بيدرا قائد التتار فى غزوة
باللقاء الأول. وكان جسورا خلال المعركة الرئيسية فى
عين جالوت، وترأس الفرقة المتصادمة التى استدرجت
قلب الجيش التتارى إلى "الكمين" معرضا نفسه للهلاك
مبكرا.

لعل هذه الأعمال الجلييلة أثارَت من حوله
عداوات الأمراء وخاصة وأن معظمهم من ترقيات
قطز، يخشون على أنفسهم من سمعته وبطولته وشهرة
بيبرس، إذ لبيبرس مماليكه، فعملوا على أن يتم
التخلص من بيبرس حتى يدخلوا مصر ويشهدوا
الاحتفال بالنصر دون مزاحم للسلطان.

لكن بيبرس الذى كان يأتى بما ليس متوقعا،
كان الأدهى والأسرع فى أن يتعدى بالسلطان قطز قبل
أن يتعشى به، كان ذلك بتحريض من الأمراء - سيف
الدين بلبان الرشيدى و الأمير بيدغان الركنى - و الأمير
سيف الدين بهادر المعزى الأييكى. و الأمير بدر الدين
يتكوت، و الجوكندار المعزى، و الأمير بدر الدين
الأصبهانى، و علم الدين صنغلى، و سيف الدين بلبان

الهارونى، ومعظم هؤلاء الأمراء الذين تأمروا على قتل قطز من المماليك الصالحية، الذين هربوا إلى الشام، وصار زعيمهم بيبرس. واعتبروا قطز قاتل خشداشهم الأمير سيف الدين إقطاى. لذلك كانوا يتحينون الفرصة المواتية للوثب على قطز، وعلى سيوفهم وقع عبء معركة عين جالوت المصيرية، وكان الوحيد الذى يفرد عليه جناح حمايته هو أقواهم "بيبرس"، لكن إذا ما تلاعب قطز به، ولم يحقق له شيئا من أهدافه، غض الطرف عنه فقتل!

ومع ذلك، فقد بكاه السلطان الجديد، وأعاد دُفنه، فى مشهد كبير بالقاهرة، وقد صار قبر قطز مزارا للناس، حتى تناساه الناس كعادتهم، أمام عظمة دولة الملك الظاهر ركن الدين بيبرس، وقد بدأ النسيان يترى على الأذهان منذ نادى المنادى فى شوارع القاهرة.

"يا أهل المحروسة الكرام"
"ترحموا على الملك المظفر، وأدعوا لسلطانكم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس".

وعلى منابر مساجد القاهرة، ترحم الأئمة والوعاظ على روح الملك المظفر، وكالوا الدعاء للملك الظاهر، بطل وقائد وهازم التتار، ومحبط آمالهم فى دولة ودين الإسلام.



كان "قطز" من ممالك عز الدين أيبك، بينما عز الدين أيبك من ممالك الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد أعاد بيبرس للمماليك الصالحية عرش

مصر، وكان على ممالك المماليك ان ينتظروا رمنًا
ليصلوا إلى عرش مصر.

ولما علم التتار بقتل الملك المظفر قطز،
اعتقدوا أن في هذا فرصتهم السانحة للأخذ بثأر
الهزيمة الكبرى، لكن الناس في مصر والشام، كانوا
في حالة من الأطمئنان أبان حكم بيبرس إذ لم يمر
عليهم زمن مثله، وهم ينادون إذ لاح خطر:
"هاتوا لهم بيبرس، فهو لها، ولن يفلت منهم من عقاب
صارم".

•••

"وبالفعل كان بيبرس مؤسس دولة المماليك
الأولى، دولة قوية مهابة، هزمت الخصوم، وبثت
الرعب في قلوب الأعداء، طردت الصليبيين، وألزمت
التتار باحترام حدود دولته، وصرف النظر عن كزوان
سراى " أنها محطة الرجال، الذي يعمق تحررهم
تاريخها العريق".

1 / عبد الفتاح مرسى

الكتب

- عبد الفتاح مرسى
- ليسانس أدب (تاريخ) جامعة الاسكندرية.
- دبلوم عام من كلية التربية جامعة الاسكندرية
- عضو عامل باتحاد كتاب مصر
- مقيم بالاسكندرية ت ٣٠/٥٤٨٨١٥٢

كتب صدرت للمؤلف

- رواية- على حافة للنهار - ١٩٩٣ الثقافة الجديدة
- رواية- الدحديرة ١٩٩٤ - على نفقة المؤلف
- رواية- المحوس والملموس ١٩٩٥ للمجلس الأعلى للثقافة
- روائية - المقطوع والموصول ١٩٩٦ كتاب فاروس
- قصص- شهوة الموقف ١٩٩٧ دار الوفاء
- دراسة - الفن فى موكب الوعي ١٩٩٧ دار الوفاء
- رواية - المسخوط من سيرة على بلوط ١٩٩٨ دار الوفاء
- رواية - الليل وجبروته ١٩٩٨ دار الوفاء
- رواية- الابحار فى الرمل ١٩٩٩ دار الوفاء
- قصص- قبلات محطات السفر ٢٠٠٠ - الفنون والاداب
- رواية - أكثر من عمر ٢٠٠١ - الكتاب الفضى
- قصص- أتنعة الصفاقة المدهشة - ٢٠٠٢ دققات للنشر
- رواية - تلطيحة ابن خليل ٢٠٠٣ - دققات للنشر
- قصص - العكاكيز ٢٠٠٣ - دققات للنشر
- رواية - انعطاف النهر ٢٠٠٣ - هيئة الكتاب
- رواية - عبد الله والمدينة ٢٠٠٣ - دققات للنشر

- رواية - للبحر حالات ٢٠٠٥ - دققات للنشر
- رواية - العمامة والتاج ٢٠٠٥ - دققات للنشر
- رواية - البندقارى ٢٠٠٦ - دققات للنشر
- رواية - مذاق النهار ٢٠٠٦ - دققات للنشر

الجوائز

- المبدئية الذهبية وشهادة تقدير فى القصة من وزارة التربية والتعليم - الأقليم الجنوبى - كتاب عيد العلم عام ١٩٦١ م
- المركز الأول - فى مارثون القصة القصيرة ابداعات القادة- جهاز الشباب والرياضة عام ١٩٩٦ م
- المركز الثانى عن رواية (نغدا تاكل التفاح) - من نادى القصة بالقاهره عام ٢٠٠٠ م
- المركز الثانى فى القصة القصيرة عام ٢٠٠١ م عن قصة (صرصار جاف يتحرك) - من نادى القصة بالقاهرة
- شهادة تقدير عن مجموعة قصص (العكاكيز) من المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٣ م
- المركز الأول فى الرواية - من نادى القصة بالقاهرة عام ٢٠٠١ / ٢٠٠٢ م عن رواية (أكثر من عمر)
- مع طبع الرواية بسلسلة الكتاب الفضى.

كتب صدرت عن دفتات للنشر

- ١- العكاكيز - قصص
- ٢- نطيمة ابن خليل - رواية
- ٣- أقنعة الصفاقة المدهشة - قصص
- ٤- صحراء الذهب - قصص - حميدة راقم
- ٥- عبد الله والمدينة - رواية
- ٦- للبحر حالات - رواية
- ٧- رجل الخوف - مسرحيتان - شريف محى الدين
- ٨- العمامة والتاج - رواية
- ٩- البندقارى - رواية تاريخية

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET